جورج زيناتي

الخط الأبري

المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

الظما الأبدي

جورج زيناتي

الظمأ الأبدي

منشورات

المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

بيروت

توطئة

شعرت بأنفاس الحياة المتجددة تلفحني وانا اهبط من السيارة امام مدخل مدرسة الآداب . ها هو عام دراسي جديد يبدأ متأخراً هذه المرة بعد ان انتهى صيف طويل حافل . الكابوس يفارقني قليلا وانا انظر الى ابنية المدرسة البيضاء وتنتابني رعشة الفرح الأليم ، لم يعد هنا ولكني اشعر كثافة فراقه في عظامي . يا الهي ان التمزق والألم افسحا المكان للنشوة المضنية . لا ليست هذه مدرستي الحبيبة انها وحش بلا معنى . وسلامات الزميلات والزملاء اصوات جافة جاحظة فقدت دفء الحياة .

كلا انه ما زال هنا وسألقاه لتوي فتعود للاصوات انسانيتها وللحجارة عاطفتها . وبدون ان ادري وجدتني امـــام باب

الصف ففتحته ببطء وألقيت نظرة سريعة على الغرفة الفسيحة فسرت في نفسي رهبة خفيفة حين لم ار احد وعدت انظر أمامي الى مقعد الاستاذ فوجدته خاليا وعـــدت اسرح نظري في الغرفة ثانية وفجأة انتفضت بكليتي كمن مسه تيار كهربائي واحسست بالقشعريرة باردة في ظهري ولم استطع ان اتمالك نفسي من اطـــلاق صرخة خافتة . كان زياد يجلس وحده في الزاوية ويبتسم لي . ولم ألبث ان قلت بعفوية وانفعال : هـــذا انت . . . ثم ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي وانا اقترب منه وقد شعرت بالسرور للقائه :

« انت لست من اللطف بشيء .. لقد تركتني هكذا دون وداع ما كان اجحدك ! »

ولكنه لشدة دهشتي ظل يبتسم لي ببلاهة وكأن عتابي ليس موجهاً اليه . وحدقت به : يا إلهي ليس في عينيه أي تعبير ولا في ابتسامته معنى . وألقيت عليه التحية وقد اقتربت منه كثيراً ولكنه ظل يحدق بي دون أن ينبس بكلمة ثم اشاح بوجهـه عني وأخذ ينظر نحو مقعد الاستـــاذ فحاذيته ومددت له يدي محيية وأنا أقول انك تخيفني يا زياد ، ولكنه فجـأة وفي هذه اللحظة بالذات اختفى وقبل أن أستفيق من ذهولي سمعت صوته خلفي فاستدرت مذعورة مبهورة الانفاس ولكني لم أشاهد شيئاً فاستبد بي قلق مفاجيء وصرخت : زياد اين أنت ؟ لا تتركني ثانية ..

وشعرت بحاجتي الملحة للاجهاش بالبكاء ضارعة وتلفتت حولي تائهة مرتبكة لا أفهم ما يجري من حولي وحانت مني التفاتة إلى فوق فجمدت من هول ما رأيت : رأيت زياداً يطل من النافذة العليا ويبتسم بوجه بريء عميق من خلال الدماء الغزيرة التي تملأه. فقلت اخاطبه بصوت مبهور .. متقطع : « ز ... يا .. د » . وتغيب ابتسامته ليظهر وجهه وقد بانت عليه اللوعة وهو يحدق بي . وأعود اتأمله وقد اخذتني عاطفة عاصفة فأرى وجه طفل صغير بان عليه الألم والحرمان فأحاول ان اصرخ : « سمير » ولكن الكلمات تختنق على شفتي فاشيح بوجهي ثم لا ألبث ان انظر ثانية فأرى زياداً من جديد وأجد وجه الطفل مقابله ، ويمد زياد يده وقد اخذت تنزف دماً ويمد الآخر يده ولكن اليدين لا تلتقيان. وتظهر امارات العصبية على الوجهين وتتقلص عضلاتهما وهما يحاولان أن يتلاقيا وكأن المسافة القصيرة الفاصلة بينهما قد تحولت إلى مسافة لامتناهية .

ويتابعان بذل الجهود الجبارة ويظهر الاعياء عليهما دون ان يستطيعا ان يتصافحا . ويتصبب العرق بارداً عن جبيني وانا اتابع خطواتهما . وفجأة يختفي وجه الطفل . . وفيما انا انظر من جديد إلى زياد رأيته يمد يده فجأة نحوي محاولاً ان يصافحني ورأيتني اضرع اليه صارخة : اين انت ؟ لماذا تركتني فجأة ومضيت .. انياحتاجك .. احتاجك كثيراً .. لقد قضيت طيلة حياتي ابحث عنك وحين وجدتك مضيت سريعاً . . أهكذا

تضيع حياة بكاملها.. قضيت حياتي بأكملها ابحث عن نفسي عن وحدتي وحين وجدتني فيك كان الانفصال والضياع والعزلة ...
اما آن لي ان استريح .. انني مسافرة ابدية ليس لي ان اضع رأسي بعدك. اني سيزيف ادحرج الحجر ليل نهار ولكني عند كل رأس جبل آمل ان ألقاك ولكن الأمل المتجدد تخونه الأيام المتعاقبة بلا طعم .. تعال الي .. عد يا مثقل الأحمال فقد آن لدرب آلامك ان ينتهي . . اجبني اجبني ، لا تقلقني بصمتك الباكي .. فأمك الثكلى لا تريد ان تتعزى ففي الألم اليائس العميق مبدأ يفوق كل تعزية... لا لا تنظر الي بلوعة بل هلم الي لاضمك إلى صدري الدافيء دفء الحياة المتجددة .. » وانهمرت دموعي غزيرة وانا اصرخ بشدة ضارعة: لا لن تظل مصلوباً إلى الابد .. هذا مستحيل .. مستحيل .. مستحيل .. »

ورأيته يدنو مني مـاداً يده نحوي لأصافحه ولكن الرهبة استحوذت على كل عصب في جسمي وأنا أرى الدماء تنزف من هذه اليد الممدودة،فحاولت ان أبعد يدي خائفة،وينحني نحوي اكثر فاكثر وانا انظر اليه بوجل واحاول الابتعاد عنه اكثر فاكثر . . وفي غمرة مخاوفي رأيتني اخاطبه بكلمات متقطعة : ماذا .. تريد .. قل . . قل تكلم .. قل شيئاً . . اي شيء . . وقبل ان استطيع اتمام كلامي إذ به يندفع بسرعة نحوي فوقعت مغشياً علي .. وحينما عدت إلى رشدي بعد قليل تلفت حولي في الغرفة فلم أجد إلا الظلام يلف كل ما يحيط بي . وقبل أن يهدأ

روعي سمعت صوته آتيـا من بعيد يخاطبني : ليليان انا الفراق الابدي ، انا التمزق .. انا الضياع .. سأظل ابحث عن وحدتي والحنين يأكلني.. سأظل افتش عن ذاتي والشوق يحز عظامي .. لقد تركتني الآلهة .. ونبذني العالم .. بي ظمأ شديد ولكن بدل الماء سقاني الناس خلا . . سأظل اجوب الارض والظمأ الابدي يأكل كبدي .

القسم الاول

١

ما زلت أذكر لقائي به للمرة الاولى، لم يكن قد مضى على دخولي مدرسة الآداب سوى بضعة أيام حين قرر الطلبة اقامة حفلة تعارف في القاعة العامة. وابتدأت الحفلة بعد انتهاء الدروس وقد بدأ الليل يلف الكون بسكينته... وتناولنا بعض الحلوى في بدء الاحتفال الذي حضره معظم الأساتذة .. ثم قام احد الطلبة القدامى فوضع بعض الاسطوانات الراقصة وكان جميع الطلبة كانوا ينتظرون هذه الإشارة للبدء بمراقصة زميلاتهم ورأيته يتريث قليلاً ثم يتحرك باتجاهي بقوامه المديد ليدعوني الى الحلبة وقمت معه بصمت وهو يبتسم لي . كان يبدو شارداً قليلاً وكأنه غير منسجم في الجو المرح فأردت خلق جو من الإلفة بيننا . فقلت محاولة تبديد شروده وحمله على الكلام : لقد غادرنا السيد كرام استاذ الفلسفة سريعاً اذ لم يلبث سوى فترة قصيرة بعكس بقية الاساتذة .

لم يكن على حق خصوصاً وانه ما يزال أعزب وامامه هذا الجيش من الحسان . فابتسمت وانا ارد عليه :

ـ ولكنــه تقدم في السن .

وتصنع الخبث قليلاً وقابل ابتسامتي بابتسامة وقال :

ـ هذا لايمنع .

وغيرت لهجتي وانا ارد عليه :

ـ لقد عرفت انه يعيش عيشــة فيلسوف حقيقي وينصرف بكليته الى المطالعة والكتابة ويتجنب حضـــور الاحتفالات الاجتماعية .

ـ ولكن الفلاسفة العصريين لا يؤمنون بالبرج العاجي .

ـ ولكن طالب الحكمة يستغني عن سواها . اني اقرأ لـــه كل ما يكتب تقريباً .

ـ يبدو انك من المعجبات به ، لو كان يدري ذلك فاني اشك انه كان يغادرنا بهذه السرعة .

ـ فضحكت قليلاً وقلت له :

ـ ومن ادراك ربما هرب خجـــلاً من المعجبات الكثيرات.

ـ ساعتها يكون فيلسوفاً حقيقياً .

قلت ضاحكة : ارجوك ، لا تتهكم على الفلسفة فإني جئت الى هنا وفي نيتي الحصول على الليسانس في الفلسفة .

فأجابني وكأنه يمثل :

ـ ان الفلسفة الحقة تسخر من الفلسفة « باسكال » .

ورددت والابتسامة لا تفارقني :

ـ ولكنك تسخر من فيلسوف لا من الفلسفة .

وتطلــع في وجهي يتأملني قليلاً ولم يلبث أن جاءني رده :

ـ وما الفرق ؟ انـــه حقاً يلقي علينا الدرس بصوت رزين خافت ليبعث في قلوبنـــا الرهبة وكأنــه عرافة الدلف تتنبأ بالاقدار . ورددت بعد فترة صمت قصيرة :

ـ ان الشبان يميلون عادة الى السخرية من أساتذتهم .

ورد على الفور :

ـ اما الفتيات فيملن الى الوقوع في غرامهم !

وتوقفت الموسيقى قليلا فقال لي وكأنه تذكر شيئا كان قد نسيه :

ـ لقـــد نسيت ان اقدم لك نفسي فالمفروض انها حفلة تعارف : « زياد ماجد »

ومد يده، فصافحته قائلة :

ـ ليليان نسيم

فانحنى قليلا وهو يقول :

ـ تشرفنا يا آنسه ليليان ، اسم جميـل لفتاة جميلة .

وعدنا الى الرقص من جديد . كانت معظم الاسطوانات رقصات تانغو بطيئة . وكان ينظر الي من عل بقوامـــه المديد وهو يبتسم ابتسامة يحاول ان يحملها كل معاني الالفة في حين كانت عيناه العسليتان الغائرتان تضفيان مسحه من الرزانة على

محياه تتناقض مع بقية ملامحه التي تفيض حيوية، كان يبدو سعيدا جدا بمراقصتي دون ان ينبس بكلمة وفجأة قطع الصمت وقال لي دون مقدمة : اني اعجب كيف استهوتك الفلسفة ان الفتيات يفضلن الادب او التاريخ او حتى علم النفس على الفلسفة .

ـ صحيح فليست هناك اية فيلسوفة حتى الان .

وابتسم لي وهو يجيبني :

ـ بلى هناك ..

وسارعت اسأله : من ؟

واسرع يجيب : انت بالقوة .

فتبسمت ضاحكة وقلت : كلا كلا ، ارجوك انني لاادعي هذا الطموح ولست اريد ان احبس نفسي طيلة حياتي لأرى ان كنت استطيع ان اصبح شيئا ما .. ان الليسانس تكفيني .

ـ ولكن الفلسفة في هذه الايام في حالة تدهور . اذ بات الناس ينصرفون عنها الى العلوم ولهذا فهي بحاجة اليك بل انها في انتظارك لكي تجعلي الحياة تدب فيها من جديد .

قلت بمرح :

انك لا تنفك تسخر من الفلسفة باسلوب لايخلو من فلسفة فهل لي ان اسألك عما تنوي ان تتخصص به ؟ .

وكأنه كان ينتظر سؤالي فقد جاءني رده سريعاً :

ـ اني لااستطيع الا ان اتبعك .

وسرني جوابه كثيراً فانفرجت اساريري عن ابتسامة عريضة مشرقة ثم قلت له :

ـ صحيح اني اراك تحضر دروس الفلسفة بانتظام فما الذي دعاك الى اختيار الفلسفة ؟

ـ الحرب .

قالها ببرود وكأنه كان يتوقع سؤالي من زمان ففغرت فمي متعجبة : اية حرب هذه ؟

فعاد يجيبني ببرود : حرب الانسان اليومية مع نفسه وحروب كثيرة .

ـ وما هي هذه الحروب ؟

ـ الحرب الا تعرفين ما هي الحرب ؟ حمل بندقية وقتل الناس دون وجل ولا خوف شخص تحبينه جداً ثم رصاصة وينتهي الحرب .. هي الحرب .

ـ اعذرني اذ لم أكن افهم شيئاً ، اني لم أر الحرب الا في الافلام .

ـ ذلك أفضل ، أيهما تفضلين التانغو ام الفالس ؟

وكأنه كان بهذا السؤال يتعمد تغيير مجرى الحديث فأجبته : « كلما رقصت الفالس تخيلت نفسي صبية ترقص لأول مرة في قصر احد الأمراء فاغرق بمشاعر جياشة احسني ناتاشا

تراقص الامير اندريه » .

وبعد دقائق وضعت اسطوانة فالس فدنا مني وقال : « ها نحن قد انتقلنا الى قصر الأير ميتاج في بطرسبرج فهل تتفضل ناتاشي الصغيرة بالسماح لي بهذه الرقصة ؟ ».

– انني حاضرة يا أميري وضحكنا سوية .

واثناء رقص الفالس قال لي : كيف تشعر ناتاشا الآن ؟

– تشعر انها كبرت جداً فجأة وان القصر تحول الى كوخ .

– وان الأمير تحول الى صعلوك .

قلت وانا ابتسم مرحاً : انك كذلك الشاعر العربي الذي لم يجد من يهجيه فهجا نفسه ما اسمه لقد حدثنـــا عنه في البكالوريا استاذ الادب العربي ولكني نسيت اسمه .

– يبدو انك كنت ضعيفة في اللغة العربية ككل البنات اللواتي يدرسن في الكليات الفرنسية .

– كلا لقد كنت انال دائما علامة فوق المعدل في العربية .

وحينما انتهت الحفلة اخيراً عرض علينا انا وزميلتي « فيرا حنا » التي اعرفها منذ أيام الدراسة الثانوية اذ تخرجت واياها من كلية واحدة – ان يستأجر سيارة ليوصلنا معاً ولكن سيارتنا الخاصة لم تلبث ان وصلت فودعتــه شاكرة. وفي الطريق قضيت الوقت في احاديث تافهة مع فيرا وحين بلغنا البيت كان جميع أهلي قد سبقوني الى النوم فآويت الى فراشي مسرعة دون ان افكر

كثيراً أو قليلاً بما جرى لي منذ برهة اذ كان يبدو لي انها حفلة عادية لن يلبث ان يمحوها الزمن من ذاكرتي . ولئن كانت جرأة زياد قد سرتني قليلاً الا انني كنت اشعر بشيء فيـه غير محدد يثير في نفسي مشاعر مبهجة .

٢

كان الصباح مشرقاً جميلاً والشمس كريمة بدفئها وشجيرات حديقة المدرسة تتيه غنجا ونعومـــة وهي تظلل المقعد فوقي . كنت أجلس وحدي اطالع عندما أقبل زياد ،وبعد أن ألقى التحية جلس الى جانبي دون استئذان وبادرني القول :

- آه انك تقرأين كثيراً هذه الأيام انك تعملين بنصيحة اساتذتنا الذين لا يفتأون يرددون أن علينا ان نطالع بأنفسنا ونتعرف الى النصوص الأصليـــة لكي نصبح حقا طلبـــة جامعيين .

وأجبته باهمال : ولكني على كل حال أحب المطالعة دون ان يدعوني اليها احد .

ثم قال دون مقدمات : يبـــدو لي ان بعض اساتذتنا معتوهون أو مدعون .

فانتفضت قليلا وحدقت فيه وانا اسأله :

- وكيف ذلك ؟

. انهم يذكرون لنا اكثر من خمسين مرجعا تحتاج مطالعتها الى سنين عديدة وانا أشك انهم هم انفسهم قد طالعوها كلها . ان بعض الاساتذة يحبون ان يذكروا التلميـــذ في كل مناسبة انهم أوسع علما منه .

وحين رأى اني لم أجب على ماقاله بل عدت الى كتابي عاد يقول لي : بالمناسبة هل البحث الاخير حول العمل معك الآن ؟ اني اضم تهنئتي الى تهنئة الاستاذ كرام لـك . لقد أعجبني حين قال لنا في المرة الاخيرة قبل أن ابدأ الدرس اليوم سأحدثكم عن الابحاث التي كتبتموها . لقـد كان شعره الابيض يضفي حقـــا مهابة على حديثه خصوصا حين قـال امامي الآن بحث بَرْهن صاحبه فيه على انه استوعب دروس الفلسفة وهضمهـا جيداً . والموضوع غني بالافـكار وجمله متراصة متماسكة. كنت أظن ان الاستاذ قد بدأ يقرظ احد الابحاث بكلمات عادية ولكني كنت اعرف ان هذا الاستاذ لا يكاد يعجبه شيء لذا استغربت استحسانه بحثاً كتبه احد الطلبة الى هـــذا الحد فأصغيت اليه باهتمام واخذت ابحث في حقيبتي عن البحث الذي طلبه ومددته اليه قائلة حين وجدته : ها هو ذا اتريد ان تقرأه ؟! وأخذ يجيل بناظريه ثم رفع بصره اليه وهب واقفا وقال بحماس : الواقع اني اعجبت بالفقرات التي اخذ الاستاذ يقرأها في الصف ويعلق عليهـــا مستحسنا اكثر من اعجابي بتقريظه .. آه هذه بعض الجمل التي

قرأها في الصف وأخذ زياد يقرأ بصوت مسموع :

L'homme se fait en faisant , et en faisant il se réalise ... en travaillant il se rencontre, il rencontre sa dignité ... il humanise la nature et donne un sens qui justifie la vie .... en travaillant l'homme constate l'immensité de ses possibilités infinies ... Il voit jusqu'à à quels sommets il peut s'élever et par là même il rencontre dans un élan d'amour, Dieu source de toute bonté et fondement de toute dignité .

ان الانسان يصنع نفسه حين يعمل .. وهو يكتشف ذاته في العمل وحين يعمل يحقق ذاته .. وحين يعمل يلتقي بذاته وبكرامته .. ويؤنس الطبيعة ويعطي معنى يبرر الحياة . والانسان حين يعمل يدرك عظمة امكانياته اللامتناهية ويرى الى اي ذرى يستطيع ان يسمو بنفسه فيلتقي بوثبة حب بالله مصدر كل طيبة واساس كل كرامة .

ورفع زياد بصره عن الورقة التي بين يديه ثانية وقال لي : الواقع اني شعرت في تلك الساعة وربما لأول مرة في حياتي اني سأعرف بعد قليل رفيقاً يحب ما أحب وتمنيت ان يسرع الاستاذ فيذكر اسم كاتب البحث اذ شعرت بشوق شديد الى التعرف عليه وكانت لهفتي تزداد والاستاذ ما يزال مستمراً في قراءة بعض فقرات البحث ..

وتوقف زياد عن الحديث قليلاً ثم قال وكأنه يخاطب نفسه دون أن ينظر الي كأنني اختفيت فجأة عن ناظريه : وحين ذكر الاستاذ اسمك شرد فكري بعيداً : انها اذن ليليان الهادئة التي تبتسم ابتسامة صغيرة وتضحـــك ضحكة مقتضبة ترتسم على ثغرها الدقيق فكأنها تقتصد في التعبير عن عواطفها وتأتي دوماً فتجلس في الصف الامامي. ليليان البيضاء الوجه السوداء العينين الواسعتين الحلوة الملامح الممشوقة القوام .. ليليان هذه هي التي كتبت اذن كل هذه الافكار التي تمنيت لو كنت صاحبها .

وصمت قليلا وهو ما يزال واقفاً الى جانب المقعد الذي كنت اجلس عليه وأعاد الي اوراقي ثم قال لي وقد أخذه حماس مفاجيء:

– اتفهمين حقاً معنى كل ما كتبته ؟

وحدجته بنظرة استطلاع ولكن امارات الجد بل الحزن كانت مرتسمة على محياه وقال لي وكأنه يخاطب نفسه من جديد:

اما انا فقد فقدت إلهي الطيب .. ليتني استطيع مثلك ان ألقاه بطفرة حب .. انا مثـــل كيريلوف لقد عذبني الله طيلة حياتي .. اتحبين دستويفسكي ؟

وقبل أن يسمع جوابي تابع قائلا : يبدو لي ان معظم الذين يتحدثون عن طيبة الله لا يعرفون الحياة جيداً او على الاقـل لم يخبروا مرارتها .. لم يتألموا حقاً .

وهنا قاطعته قائلة : على العكس فان الالم يقربنـــا من الله أكثر فأكثر .

فحدق في وجهي وقال :

– انت كالشعراء المترفين الذين يتغنون بحياة الفقراء والفلاحين .

وتوقف قليلا عن الكلام ثم عاد يخاطبني بانفعال :

– انت تتكلمين عما لم تعيشيه لو كان لديك انسان عزيز وفقدته فجأة دون مقدمات لتغير رأيك .

– ولكن الالم قد يكون طريق الخلاص أي طريق الخير .

– ولكن هذا لا ينفي ان الالم في حد ذاته شر . اخبريني أي خير في الالم، أي خير في أن يقاسي الابرياء ولماذا يتعذب الأطفال لماذا ؟ هل نفوسهم شريرة بحاجة الى أن تتطهر بالألم ؟ اخبريني هل رأيت امامك طفل ينظر اليك بلوعة ان تخلصيه من أوجاعه الشديدة وانت تقفين أمامه لا حول لك ولا قوة . هل رأيت طفلا عزيزاً عليك يحدق اليك بعينيه وهو يعاني سكرات الموت ضارعاً أن تعيديه الى الحياة وانت تتأملينه كالبلهاء لا تصدقين ما يحدث لهوله ؟

وأخذت أنظر إلى وجه زياد الذي احتقن بالدماء وانا ذاهبة لا ادري ماذا أقول واتساءل عما ألم به ولماذا يطرح علي هذه الأسئلة الغريبة ؟ في حين صمت هو قبالتي لا ينبس بكلمة وشرد بصره الى بعيد كأنه في غيبوبة وبعد فترة قال وهو ما يزال شارداً وكأن فكرة مفاجئة قد لمعت في ذهنه : من الخير لإلهك الطيب ان يكون غائباً عن هذا العالم فغيابه وحده ينفي عنه المسؤولية ولم ادر بما أجيبه . في حين استدار نحوي فجلس الى جانبي وابتسم لي وقال لشد ما قاسى الابرياء ؟ ايوجد الله وفي هذا العالم كل هذه الآلام ؟ وحاولت ان أسبر أغواره فرددت عليه قائلة :

– ولكن بسبب هذه الآلام بالذات كان وجود الله أكثر ضرورة .. كأمل أخير .. كخلاص ..

ولم يعبأ بإجابتي بل لم يتركني اكمل حديثي فقاطعني قائلا : ان أعظم ألم رؤية طفل يتألم . وصمت قليلا ثم سألني برقة : ليليان هل رأيت طفلا يحتضر؟ فأجبته وقد اثار سؤاله فضولي كلا وأنت : قال بصوت خافت : أكثر من مرة والمرة الأخيرة كانت في العام الماضي .

وعدت اسأله : بأية مناسبة ؟

– أتحبين أن تسمعي القصة كلها ؟

قلت باقتضاب : اجل .

فأجابني : ولكني اخشى ان آخذ من وقتك الكثير .

- لا عليك فالتعرف إلى آلام الناس أثمن درس .

ونظر إلي زياد وقد افرحه جوابي وقال : حسناً حسناً . ثم ابتدأ يقص عليّ القصة التالية :

في العام الماضي كنت أعمل مدرساً في احدى مدارس مخيمات مواطني اللاجئين الفلسطينيين ، وحينما كان الجو يصفو كنت انطلق مع تلامذتي الصغار الى حرج قريب من المدرسة وهناك كنت اترك لهم حرية اللعب فينطلق كل منهم يمرح على هواه ، وتركت التلاميذ في لهوهم مرة وشرد تفكيري الى المجهول . وفجأة تنبهت الى صوت خافت عذب فأرهفت السمع فبدأ الصوت يصل أذني واضحاً جلياً ونظرت أمامي فاذا التلامذة جميعاً قد تحلقوا حول عصام ، فنظر إلي وكأنه يستشيرني في ما يعمل . وهززت له

برأسي وابتسمت علامة الاستحسان فاستمر في غنائه حتى أتى على آخره فصفقت قليلا ثم قلت له : انا أحبك يا عصام كأخي الصغير .

لم يكن عصام قد جاوز السادسة من عمره ، وكان هادىء الطباع حاد الذكاء يجلس بصمت في الصف يصغي إلى مـا أقول ولكنه ما أن يغادر غرفة الدرس حتى ينطلق يلهو بحيوية .

– وأنا أحبك كثيراً واحب ان اكون كأخيك الصغير .

– ولكن ألا تريد ان تصبح قائداً عظيما حين تكبر ؟

ونظر إليّ المسكين مشدوهاً ولم يفهم معنى كل ماقلت وظل برهة واجماً والحيرة مرتسمة على محياه ثم قال وكأنه اهتدى فجأة الى الحل المناسب :

– أجل سأصبح قائداً وسأدافع عن بــــلادي وسأضرب الاعداء هكذا ..

وابتدأ يحرك رجليه ويديه في الهواء فتتحرك معها كل عضلة في جسمه . وبان الانفعال الشديد عليـه فنظرت اليه وقلت له ألا تريد ان تتابع غنائــك ؟

فالتفت إلي وقال : ولكن أخبرني عن أخيك الصغـــير انا أحبه أيضاً .

– كان اخي يغني لي مثلك .

– ثم ماذا فعل بعد ذلك ؟

– لم يعد يغني لي .

– ولماذا؟

– لأنه عرف انك ستغني انت لي .

ورفع الصغير وجهه الي وافتر ثغره عن ابتسامة صغيرة كأنه يقول لي انه لا يصدقني كلية . ثم تصنع ادراك ما أقول :

ويقبل الشتاء وأدخل الصف صباحاً والمطر ينهمر بغزارة واتطلع من النافذة الى البعيد فأرى شجرات الصنوبر تتراقص امام عصف الريح وتظلم الدنيا كلها . وأحس بلسع البرد يسري في اطرافي فأشد ثيابي الى جسدي وألقي نظرة على الاطفال امامي. ويروعني الا اجد على اجسامهم ما يقيها برد الطبيعة فثيابهم التي كانوا يرتدونها الى اشهر خلت يوم كانت الطبيعة مبتسمة والشمس تفيض بالكثير من حرارتها على الناس يرتدونها اليوم ايضاً . وتطلعت الى الوجوه التي أمامي فألفيت أصحابها ينظرون إلي بصمت وترقب ينتظرون ما سأفعل وقد حاول كل منهم أن يخفي عني ما يحس ولكن قوة الطبيعة كانت اقوى من مقاومتهم فكانت الرعدة تسري في اطرافهم ووقع نظري على عصام وكان يجلس في الصف الامامي فاذا ثيابه كلها مبللة فنظرت اليه مبتسماً : « ثيابك مبللة يا عصام ألا تشعر بالبرد ؟ » ولم يجبني الصغير فاقتربت منه وأمسكت به فاذا بجسده يرتجف كله بين يدي .. واذا بي ادرك ان الأمطار قد بللت كل ثيابه . وتطلعت الى الخارج .. كانت الامطار قد خفت كثيراً وكادت تنقطع، فقلت لعصام « عد الى البيت ولا ترجع الى المدرسة الا في الغد » . وحينا اطاعني الصغير وقام ليغادر الصف

ودعته قائلا: نم في فراشك ولا تخرج منه

وفي صباح اليوم التالي كانت الطبيعة ما تزال ثائرة وكان البرد قد اشتد . ودخلت الصف وبحثت بعيني عن عصام فألفيت مكانه فارغاً ..وعرفت من رفاقه انه مريض جداً فقررت ان اذهب مساء لعيادة صغيري في خيمته .وفي المساء الفيتني امضي نحو المخيم. كانت السماء قاتمة وقد بدت الغيوم متكاثرة تهدد بهطول امطار غزيرة بين الفينة والاخرى . وفي اول المخيم صادفت احد تلامذتي فسألته ان يرافقني ليدلني على بيت اهل عصام فسار معي راضياً .

كان الصمت يطبق على المخيم برمته . . وقد تقاربت الخيم حتى كادت تتلاصق وكنت اسير صامتاً لا ادري ابن اتجه وقد اسلمت القيادة لتلميذي الذي خبر هذه الطرق.ولم نصادف احداً في الطريق بل كان وقع اقدامنا يسمع واضحاً في ذلك الصمت القاتم . وكانت الانوار الخافتة تنبعث من بين الفجوات وبين الفينة والأخرى كانت تنشق كوة في احدى الخيمات ويطل منها وجه لا نستطيع تمييز ملامحه فينظر الينا بصمت وحينما يرى اننا ما نزال نتابع سيرنا يرد الخيمة كما كانت بصمت . . .

وحينما كنت في منتصف الطريق شعرت باحدى قدمي تغوص تحتي فرفعتها سريعاً وتحملت قدمي الاخرى كل ثقلي فاذا بها تغوص اكثر من الاولى ونظرت بين رجلي فلم

استطع تمييز شيء . . وفجأة انبعث نور خافـــت من احدى الخيمات القريبة فأبصرت شيئاً رقراقاً يهتز تحت قدمي ، فأيقنت اني غصت في بركة من الاوحال فتراجعت الى الوراء . . وصلنا خيمة اهل عصام فتركني تلميذي وحدي وهززت باب الخيمة من الخارج ثم ابصرت يداً تحاول ان تفتح باب الخيمة . ونجحت اليد بعملها فابصرت ضوءاً يلقى علي من الداخـــل ونظرت الى نفسي فاذا بالاوحال قد تراكمت على حذائي وعلى قسم كبير من ثيابي وعرفني اهل عصام فقدم لي الاب كرسياً لاجلس وامامي فرش حصير على الارض ووضع فوقه بعض المراش وقد تربع عليه اخوة عصام الثلاثة وامهم وخلفي كانت خزانة خشبية صغيرة . . والى جانب الاخوة موقد خبت ناره . وفي الركن القصي ابصرت عصاماً ممدداً على الفراش . وقد هبـت الام واقفة حين دخولي وحيتني وأمارات الأسى مرتسمة مع كل اخدود في محياها وقد سارع الأب الى اخباري بأن صحة عصام ما تزال متوعكة وقد اشتدت عليه الحمى طوال النهار .

وسمع عصام صوتي فرفع رأسه عن الوسادة ونظر الي قائلاً :

– ها قد جئت اخيراً . . لقد ناديتك كثيراً ولكنك لم تأت . . انا احب المدرســة واحبك سأشفى وسأعود لأغني لك أليـــس كذلك ؟ .

– اجل يا عصام ستشفى وستعود الى المدرسة وستغني لي كثيراً .

ثم التفت الي وانتفض قائلاً :

ـ لقد رأيت اخاك الصغير . . كان جميلاً جداً . وقد احببته كثيراً ولعبنا معاً . . ودعاني للذهاب الى بيته ولكني لم اذهب وقلت له اني ساعود الى المدرسة عندك انت . .

ـ ومتى رأيته يا عصام . .

ـ رأيته قبل قليل . . كان يشبهك كثيراً .. وكان يرتدي ثياباً جميلة جداً . .

وفجأه سمعنا هزيم الرعد الشديد الذي اهتزت له اركان الخيمة كلها ، وهبت رياح عاتية وكنا جميعاً صامتين الى ان قطع الصمت صوت الام وهي تهرول وتقول لقد مزقتها الرياح .. لقد مزقتها الرياح وتطلعنا جميعاً الى حيث تشير فاذا قطعة جانبية من الخيمة قد تمزقت وقد اخذت مياه الامطار تتدفق الى الداخل؛ ولم ترحمنا الرياح الباردة بل لفحت وجوهنا جميعاً ثم فجأة انقطع التيار الكهربائي واصبحنا جميعاً نسبح في الظلام تقطعه البروق من حين الى آخر. وأفلحت بعد فترة في مساعدة الاب باصلاح الخيمة وعلى ضوء الشمعة الخافت استطعت ان ارى الأولاد وهم يرتجفون فريسة للهواء البارد الذي استطاع ان يصل الى الداخل دون مقاومة . وفجأة تحولت جميع انظارنا الى عصام الذي اخذ ينتفض ويصرخ ويتلوى وهو في الفراش. واعترت الام نوبة مفجعة فأخذت تندب وتولول وقد ظننت ان المنية اقوى من حنانها وستخطف وليدها من بين يديها سريعاً فهرعت اليه واحتضنته وقد تركت دموعها الغزيرة تبلل بها فراش ابنها : لا، لا يا عصام لا تتركني يا عصام

حبيبي عصام . . عصام » والصغير يتلوى من الألم وقد جحظت عيناه. وفجأة احسستني اعود الى الوراء. . انه المنظر نفسه، رأيت اخي الصغير امامي . سيفعل الله به كما فعل بأخي سابقاً . . ولكن لماذا ! لماذا ؟ اخبرني بربك لماذا يجب ان يتألم الصغار ؟ هل رأيت الصغار يتعذبون ؟ وكان يتكلم باندفاع وتأثر . .

ثم خفت صوته وهو يقول لي بعد برهة وانا انظر اليه مشدوهة : اعذريني يا ليليان ما كان يجب ان اتكلم . ان بعض صدمات الحياة القاسية تغور في زاوية من زوايا اعماقنا تأبى ان تفارقنا بل انها لتصبح شيئاً عزيزاً علينا كلما حاولنا نسيانه رأيناه يعاودنا باستمرار . . لقد ظل الكابوس يلاحقني باستمرار وبقيت مدة طويلة ارى في الليل نفس المشهد المفجع يتكرر . . كان فوق مقدرة احتمالي . . ولكني كنت اجد بعض التعزية في ذلك ان الانسان يشعر بلذة كئيبة في اجترار آلامه .

لم اكن ادري عما يتكلم ولكني قبل ان استوضحه الامر اقبلت صديقتي فيرا مسرعة ضاحكة كعادتها وهي تقول : يبدو ان الطقس الجيد انسانا الدرس . . لا بد وان الاستاذ كرام قد بدأ درسه الآن . انه استاذك المفضل يا ليليان فكيف نسيته ؟

– لقد طلب مني زياد البحث الذي كتبته في المرة الاخيرة .

– يبدو ان المعجبين قد بدأوا يكثرون .

– معجبون من النوع الافلاطوني .

قال زياد ذلك وهو يدعونا للاسراع معه للدخول إلى قاعة المحاضرات وعلقت فيرا وهي تهرول إلى الدرس كنت افضل البقاء في الشمس المشرقة على سماع محاضرة الاستاذ كرام ولكن لا بأس من اجل اسعاد ليليان .

وفتحت فيرا الباب بشيء من العصبية واتجهت انظار جميع الطلاب الينا وكذلك نظر الينا الاستاذ شذراً بصمت .. كان يبدو انه قد بدأ الكلام لتوه ولكن دخولنا المفاجيء منعه من الاسترسال وتنفسنا قليلاً بعد ان اخذنا اماكننا . وبدأ الاستاذ يقول انه سيكرس بعض دروس الفلسفة لدراسة المدارس الفلسفية الحديثة وانه سيبدأ منذ اليوم في الحديث عن الوجودية . ثم بدأ يتكلم عن سارتر فقال : ان من اراد ان يعرف فلسفته فعليه الا يهاب من الذهاب رأساً إلى كتابه الضخم الكائن والعدم « اذ ان كتبه الصغيرة او مقالاته لا تكفي وحدها » ورفع بيده كتاب « الكائن والعدم » ثم تابع قوله : الآن وقد اصبحتم تلامذة جامعيين عليكم ان تتعودوا مطالعة الكتب الضخمة لكي تشعروا انكم تعيشون حقاً في جو جامعي . عليكم ان تقرأوا نصوص المؤلف الاصلية نفسه وان تحكموا بانفسكم لا ان تكتفوا بمطالعة ما كتب عن كبار الفلاسفه

وبعد ان انتهى من مقدمته بدأ يتكلم عن فلسفة سارتر والـ « في ذاته » والـ « لذاته » وحينما انتهت المحاضرة وخرجنا من الصف علقت فيرا قائلة : كل الناس يتكلمون عن سارتر في هذه

الايام انه موضة هذا الزمن واني لواثقة لو تغيرت الموضة لما تكلم الاستاذ كرام عن سارتر ؟

وردت عليها قائلة :

Tu veux dire qu'il est snob, Ah non .

وسارعت فيرا ترد عليّ : من حقك بل من واجبك ان تدافعي عـن الاستاذ الذي اعجبه ما كتبته كثيرا وقد يكون الاستاذ كرام فيلسوفاً كبيرا حقا ولكني لا ادري اني لست من المعجبات به على كثرتهن

وهنا علق زياد قائلا : ما اعجب احكام النساء حقاً انهن لا يبنين احكامهن الا على مشاعرهن الشخصية .

وردت فيرا : ها قد بدأت تفهم النساء .

وهنا قال شوقي شفيق وهو زميل صديق لزياد وكان قد تلقى دروسه الثانوية لدى اليسوعيين ولكنه بدأ يتحلل من تعاليمهم وكأنه يؤول ما تفوهت به فيرا لتوها : النساء يحكمن على الامور بحدس باطني اقوى من كل كلام منطقي .

فصرخت : برافو ، ها كم تأثير الفلسفة ، لم يذهب درس الاستاذ كرام سدى ، ونظرت اليه مبتسمة ابتسامة لها مغزى .

٣

كنا في باحة المدرسة زمرة من الزملاء وبادر زياد الى القول انك تتخلفين كثيراً عن درس الادب مع انه مفيد جداً خصوصاً وان مدام فوبور تعرف كيف تثير اهتمامنا باستمرار .

وقاطعته فيرا قائلة : ولكن ليليان لا تعشق الا واحـــداً

فقلت ضاحكة ولكنه لا يهتم بي، ليته كان يرضى بالزواج ..

وقاطعني شوقي قائلا بلهجة لا تخلو من مرح: اتقبلين لهذا الصبا الغض كـــهولة على ابواب الخريف ؟ » .

« ولكن في الخريف على كآبتـــه حكمة ليست للربيع على جماله .

واسرعت فيرا الى التعليق على عادتها :

Voilà de la philosophie mélancolique qui ne manque pas de beauté .

« ها كم فلسفة كئيبة لا تخلو من الجمال .. »

وعاد زياد يسألني ان احضر دروس مدام فوبور وقال انها تثير مواضيع فلسفية من حين الى اخر اذ كانت تتحدث في المرة الاخيرة عن المذهب الانساني وتطوره عبر القرون وتحدثت عن افلاطون وقالت انه من المؤلفين الذين يجب مطالعتهم في السنة الاولى . وقالت فيرا وقد سألتنا ايضاً عن اسطورة الكهف فتصوري ان احداً منا لم يكن يعرفها الا زياد الذي انقذ شرف الصف . وقلت لزياد : انها استاذة الادب وتطلب الينا مطالعة افلاطون ؟ واسرع زياد قائلا: وما وجه العجب في ذلك ؟ لقد قيل دائما ان كبار الادباء هم فلاسفة ولكن ما نسيه الناس ان كبار الفلاسفة كانوا ادباء ايضاً وافلاطون خير دليل على ذلك .

وعدت اسأل زياداً :

– اتحضر دروس مدام فوبور باستمرار ؟

– اجل وهي في نظري خير جميع اساتذتنا » .

وعادت فيرا تقول : انه يحب مدام فوبور فهي بالنسبة له كالاستاذ كرام بالنسبة الك ليتك تشاهدينه وهو يصغي اليها في الصف بخشوع ولذة كأنه افلاطون يتأمل الخير والحق والجمال. وقال شوقي : ما دمنا بصدد الحديث عن افلاطون فيبدو ان له اتباعاً كثيرين في هذه المدرسة . وردت فيرا سريعاً : طبعاً الكل هنا يعشق على طريقته إنها الطريقة الوحيدة اللائقة .

٤

وجاءت نهاية السنة الدراسية واقبلت معها فترة الامتحانات المرهقة واعقبنا الامتحانات فترة ترقب وحيرة وتأخرت النتائج في الظهور وطالت لهفتي.. واخيرا حان اليوم الذي ترقبناه طويلا وظهرت نتائج الامتحانات وكنت الاولى في الصف وكانت فيرا وشوقي وزياد في عداد الناجحين وحين عرفت النتيجة كان زياد يقف الى جانبي فأسرع وقال لي بحرارة : اهنئك لقد اصبحت زعيمتنا وفي طريق عودتنا استقلينا سيارة معاً ودعوته الى المجيء عندنا في ضهور الشوير حيث نقضي الصيف وكان يبدو انه يشعر باعتزاز لجلوسه بقربي وان كنت ما ازال عالما مجهولا بالنسبة له.

ومر الصيف بطيئا في اوله ولكنه أبى ان يمر دون ان يترك الأسى في قلوبنا اذ توفت جدتي بالسكتة القلبية على حين غرة

وكنت اكن لهـــا محبة عميقة فشعرت اني اودع قسما من حياتي بوداعها وشعرت اني كبرت فجأة وان عهد طفولتي قد دفن في القبر مع جدتي . وما زلت اذكر اني قد انحنيت على الجثمان اودعه بدموعي وحين رفعت رأسي الى العلاء والمرارة تعتصر قلبي احسست بيد تربت كتفي وحين تلفت الى الوراء رأيت زياد بقامته المديدة يقف خلفي ثم امسك بيدي وابتعد بي قليلا وهو ينبس بكلمات ما كنت قادرة على تمييزها غير اني احسست بهدوء مفاجيء مبهم وانا أتأمله وألفيتني ألقي برأسي على كتفه دون تفكير .

ومضى الصيف وعدت الى مدرسة الآداب مع عودة الخريف وانا احـــلم بعالم جديد واسع يتفتح امامي . وعدت التقي من جديد بالزملاء وحين سألت زياداً عن المواضيع الـــتي اختارها لتخصصه في تلك السنة عرفت انها المواضيع التي اخترتهـــا انا بدوري اذ بدا ان حب الفلسفة كان الدافع المشترك لاختيارنا .

وقد بدأت السنة الدراسية بحضور استاذ من فرنسا جـــاء يلقي علينـــا سلسلة من المحاضرات الفلسفية والتمهيـــدية وقد امتدت اقامته نحو شهرين ، وفي احدى المرات حدثنا عن عمانوئيل كانط الفيلسوف الالماني وقال لنا انه كان قصير القامة نحيفا ، ولما كانت هاتان الصفتان تنطبقان على استاذنا الزائر فقد اطلق عليه زياد اسم مسيو كانط ، ولم يلبث جميع الزملاء أن تناقلوا هـــذا اللقب . ولم تكن دروس المسيو كانط الفرنسي تخلو من طرافـة فقـــد اخبرنا مرة وقـــد مضت فترة على اقامته بيننا بان المسيو رينه لوسين Le Senne

الذي كان استاذه كان يفكر باستمرار وهو في طريق عودته الى البيت فكان يضيع في الطريق ، ثم اضاف معلقا انه لو كان يعيش في بيروت لكانت دهسته سيارة منذ مدة بعيدة ! وكذلك كان يستقل المترو خطأ فيجد نفسه في النهاية وقد ابتعد كثيراً عن منزله فيضطر ان يعود دوما متأخراً ، ولم تتمالك فيرا نفسها عن ان تسأل الاستاذ : « وهل كان المسيو لوسين متزوجاً ؟ » وضحك الصف كله . وحين جاء الحديث عرضاً عن التحليل النفسي قال لنا بأن فرويد يمثل الاذلال الثالث الذي لحق بالانسان في عصرنا الحديث . فلقد كان الناس يعتقدون ان الكرة الارضية هي محور العالم فجاء كوبرنيك يبرهن ان كرتنا الارضية لم تكن سوى كوكب صغير يدور في فلك الشمس ، فكان ذلك الاذلال الاول. وكان الانسان يعتقد انه افضل المخلوقات فقد خلق على صورة الله ومثاله فاذا بداروين يأتي ليؤكد لنا ان جدنا الاول ينحدر من القرد ، فكان ذلك الاذلال الثاني للانسان ، ثم جاء فرويد ليعري الانسان المتمدن المهذب في العصر الفيكتوري ويؤكد بأن الغريزة الجنسية هي التي تتحكم بتصرف هذا الانسان الراقي لا المبادىء الاخلاقية ولا المثل العليا .

وحين خرجنا من الصف سارعت فيرا تقول لي على مسمع من زياد : هل رأيت كيف كان زياد مستغرقاً في تفكيره اليوم انه ولابد كان يفكر في اكتشاف الاذلال الرابع للانسان ، وتبسمت ونظرت الى زياد وقلت : بل اني اراهن انه قد اكتشفه . ولم يعبأ زياد بمرحنا بل قال بجد : اجل

لقد اكتشفته وسأخبرك اياه فيما بعد . وسارعت فيرا الى الرد : ولكن المرأة فضولية جداً ولا تطيق الصبر . ولم يعبأ زياد بما قالته فيرا لتوها بل قال باقتضاب : لم يحن الوقت بعد .

وفي مرة اخرى كان الاستاذ الزائر منهمكا في شرح الحدس عند برجسون مؤكداً انه لا يتناقض مع المجهود العقلي ، ثم فجأة انزلق الحديث عن كانط من جديد فقال : وكما تعلمون جميعاً فقد كان كانط يعيش في شبه عزلة تامة وتعلمون ان عالمه كان ينحصر بين بيته والجامعة حيث يدرس. والحدث الهام في حياته انه قطع مـائتي متر إضافي لابتياع الجريدة يوم قامت الثورة الفرنسية . ولكن في الواقع هناك حدث هام اخر في حياته وهو انه فكر في الزواج حين بلغ الخامسة والاربعين من عمره ، فقرر ان يطبق فلسفته على نفسه ويدرس القضية درسا عقلانيا بعيدا عن العاطفة فقام وحبس نفسه يوما كاملا في غرفة اغلق جميع نوافذها ثم اصدر حكما كان قد قرره ببرود. وهو ان الزواج يزعجه ويقلق هدوءه ولم يتمالك شوقي نفسه من القول : « ربما كان على حق » في حين اتجهت اليه جميع انظار الزميلات مستنكرة . وعـاد الاستاذ يقول : وهناك ايضـاً فيلسوف اخر حدثت معه قصة اخرى اذ كان سورين كيركيجارد خاطبا،وبعد فترة ترك خطيبته قائلا انه يتركهـا لانه لا يستطيع ان يحبهـا الان كما كان يحبها في الايام الاولى لخطوبتهـا . ثم علق على الاستاذ قائلا : « ولو ان كل خطيب يشعر انه لا يحب خطيبته كما كان يحبها في السابق يتركها لما تزوج احد » . وحين تبسم الصف ضاحكاً للتعليق ، عـاد

الاستاذ ليقول « ولكن عليكم الا تنسوا ان ما دفع كير كيجارد الى هذا العمل هو اخلاصه لنفسه وهناك في الاخلاص دوما براءة لا سذاجة » .

وقبل عودته بقليل قدمنـــا له نحن الطلبة هدية تذكارية في حفلة خاصه في الصف وكانت عبارة عن نارجيلة فاخرة . وقـــد وقف طالب يشكر الاستاذ بإسمنا جميعاً. وبعد ذلك بدأ يشرح كيفية استعمال النارجيلة والاستاذ الفرنسي يبتسم صامتاً .

٥

وأقبل الشتاء وحيـــاتي المدرسية تسير بهدوء مستحب . وذات صباح امطرت الدنيا بغزارة وانخفضت درجة الحرارة كـــثيراً ووصلت الى مدرسة الآداب وانا اشعر بشوق غامض لزملائي . وفي المساء احسـست بوعكة خفيفة . وفي اليوم التالي لم استطع ان اذهب الى المــدرسة اذا اشتدت وطأة المرض عليّ وقد اضطررت الى ملازمة الفراش اسبوعين كاملين .

كان زيادجالسا يطالع في مكتبة المدرسة حين رآني مقبلة . وما ان وقع نظره علي من بعيد حتى خف الي تاركا كتبه واغراضــه وقد اخذته موجة من الفرح، وقال لي بلهفة فضحتها لهجته : « لقد قلقنا عليك كثيراً ياليليان . مـــا اسعد لقاءك . كيف تشعرين اليوم ؟ » وشددت معطفي الى جسـدي وقلت : « لابأس ولكن

قاتل الله البرد » .

وغادرنا المكتبة لئلا نزعج روادها ومضينا الى احدى غرف المدرسة وجلسنا وحدنا نتحدث وقلت حين سألني عن سبب مرضي : « انها الانفلونزا اللعينة اصابت كل افراد اسرتنا . وفي اول ايام مرضي بدأ البابا يعالجني ولكن الانفلونزا ما لبثت ان اصابته واضطرته الى الركود في الفراش عدة ايام في حين كان دائي يزداد يوما بعد يوم .

– يبدو ان الانفلونزا عرفت ان البابا طبيب فرحلت مسرعة .

ثم عدت اسأله :

– كيف حال المدرسة ؟ هل قطعتم شوطا بعيداً في الدروس ؟

– كانت المدرسه اثناء غيابك خالية خاوية كالفردوس قبل خلق حواء .

فضحكت ضحكة خفيفة وقلت له : « أأوحشتك الى هذا الحد ؟ انك تضحكني فتنسيني ما انا فيه .

– اوحشتنا جميعاً وقد افتقدناك منذ ايام حين هبطت الثلوج اذ بدأنا نتراشق بها وكان بودي لو كنت معنا لأقذفك ببعض الثلج على رأسك فأجعل شعرك يبدو وقد خالطه المشيب فتظهرين كعجوز هرمة .

– حرام عليك مازلت صبية . الا يكفيك ما فعله بي المرض ونظر الي متأملا ثم قال :

– اتدرين ياليليان انك رائعة ، ان السنين لن تقوى على اخماد

نضارتك وصباك .

وانت ماذا ستفعل بك السنون !

– عجوزاً يعلم الفلسفة ويسمع احد تلامذته يقول للاخر : اتفهم مـــا يقوله الاستـــاذ ؟ فيجيبـــه الثاني : « لا » فيرد السائل : « ولا انا افهم » . ويجيبهما ثالث من الخلف : « يامغفلان لو كنتما تفهمان ما يقوله الاستاذ لما سمي ما يقوله فلسفة » ويضحك الجميع بصوت خافت .

واعجبتني النكتة كثيراً فضحكت بينما تابع هو حديثه قائلا : اتعلمين ان المرض قد جملك كثيرا .

– اذاً سأمرض باستمرار .

فرصة مناسبة لزيارتك في البيت .

– ومن ادراك اني سأسمح بالمجيء ؟

– لن اطلب اذنك .

وضحكنا سوية . وعـدت اقول له : اذن لماذا لم تأتِ هذه المرة ؟

لقد تمنيت من اعماقي لو كنت اعرف منزلك ، حينما كنت عائدا مساء في اليوم الاول لغيابك بدت الامطار الغزيرة لي وهي تهطل ، دموعا فجّرها الشوق الدفين .

وفي اليوم الثالث لغيابك استبدت بي رغبة جارفة لرؤيتك وكنت كل يوم اعلل نفسي بمجيئك في الغـــد . ومضى اسبوع وانت غائبة وفي مطلع الاسبوع الثاني بدأت الثلوج تهطل وحين ذهابي الى المدرسة كنت ألتفت حـولي فأرى الثلوج تغطي كل

شيء . كانت اوراق الاشجار كلها قد اكتست بحلة بيضاء امـا الطرقات فكانت تلمع وقد صقلها الثلج. كنت ارى الدنيا كلها مثلك طريحة الفراش وقد تدثرت بملاءة بيضاء فهممت بتقبيل الارض ظمأ شوقي اليك . وفي تلك الليلة حانت مني التفاتة الى خارج النافذة قبل ان آوي الى فراشي فألفيت الثلوج ما تزال تهطل بصمت . وهب نسيم قارس من الخارج فلفحني بـــبرده لفحة اخـــترقت اللحم والعظم واستقرت في القلب ، وعصفت في اعماقي عواطف جياشة وفي تلك اللحظة تذكرتك وتصورتك راقدة على السرير سقيمة فشعرت بحنين طــاغ اليك وتمنيت لو كنت بالقرب منك. وهزني احساس عارم بالسعادة اضفى على اعماقي دفئا رائعاً وفتح امامي عالما جميلا ساحرا . وحين جئت لاستسلم للنوم لم اكن اشعر ببرد الطبيعة حولي بل كانت احلام فاتنة آسرة تداعب مخيلتي، احسستني اسمو على نفسي فأشعر أني انسان اخر . وصمت زياد بعد ان نطق بالعبارات الاخيرة بكل هدوء وتأن وكأنه يخاطب نفسه ، ولم يلتفت الي ولم يحاول ان يقرأ تأثير عبارته على وجهي وبقيت صامتة انتظر . كان يبدو انه يعيش لحظة رائعة من حياته لا يريد ان يعكرها شيء كانت امارات السعادة تقرأ في تعابير وجهه وكأن جوابي له ما كان ليغير شيئا من توتر المشاعر التي استولت عليه. وبعد فترة ترقب دامت لحظات عابرة التفت زياد الي وقال وكأنه نسي ما كان يعيشه لتوه وعاد الى مرحه : « لقد كنت اتألم كثيرا وانا

اكتب مذكرات المحاضرات التي استمع اليها اذ كنت اعلم انك ستسألينني ان اعطيك اياها حين ابلالك . وها هي ذي .. ارجو ان تستطيعي قراءة خطي .

قال ذلـك وهو يناولني بعض الاوراق مبتسما .

٦

بعد ايام تغيب احد اساتذتنا فوجدنا امامنا وقتا طويلا من الفراغ فاقترح علي زياد ان نمضي فنشرب كوبا من الشاي في مقهى قريب من المدرسة . ودخلنا المقهى . كان الهدوء يخيم عليه ، وقد خلا تقريباً من الزبائن وجلسنا حول احدى الطاولات وقد جلس زياد في مواجهتي وحينما مضى الخادم يحضر لنا الشاي احسست بالدفء يسري في اوصالي ، قال لي زياد : المكان عش دافىء في هذا الجو القارس .

– حقاً انه رائع .

وعاد زياد يقول: والدفء في الشتاء يوحي بالاحلام الجميلة .

– واية احلام يوحيها لك الشتاء ؟

– كثيرة ولي فيه كثير من الذكريات.

– انا ليس عندي ذكريات كثيرة ولا بد من ان تكون حياة الانسان حافلة كي يكون عنده ذكريات .

وقال زياد ببرود وكأنه يتعمد ذلك كي يزيد من دهشتي :

– انا الان طالب مهذب ولكني في مطلع شبابي كنت محاربا عنيفا .

فتطلعت اليه باستغراب وقلت :

– انت كنت تحارب ؟.

– وهل يبدو ذلك لك غريبا ؟

اني اتصورك بالبذلة العسكرية والبندقية على كتفك فأكاد اضحك .

اتسخرين مني ؟ على كل حال لقد حاربت دون ان ارتدي البذلة العسكرية .

وعدت اقول : اني لا اسخر منك ولكن الواقع اني اشعر في اعماق نفسي انك ما زلت بالنسبة لي عالما مجهولا ، فانا لا اعرف شيئا عن حياتك في فلسطين . حين كنت صغيرة كنت احلم بزيارة فلسطين يوما ومشاهدة كنيسة البشارة في الناصرة ، وكنت في احلامي اراني في المكان الذي جثت فيه العذراء اجثو بدوري وانا اقول للملاك : ها أنذا أمة للرب . ويغمرني شعور عنيف بالغبطه . واحلام الطفولة .

– وهل ما زلت تحلمين بذلك .

– ولكن أليس من الرائع حقا زيارة مثل هذه الاماكن ؟ الم تزرها انت . . .

– بلى .

« وكيف كان شعورك » . ؟

– كأحلام طفولتك . فانت في فلسطين تسبحين في جو من

السرية والورع » .

– الى هذا الحد ؟ .

– بل انك لتشعرين وانت تزورين مكانا مقدسا ان الألفي سنة تختفي فجأة ، وان جميع من تحبين ممن سمعت عنهم ماثلون امامك تخاطبينهم وجها لوجه .

– ما اعظم ذلك . ليتني استطيع ان اعيش لحظة كهذه اللحظة . انك تسرني جدا . ليتك تحدثني كثيرا عن فلسطين .

– ولكن حديثها مليء بالنار والبارود

– اني اكره الحرب واخبارها ولكن حديثك يثير اهتمامي .

ونظر إلي ملياً يتفحصني ثم قال بأسى : « لقد أضعت مطلع شبابي في الحرب وعرفت الفشل فسئمت الحياة » .

فقلت له و كأنني أشجعه على الإستمرار في الحديث : على العكس إنك لم تضع فترة من حياتك . لقد تعلمت الحياة على يد خير معلم . لقد خبرت الحياة بأبشع ما فيها فأصبح بامكانك أن تكشف المعاني الجميلة التي لا يراها الناس في حياتهم العادية .

و كأنما بعثت كلماتي بأمل مفاجيء دفين في نفسه فرد علي كالمأخوذ :

– ما اجمل ما تقولين ! ولكن أحقاً تثير احاديثي إهتمامك؟

ونظرت إليه مستغربة لهجته في حين قال لي : انت لطيفة جداً يا ليليان لذا تصغين إلى ما أقول .

فرددت محتجة : بل أنك تمتدحني بما ليس في ، فليس من

الواجب أن يكون الإنسان لطيفاً جداً كي يصغي إلى أقوال زميل له .

- إني أحتفظ بذكرياتي لنفسي ولم يسبق لي أن فتحت قلبي لأحد .. إن الناس عادة لا يحبون أن يستمعوا إلى أحزان غيرهم، لذا اعتدت أن أحتفظ بآلامي لنفسي فلا أبوح بها لأحد . أما أفراحي فاني أجعلها مشاعاً للجميع .

فرددت عليه وأنا أبتسم له : « لقد بدأت الفلسفة تؤثر عليك . إنك في هذه الحالة ستكون أباً عظيماً

وأسلمه اطرائي إلى موجة مفاجئة من الفرح فأخذ يفرك يديه بنشوة وقال لي : « ما رأيك بفنجان شاي ساخن جديد ؟ » وأجبته : « كما تشاء ، شكراً » .

ونادى الخادم وطلب منه شاياً من جديد . وأشاع بخاره المتصاعد دفئاً حميماً حولنا فنظر زياد إلي وقال بحماس فضحته لهجته : « ما أروع هذا النهار ، إنه رائع حقاً أليس كذلك؟ » .

ورددت عليه ، وكأن النشوة التي أخذته لم تلفني بعد معه : « ولكني لا أدري سبباً لروعته ، إنه يوم بارد وأنا لا أحب ايام البرد . »

ورد علي من جديد والنشوة ما تزال تأخذه :

- « ليليان صدقيني إن البرد ساعة الجلوس قربك يصبح جنة دافئة ... »

فتبسمت وقلت وأنا اتصنع المرح : « أراك تحولت رأساً من مقاتل إلى شاعر »

وتبسم هو الآخر ضاحكاً وقال لي: « ألم تقولي لي قبل قليل

إن الحرب تمكنني من اكتشاف المعاني الجميلة التي لا يراها الناس عادة؟»

فضحكت وأنا أردد : « يا لك من ذكي خبيث » .

ونظر إلي ملياً وشرد بعيداً بتفكيره وقال : « فلسطين أحلام الطفولة التي تحولت إلى كابوس . » وتنهد قليلاً قبل أن يستأنف : اللعب معه في الحديقة الهادئة التي أمام منزلنا والنزهات في الحقول . . . وصمت قليلاً وكأنه يحاول أن يسترجع لحظة رائعة من ماض سحيق : « تلك اللحظة العارمة حين تمنيت أن يظل قربي دوماً وأن يظل صغيراً هكذا . . عذباً رائعاً ساذجاً ، حين تململ بين يدي من الألم وانا أضغط صدري إلى صدره وأشده إلي حتى أكاد أعتصره . الحب الكبير لا يستطيع شيئاً أمام القدر العاتي . وصمت قليلا يعيش اللحظة التي استرجعتها ذاكرته لتوه . ثم قطع صمته فجأة وكأنه تنبه إلى وجودي بالقرب منه وقال يخاطبني : ما زلت حتى اليوم أحن إلى بيتنا في حيفا . كان يقع في منطقة هادئة وكان منعزلاً قليلا عن بقية البيوت . أمامه بعض أشجار الفاكهة التي تضفي على عزلته سكينة . ترى أما يزال قائماً في مكانه ؟ .

وتطلع إلي لمت أصغي اليه بانتباه وقد اردت بذلك ان استزيده من الحديث ولكنه ظل ساكتاً وحين ألفيته عازفاً عن الكلام التفت اليه وقلت له وكأنني تذكرت شيئاً جديداً فجأة : من الأفضل ان اعود إلى البيت فأخي الصغير متوعك وقد قضى ليلة سيئة الليلة الماضية وسهرت على تمريضة بعد أن أعطاه أبي بعض الأدوية .

وطرح علي سؤالاً عابراً : اتحبين أخاك الصغير إلى هذا الحد؟

ورددت على الفور بعفوية «يقبرني سمير» ورد علي بصوت خافت كأنه يأتي من الابدية :« حفظ الله لك سميرا » .اجبته والدهشة تأخذني : « ماذا بك ؟ لماذا تغير وجهك سريعاً واكتسى بهذه المسحة الغامضة ؟» ورد بجواب غامض : إني افهم تعلقك باخيك الصغير » . ورددت انا وقد زاد جوابه من حيرتي : ولكني لا افهم كل هذه التعابير التي ارتسمت على وجهك فجأة .

ـ اعذريني ، ولكن هل لك اخ غيره ؟

فأجبته وانا لا ارى العلاقة بين اسئلته : لي اخ آخر يصغرني ايضاً ولكنه اكبر من سمير . ولكن عجباً ماذا بك ؟ « وتلعثم قليلا قبل ان يجيبني : لا شيء ، لا شيء على الاطلاق » . ثم اردف بعد برهة ، « فنترك المكان فمن الافضل لك الا تتأخري على سمير فهو بحاجة لك ولا بد أنه ينتظرك بفارغ الصبر » . وحين قمت لاودعه طرأت ببالي فكرة مفاجئة فقلت له : ما رأيك ان نمضي معاً إلى بيتي للدرس والمراجعة . وتردد قليلا ولكنه لم يلبث ان قبل دعوتي . ولم استطع في طريق عودتي ان امنع نفسي من التفكير في ما جرى لي مع زياد . لقد حاولت كثيراً ان اشجعه على الكلام عن ماضيه في فلسطين ولكنه كان دائماً يتجنب الخوض في مثل هذا الحديث . إنه حقاً شخص غريب . لقد قال لي مرة إنه مثل كيريلوف عذبه الله طيلة حياته ثم في مرة ثانية سخر من الله ! ثم قال لي اليوم انه في فلسطين كان يسبح في جو من السرية والورع ويشعر إنه وجهاً لوجه مع

القديسين. والاغرب من ذلك إنه في غالب الأحيان حين يتحدث إلي يبدو وكأنه يخاطب نفسه . وغمرني شعور مفاجىء إنني ما زلت لا اعرف شيئاً عن زياد ، وإنه ما يزال بالنسبة لي بلاداً شاسعة لم اقم بعد بارتيادها فوددت من اعماقي لو استطيع ان اسبر أغوار قلبه . وتنبهت فجأة إلى أنه كان يلح دوماً على نقطة معينة : عذاب الصغار ، ولكنه كان يستعمل دوماً لغة غامضة : الصغار الأبرياء لماذا ماتوا ؟ترى من هم هؤلاء الصغار الذين ماتوا». لا بد أنه يكتم سراً في اعماقه وإلا فما معنى هذه التعابير الغريبة التي ارتسمت على وجهه اليوم .

وصلنا إلى البيت ، كانت امي منهمكة في بعض امور البيت . وتركت زياداً في الصالة وحده ومضيت إلى غرفة سمير ، وحين جئت لتقبيل اخي الصغير وهو مضطجع في فراشه ألفيتني بالرغم عني افكر باقوال زياد من جديد ، فاجفلت بكليتي محاولة ان اطرد الافكار السوداء من مخيلتي . ولكن تساؤلا غريباً عاد يلح علي : لو توفي اخي الصغير فجأة الآن أكنت اظل احب الله كما احبه الآن ؟ وسرت قشعريرة باردة في كل أطراف جسمي وشعرت بخوف من افكاري ، ثم فجأة تلبهت إلى نفسي واحسست ببعض النفور من زياد يداخلني فيريحني قليلا . لا لن يصيبني مكروه وتعلقي بالله لن تسممه افكار انسان لا يدري ما يريد . وارتحت قليلا إلى ما توصلت اليه ولكني من جديد ألفيتني افكر في الصيف الماضي وبوفاة جدتي وكأنني اسمع صوت زياد يستحثني . ولكن لماذا تتجنبين

المقبلة ، الم تصدمك وفاة جدتك التي كنت تكنين لها حباً
كبيراً . ؟ الم تساورك الافكار احياناً بان الله كان يستطيع ان
يكون ارأف بك ؟ الم تشعري بان القدر حين خطفها على حين
غرة دون ان تشكو من الم او مرض. كانقاسيا ولم يأبه لمشاعرك ؟
بلى لقد شعرت في ذلك الحين بان الحياة اقسى من ان تأخذ بعين
الاعتبار عواطفنا . ولكن لماذا تخادعين وتقولين الحياة ولا
تقولين الكلمة الصحيحة : لقد شعرت بان الله في جبروته اقسى
من ان يأخذ بعين الاعتبار عواطفنا . وحاولت ان تتمردي
على هذا الجبروت اذ شعرتك صغيرة صغيرة وضائعه فصرخت
وكأنك تحاولين ان تثبتي انك هنا : لا ، لا .. ولكنها لم تكن
سوى افكار عابرة ومرت ومن العبث محاسبتي عليها الان فأنا
قد تقبلت قضاء الله باذعان وما زالت محبتي له كبيرة اعظم من
ان تفسدها افكار صبيانية طائشة .

وتطلعت الى العلاء وهتفت من اعماقي : « الهم نجني من
افكاري لأظل نقية جديرة بحبك » . وتنفست الصعداء وكأنني
افلت من شر محدق . وتطلعت الى جانبي كان سمير يرقد بسلام
في فراشه فخرجت من غرفته محاولة ألا أعكر السكينة من
حوله . وصلت الى الصالة وقد نسيت اني قد تركت
زياداً هناك فأجفلت حين هب واقفا للقائي وتلاقت نظراتنا وفي
لحظة عابرة بان لي انساناً آخر واحسست بعطف غريب نحوه
يهزني كلية ودعوته للدخول الى غرفتي الخاصة واجال بصره في

ارجائها ..

كانت هناك طاولة كبيرة قرب النافذة عليها بعض الكتب والى اليسار بعض رفـــوف الكتب والى اليمين مذياع وبعض اسطواناتموسيقية. وقد فرشت الارض بسجاد سميك واسدلت الستائر القرمزية اللون ويبدو ان الفرح غمر زيادا فقال لي انه لمكان مثالي للدرس وصمت قليلا قبل ان يتابع لا يستطيع كل الناس ان يملكوا مثله . وتبسم قليلاً ثم قال إن للغنى فوائده التي لا تنكر .

ورددت عليه بهدوء قـــد يكون للغنى فوائده ولكني كثيرا ما اخجل من نفسي ان اعيش في ترف وفي العالم كل هــذا البؤس ونظر الي كأنه لا يصدق ما اقول وظل برهة صامتا في حين عدت انا الى الكلام . . انني اكره ان تكون جميع وسائل الراحة تحت تصرفي ليتني استطيع ان اتخلى عنها جميعاً فأعيش عيشة البؤس ، وسارع زياد الى الرد : اما انا فقد خرجت من البؤس الذي اكرهه وقد جاهدت للخلاص منه. وعرضت عليه ان كان يحب ان يستمع الى بعض الموسيقى قبل ان نبدأ درسنا معا وتقدم من الاسطوانات واخد يقلبها ثم انتخب منها الكونشرتو الثالث للبيانو لبتهوفن ووضعته وجلسنا نستمع اليه وبعد فترة قام الى كتبي يلقي عليها نظرة ورأى رواية مدام بوفاري فسحبها وقال لي اتدرين ان مدام بوفاري كانت على صواب .

واستغربت قوله وقلت وكيف ذلك ؟ ان من احب اسبغ

على الطرف الاخر جميع الصفات المثالية ورأى فيه الها ، اننا لا نستطيع الاان نستسلم دوما للاحلام .

قلت ان بعض الاحلام ضرورية ولكن لو كانت مدام بوفاري واقعية لعاشت سعيدة .

وفجأة غير الحديث وقال لي أأنت مشغولة ظهر غد وتساءلت : لماذا ؟ فرد : « اني ادعوك لتناول الغداء معي وحدنا » « ولكننا نلتقي باستمرار » .

ولكننا لا نكون وحدنا لقد سئمت الاخرين اريد اننكون على انفراد ورددت ولكننا لن نكون ثم اردفت ضاحكة لئلا تستسلم لاحلامك ورد علي بجدية اليس من حقي ان احلم » قلت بسرعة : بلى بلى بل من واجبك وعاد يسأل وان تكوني انت مدار احلامي .

قلت هناك مواضيع اهم مني انحنيت ارفع الاسطوانة التي انتهت في حين تبعني وقال ولكنك بالنسبة لي اهم موضوع ورفعت رأسي الى العلاء والتقت نظراتنا كانت نظراتي تلح عليه بالحديث ولكنه ظل واجما لحظة ثم قال اتريدين ان اخبرك الحقيقة قلت اجل وصمت من جديد كأنه لا يقوى على البوح بما يريد واخيرا قال ولكنك تعرفينها ووقفت بمواجهته وقلت اجل اني اعرفها لقد كنت اتوقع ذلك انها القصة الابدية اثنان يبدآن الدرس معاً ولكن الامور العاطفية لا تلبث ان تختلط بالدرس، وتطلع الي مليا وقال وهل تبادلينني عاطفتي؟

– اننا اصدقاء .

وتأملني قليلاً قبل ان يطرح علي سؤالا جديدا الا ترين ان لقاءنا ممكن . وسارعت الى الرد كلا ، وسألني باقتضاب لماذا وسارعت اجيبه بسبب يفوق العقل .

وتمهل قليلا . . : هل هناك آخر ؟ .

ليس بالضبط .

وكأنما شجعه جوابي فعاد يلح علي بالسؤال ويطلب اسباباً لرفضي فقلت بنوع من التذمر انني كمدام بوفاري .

ولكنك قلت لو كانت مدام بوفاري واقعية لعاشت سعيدة .

ولكنك قلت انها كانت علىصواب واننا لانستطيع الافلات من الاستسلام للاحلام .

وتأملني قليلا وقال لي بهدوء :

ولكن مدام بوفاري لن تحتاج معي ان تبحث في الخارج عن مهرب لحياتها الرتيبة لانيسأقدم لها حياة حافلة .

وسادت بيننا فترة صمت وظل زياد يلاحقني بنظراته المتسائلة فلم احتملها كثيرا بل قلت له برجاء : زياد ان بحث مثل هـــذا الموضوع يحتاج الى وقت كثير فلنرجئه الى مرة ثانية ولنبق اصدقاء باستمرار .

ولم يقتنع باجابتيبل عاد يلح من جديد ولكن لماذا ترفضين : وتطلعت اليه وقلت : زياد اني لا اريد ان اجعلك تتألم ولكن الا ترى اننا مختلفان ؟

واجابني سريعا ولكن بهدوء غريب : بـــل ارى العكس تماما . .

وسارعت ارد عليه : وكيف ذلك الا تلاحظ انك تنفجر سريعا في كثير من الاحيان ؟ ونظر الي نظرة شاردة ولم يتفوه بكلمة في حين عدت اقول له وكذلك عرفت من احاديثك انك تحب الرفاهية .

وأكفهر وجهـه وكأن كلماتي كانت صفعة له فقـــام الي وأمسك بي من كتفي وهزني وقـــال وعيناه تتأججان بلهيب دفين :

اني بحاجة الى من يحبني على علاتي اتفهمين ؟ لست بحاجة الى من يدينني. ثم تركني وخطـا خطوتين نحو الباب مزمعـا ان يغادر المنزل ولكني سرعان مـا لحقت به وامسكت بكتفه وانا اقول زياد كلا لن تخرج غاضبـاً منهنا . لم اقصد شيئاً وازاحني بيده وهم بفتح الباب فارتميت امامه وتلاقت نظراتنا وبانت لي عيناه بئرين عميقتين من الالام الدفينة فوجدتني اقول له : زيـــاد ان المسيح يحبنا جميعاً وجاءني رده قاسياً سريعاً :ولكنك لاتعريفنه انك تذكرينه نهار الاحد وتنسينه بقية ايام الاسبوع ، وتحاملت على نفسي ولم اجبـــه بكلمة فعـاد ينظر الي وهو يقول انـك تكرهينني لاني من بـلده ولم استطـع أن اتحمـل عنف جوابه فاسرعت اجيبه : اني لست اكرهك، لماذا تريدني اما ان احبك او

ان اكرهك ، هناك بين الحب والكراهية عواطف اخرى كثيرة .

– ولكن عدم مبالاتك اقسى من الكراهية .

– ولكني لست عديمة المبالاة انني لأنحني احتراما امام كل انسان متألم . لقد قلت فقط اننا مختلفان في كثير من الامور فانا فتاة مؤمنة وانت تريد طرد الله من قلبك ولم اكد انهي كلماتي حتى امسك بي بعصبية وصرخ بوجهي : لقد طردت الله من قلبي كي استطيع ان اعبدك وحدك ثم دفعني بعيداً عنه واسرع الى الباب يفتحه ثم يصفعه بشدة وراءه في حين استلقيت متخاذلة على اول مقعد صادفني .

٧

كان المسيو روبون استاذ الاخلاق الفرنسي الجنسية شاباً في الثلاثين من عمره يميل الى الطول وقد اشتهر بين الطلبة بكفاءته وارائه المتحررة التقدمية .

كان زياد يجد لذة كبرى في حضور دروسه وكان يصغي اليه بكل جوارحه حين يتناول الحديث الله اذ كان مسيو دوبون مؤمنا كان يعتقد ان كل فلسفية اخلاقية لا يمكن ان تقوم الا على افتراض وجود الله . ولقد قال لنا مرة في احدى محاضراته ان سارتر نفسه اكرم من نظامه الفلسفي المتشائم القاتم ، ثم أردف قائلا بأن سارتر لن يستطيع ان يؤلف كتاب الاخلاق الذي وعد به من زمان في نهاية « الكائن والعدم » لسبب بسيط وهو ان سارتر لا يؤمن بالله .

وقد اعتاد زياد ان يجادل المسيو دوبون كثيرا ويطرح عليه

الكثير من الاسئلة واذا لم تقنعه اجـابات استاذنا الفرنسي كان يهز برأسه قليلا ثم يصمت . ولكن مفاجأة ما لبثت ان حدثت يوما اذ بينما كان المسيو دوبون يتكلم عن صراع الواجبات اورد مثلا عن الضابط الفرنسي الذي يقاتل في الجزائر حالياً في حرب لا يؤمن بهـــا ثم اخذ يتكلم عن مسؤولية المجتمع باسره واستشهد بكارل ياسبرس الفيلسوف الالماني وكتابه « الاثم الالماني »واخذ يتحدث عن مسؤولية الشعب الالماني باسره عما حدث في الحرب العالمية الثانية وفي معسكرات الاعتقال . ولم ينتظر زياد ان ينتهي المسيو دوبون من كلامه بل قاطعه قائلا ، وكأنه قد ضاق بما يقوله الاستاذ . « انني لا اتبين بوضوح لماذا كان على الالمان ان يشعروا بالاثم وحدهم فالانجليز لا يقلون عنهم مسؤولية في اشعال الحرب،حقا انني لا افهم ياسبرس هذا» . وتطلعت جميع الانظار الى زياد كان في نبرته تحد صارخ للاستاذ الذي اخذ ينظر اليـه مشدوهاً وكانه لا يصدق ما يسمع . وترقب الجميع رد الاستاذ الذي اكتفى بان قال وهو يتصنع البرود : مسيو ماجد انني لن افهم جيداً ما تريد ان تقوله ، وعاد زياد ليرد بهدوء لا يخلو من تحد : ياسبرس هذا معتوه اذ لا حاجة به الى اتهام الشعب الالماني باسره اذ ان الانجليز والفرنسيين لم يكونوا اقل من الالمان ذنبا وان كانوا اكثر مراوغة واحتيالا . واذا كان الشعب الماني كله مذنباً ومسؤولا عن الحرب العالمية الثانية فلماذا لا تكون اوروبا كلها مذنبة ومسؤولة عن خطيئة المـانية ؟ وقال الاستاذ متسائلا :

– اتريد الدفاع عن النازية ؟

– انا لا ادافع عن النــــازية ولكنني اعتقد ان هتلر لم يكن المجرم الوحيد .

– ماذا تقصد ؟

– اقصد انه يجب الا نخدع انفسنا ونقول بان الانجليز كانوا يخوضون غمار حرب عقائدية ضد الالمان . العقائدية ليست الا الستار المهترىء الذي تخبىء وراءه الدول الكبرى اطماعهــــا ومصالحها .

وصمت زياد قليلاً ثم غير لهجته قبل ان يستأنف كلامه :

– النازية ليست حزبا سياسيا ولا وهي وقف على شعب دون اخر . النازية هي الانانية المتأصلة في قلب كل واحد منا فكما كان الالماني نازيا حين اتبع هتلر فكذلك كان الانجليزي والفرنسي نازيا حين اراد ان يذل الالماني بعد الحرب العالمية الاولى . النازية هي العنف المتأصل في القلوب والعنف لم يكن وقفــا على شعب معين في زمن معين . النازية هي تحطيم القوي للضعيف وكما كان الالمان نازيين في قتلهم اليهود فقد كنتم انتم الغربيين جميعاً نازيين حين شردتمونا نحن الضعفاء لتقيمو اسرائيل . يتمتم نساءنا وقتلتم ابرياءنا .

انكم لكثرة ما تتحدثون عن نازية الالمان نسيتم النازية المعشعشة في قلوبكم فاضطهادكم لنا عمل نازي وسكوتكم على بقائنا جعلنا نجتر بؤسنا لأنه عمل نازي ايضاً . انتم جميعاً من اميركيين وانجليز وفرنسيين

ضالعون في المسؤولية لقـد فتحنا ديارنا فسلبتمونا اياها وفتحنا لكم قلوبنا فزرعتم فيها الكراهية نجترها ليل نهار قل لي مـــاذا تركتم لنا غير الكراهية طعاماً والكراهية هواء .

وصمت زياد قليلا وغير لهجته وقال ان قلبي لينفطر حزنا على الذين قاسوا في معسكرات الاعتقال والدموع تملأ مقلتي وانا اقرأ مذكرات ان فرانك ، ولكن الكراهية العميقة تلف قلبي بغشاء اسود قاتم فاصرخ ليت هتلر اكمل ما بدأ فقضى على الستة ملايين الباقية، اذن لكنت اليوم اعيش آمنا في وطني مـع اخي الغائب وصمت زياد من جديـــد ليشرد قليلاً ثم يفاجيء الاستاذ بصراخه لقد قتلتموه انتم كما قتل هتلر ان فرانك،قتلتم الابتسامة الى الابد كلكم نازيون انتم قتلة اتفهم ! انتم قتلة ولستم بافضل من هتلر .

انكم تتحدثون عن فظائع هتلر في معسكرات الاعتقال وانتم لا تريدون كشف الحقيقة من وراء ذلك تريدون تبرير جريمتكم بخلق اسرائيل وكأننا نحن الذين قتلنا اليهود او نحن الذين اضطهدناهم وارسلناهم الى الافران واجرينا عليهم الاختبارات. اذا كان ياسبرس يؤكد أن الشعب الالماني بأسره مسؤول عن الفظاعات التي ارتكبت في الحرب الماضية فلماذا لا تكونون انتم الغربيين جميعاً مسؤولين عن جريمة تشريد مليون عربي فلسطيني ؟ لماذا لا يرفع صوت واحد بينكم ، مستنكراً هذه الجريمة ؟

لقد اضطهدت اوروبا المسيحية اليهود على مر العصور وكانت

ذروة هذا الاضطهاد، الاضطهاد النازي . ولكن لماذا تريدون دوما ان تحملونا نحن العرب وزر ما ارتكبتموه انتم . اننا غير مستعدين لتحمل خطأ غيرنا ان تحمل خطأنا امر متعب فكيف بتحمل اخطاء غيرنا . لقد ارادت اوروبا ان تخفف عن ضميرها المعذب باضطهاد اليهود بخلقها اسرائيل وبذلك انزلت الوزر عن كاهلها وحملتنا اياه فصبت كل كراهيتها علينا نحن العرب ، (وهذه ظاهرة يعرفها كل علماء النفس) قال زياد جملته الاخيرة ببرود مازجه التحدي : وقد بدا القلق على المسيودبون وبان انه يريد ان يضع حداً بسرعة للمناقشة فقال بهدوء وحزم لزياد : انت لا تفهم معنى ما تقول : ولم ينتظر زياد ان ينهي الاستاذ كلامه بل قاطعه قائلاً وانت أتفهم معنى العيش بلا وطن ؟ لو كنا مليون كلب شردوا لقامت جمعية الرفق بالحيوان عندكم بحملة عالمية لاغاثتنا ولكننا لا نستحق ذلك لان كلاب الدول المتقدمة احق بالمساعدة من مواطني البلاد المتخلفة .

وهنا عاد زياد الى صمته ثم غير من لهجته ونظر الى الاستاذ نظرة غريبة وكان الاستاذ ينظر اليه مشدوهاً لا يدري بماذا يجيب واجال زياد عينيه في الصف وكان يبدو ان حمى مفاجئة قد اصابته فمشى نحو الاستاذ في مقعده ووقف قبالته ثم قال له : اتدري من انا ؟ وظل الاستاذ على صمته لايفهم تصرف تلميذه في حين تابع زياد كلامه قائلاً : انني شخص منته اجل انني شخص منته انسان بلا وطن انني اكلف الاميركيين ثلاثين دولاراً في العام

ان كلباً يخص عائلة اوروبية يكلفها اكثر من هذا بكثير . اذن مالا يكفي الكلب المحترم يكفيني انا اذن في احسن الحالات انا كلب لقد فقدت كل كرامة انسانية، منذ أيام صرحت بحبي انا الكلب الى التي احبها فنظرت الي بصمت اني متأكد انها قد قالت في نفسها انا امرأته ؟ هذا البلا وطن ها ها انا اذن بلا وطن ولكن لماذا لسبب بسيط: لاني ولدت في بلد المسيح ولكن الآخرين لا يفهمون حتى تلك التي اسلمتها قلبي لا تدري كالآخرين اني انا ايضاً مثله هو قادر على الموت من اجل الذين احبهم انا الكلب المهمل المضطهد قادر على بسط يدي على الصليب مثله هو من اجل الذين احبهم وان اغفر للجميع اني على هذا قادر لي قلب قادر على هذا ، اجل اجل سيأتي يوم اموت فيه سأموت يوماً من اجل جميع المضطهدين جميع الحزانى.

قال زياد كلماته الأخيرة ولم ينتظر رد فعل الاستاذ بل اسرع الى الباب ففتحه وغادر الصف .

وفي اليوم التالي التقيت به كان متلهفاً لمعرفة الاثر الذي تركه تصرفه غير المتوقع وأخبرته بأن الاستاذ كان حائراً وقال لابد انك قاسيت كثيراً وهو يعذرك وتطلع الي بنظرات شاردة وقال :

لقد سئمت حديثهم عن اضطهاد اليهود . انهم يتحدثون دوماً عن ذلك لتبرير جريمة الاسرائيليين تجاهنا وكأننا نحن الساميين المسؤولون عن جرائم اللاسامية ، او كأن اضطهاد النازية لليهود يعطيهم الحق في قتلنا وتشريدنا واغتصاب وطننا . انهم جميعاً

كذبة، وشر الكذب كذب المثقفين لانهم يفلسفون الباطل ويجدون للظلم المبررات ويخبئون خداعهم لانفسهم وراء تبريرات باطلة Mystifications لها ثوب العقائدية والمثل العليا فلقد قرأت لاحدهم : ان في فلسطين جاذبية النداء ... والعودة اليها غزو صوفي للمطلق ولكن اليس هذا هو التبرير الزائف الذي يستشهد به دعاة التفرقة العنصرية وعلى رأسهم فوكنر . الم يحاول ان يحيط التفرقة العنصرية بهالة من الصوفية الميتافيزيكية ؟ وكذلك الا نستطيع ان نقول بأن النازية كانت بالنسبة للالماني غزوا صوفيا للمطلق ؟ ان المجرم يستطيع ، دوما اذا لم يستطع ان يواجه الحقيقة ان يضفي مسحة صوفية على جريمته ثم فجأة غير لهجته ليقول بصوت رصين جاد :

l'hypocrisieest tellement maligne qu'elle a l'apparence de la vérité!

ان النفاق خبيث جداً حتى انه يبدو وكأن الحق الى جانبه. بانه لا يتورع عن ارتكاب ابشع الجرائم باسم اسمى العقائد . ايها النفاق اني اراك في كل شيء في الجرائم كما في الصلوات في الدعارة كما في التصوف فانت تنسل الى ارق القلوب وإلى اذكى العقول كنسيم الصباح الناعم.

وسادت فترة صمت قصيرة بيننا قبل ان انظر الى زياد مبتسمة وانا اقول له اني مستاءة منك وتطلع الي بنظرات شاردة وتساءل بدهشة انت مستاءة مني ؟ قلت : اجل منذ الامس وتطلع الي سريعاً وقال : لماذا .

ونظرت اليه بهدوء واجبته : انت تدري . وصمت قليلاً

ثم قال لي اليس صحيحاً انك تكرهينني لأنني من فلسطين ؟

ـ اولا انا لست اكرهك وانت تعرف اني لاادين الناس بسبب جنسياتهم ورد ببرود : عقلك منفتح للجميع لاقلبك . وانفعلت قليلا وانا ارد عليه وانت ماذا في قلبك غير الكراهية ؟ فكأنما كان جوابي قارسا فتعمد ان يجرحني برده : ولكنه الغرب الذى تحبينه هو الذى اترعه بالكره . ورددت سريعاً : انا لست الغرب انا ليليان . وتطلع الي بنظرة غريبة ولم يجبني بشيء ؛ فعدت اقطع حبل الصمت قائلة فلنتكلم عن فلسطين حدثني عن حياتك فيها الا تريد ؟ ورد علي بلهجة مازجتها السخرية وماذا يهمك من امرها ان قصتها مليئة بالكراهية ومثلك لايجدر به الا حديث الحب ورددت عليه قائلة : زياد ارجوك الا تستطيع تغيير هذه اللهجة . وأجابني وكأنه يضيق بحديثي لماذا لاتتركينني بسلام ماذا تريدين من انسان مثلي . ورددت بلهجة حاولت ان تكون رقيقة قدر طاقتي : ولكننا اصدقاء اليس كذلك ورد علي سريعا انا ليس لي من صديق غير آلامي وكراهيتي . ويبدو ان فكرة مفاجئة قد لمعت في ذهنه فأمدته بطاقة جديدة للتهكم اذ نظر الي فجأة وقال لي : الواقع ان عليك كمسيحية مؤمنة ان تشكري هتلر . وتطلعت اليه دهشة في حين تابع كلامه قائلا : الم يقل اليهود حين صلبوا المسيح دمه علينا وعلى اولادنا ولم يكن هتلر سوى الالة التي انتقمت للمسيح من اولاد اليهود ورددت عليه ولكن المسيح لم

يأت لينتقم من احد. ولم يكترث زياد لجوابي بل قال بخبث :
ولكن هتلر فعل مافعل ليتم ماجاء في الانجيل « دمه علينا وعلى اولادنا» وقبل ان اجيبه بشيء قال لي : ثم انهم في اسرائيل الان يشكرون هتلر في الخفاء فهو الذي اعطاهم عطف الرأي العام العالمي ثم انهم يستغلون ما فعله النازيون ليمتصوا الملايين من الالمان تحت إسم التكفير وهنا نظرت اليه قليلاً وقلت :
– ولكن جميع الاموال لاتستطيع ان تمحي ماحدث .
– ولكنها الصهيونية العالمية التي خلقت عقدة الأثم عند الالمان لمآربها السياسية والا فلماذا لايشكو المان المانيا الشرقية من عقدة الاثم ايضا ولماذا لايدفعون شيئا للتخفيف عن ضميرهم ؟ ! ثم لماذا لاتدفع اميركا ايضا لليابانيين تكفيرا عن قنبلتها الذرية . ولماذا لاتدفع انجلترا ايضا لجميع مستعمراتها تكفيرا عن آثامها .
وصمت قليلا ثم ابتسم لحظة وقال لي : ليليان ان المبادىء السامية لا تعشعش الا في قلوب الابرياء مثلك اما العالم الخارجي الذي نعيش فيه فهو عالم بلا قلب . انه كقلبك نحوي وقبل ان اجيبه بشيء قال لي من جديد : اتدرين وهذا في مابيننا ليت هتلر اكمل معروفه فاراحنا من الستة ملايين الباقية من اليهود . وتطلع الي وقال لي : لماذا تدهشك اقوالي فانت لو خيرت بين ان يموت ستة اشخاص في اليابان او في اي بلد بعيد آخر وبين ان تموتي انت أكنت ترددين لحظة في ان تقولي ليمت عشرة لا ستة ولأبقى انا حية

وانا استعمل المنطق الواقعي نفسه فلو مات ستة ملايين من اليهود لعشنا نحن المليون . الا ترين كيف انك لو ابتعدت عن احلامك الفلسفية واتيت الى الواقع للمست ان الحق الى جانبي ؟ لفظ زياد جملته الأخيرة ببطء وهدوء فتأملت وجهه قليلاً ثم قلت له: زياد انت لا تكره اليهود بل تكره نفسك وكأنما عرته جملتي فجأة ونظر الي مليا ثم قال لي : اجـــل ولذا بت اكرهك لانك جزء من نفسي .

٨

وعاد زياد الي متابعة دروس المسيو دوبون ولكنه كان يبدو حزيناً جدا وانقطع وحده لا يكاد يكلم احداً . كان من المؤكد ان صراعاً عنيفاً يعصف في أعماقه

وحينما كنا ندخل قاعة المحاضرات سوية بعد بضعة أيام هالني الشحوب الشديد البادي على وجهه . وحين انتهت المحاضرة اسرعت اليه اسأله : ما بك هل تشكو من شيء . ان الالم قد شق اخاديد عريضة في وجهك . لا بد ان شيئاما ليس على ما يرام « واسرع يرد : لا ابدا اني لا اشكو من شيء » ولكنك تغيرت كثيرا هذه الايام . لا ادري كأنك لست اياك » ولكني: «لا ادري ماذا تغير في» « يبدو كأن جميع هموم العالم قد ألقيت على عاتقك فجأة » . وابتسم ولكن ليس

كابتساماته السابقة التي كان فيها الكثير من البراءة والمرح وحب الحياة فالابتسامة باهتة ميتة منذ ولادتها . واراد ان ينصرف ولكني دعوته لتناول فنجان قهوة في مقهى قريب . ولم يرض الا بعد الحاحي ، وحين جلسنا وحدنا معا بادرني الى القول : اشكرك على كل ما فعلتيه من اجلي « ولكني لم افعل شيئا » ولم يلتفت إلى ردي بل قال لي فجأة : « انا اكذوبة كبرى يا ليليان انا لست اياي لست زياد، زياد الذي اريده قبر في فلسطين اما زياد الذي هاجر الى لبنان فهو بائس مسكين يخفي بؤسه بالتمرد والحقد ، والتهكم » .

وصمت قليلا ينظر الى بعيد وعاد يستأنف : « ولكن لماذا ، لماذا تخلى عنا الجميع نحن لم نصنع شرا مع احد » . ونظرت اليه وقد بان بريق غريب في عينيه واجبته : ان كل لماذا تسألها انت ليس من يستطيع ان يجيب عنها . لماذا تخلى الجميع عن المسيح ايضا ؟ لماذا يضطهد العادل دوما ؟ »

واسلمه جوابي الى تفكير عميق واجابني برقة، كنت اشعر معها ان كل كلمة من كلماته دمعة ام ثكلى : « نحن لا نريد ان نكون شعبا من الشهداء ولا من القديسين نحن نريد ان نعيش بهدوء وسلام كشعب عادي بسيط » ونظرت اليه : احسستني فجأة امام زياد اخر لا اعرفه ، كان يبدو ان وجهه قد اضاءه فجأة نور غريب وبان لي كأنه حلم رائع فكرة سامية لا شخص مجسد من لحم وعظم وصحت به قائلة : « اني ارى زياداً الآخر حياً من جديد . زياد انت لم تخلق

للكراهية » . وكأنما عرته كلماتي فجأة فنظر الي مندهشا وقال:
انت رقيقة ياليليان ولكني لست جديرا بتعاطفك . وعدت اتأمل النور الجديد المنبعث من عينيه وانا اقـــول له : كنت متأكدة من انك لا تؤمن بكل ما تقول، قلبك اسمى من لسانك يا زياد » .

« اجل يا ليليان انني من اعماقي اريد الا أؤمن بمـا قلت ولكن مسيو دوبون فرنسي وفرنسا دولة كبرى والدول الكبرى بلا مبادىء كبرى تصبح جحيما يلهب الضعفاء . لماذا لماذا احرقتنا الدول الكبرى بأتونها نحن الشعب الصغير . ؟ ولمـــاذا عليّ ان اعيش بدون بلد ؟ انت لا تدرين معنى العيش بلا وطن لانك لم تكونيه في يوم من الايام . . .

اخبريني لماذا يجب ان يهرب شعب باكمله في حالة خـــوف وهلع وان يعيش ليجتر البؤس ؟ »

انت دائما تعود الي لماذا ، ولكن علينا نحن مهما بلغ عداءنا لليهود الا نؤيد القتل العنصري الجماعي Génocide تصور انه سيكون بين هذه الجموع اطفال « وقاطعني سريعا : اجل اجل الصغار الابرياء الاطفال يا ليليان لماذا ماتو . . . « ولم أفهم ما ذهب اليه في عبارته الاخيرة بل اني لم انتبه لها جيدا بـــل قاطعته قائلة : تصور لو كان لك اخ صغير بينهم ؟ وانتفض فجأة وقد اكتسى وجهه بتعبير صارم . وسدد بصره الي ثم قال بعد فترة : فلنرجىء الحديث الى مرة اخرى والآن هيا بنا .

ولكني رفضت ان انصاع لامره فقلت له بل سنبقى ونتحدث واجابني ببرود: ليس لدينا ما نتحدث به ، وسكت قليلا قبل ان يجيبني : ليليان لماذا تعذبينني فلنقطع كل صلة بيننا اني لست بحاجة الى عطفك .

وتأملته ملياً قبل أن أجيبه : ولكن لماذا لا نبقى أصدقاء؟ وجاءني رده سريعاً : لقد سئمت شفقتك علي .. اني اكره الشفقة وسألته : كم مرة تستعمل كلمة أكره في النهار ، وسارع يجيبني انها طعامي وشرابي . حين كنت مدرساً كنت اجعل تلامذتي يصرفون فعل كره وبقيت فترة اتأمله صامتة في حين رأيت الانفعال العميق يسيطر على وجهه وهو يقول لي : ليليان لقد احببتك لاني كنت متأكداً بأني لن احظى بك على الاطلاق، بي شوق الى المستحيل ؛ وابتسمت له قليلاً وانا أرد عليه : ولكن من يدري فقد تتطور عواطفي نحوك . وهدأ قليلاً ثم قال لي برقة : وكم عليّ ان انتظر ؟ واجبت بهدوء : لست ادري اني لا ادري متى تتطور عواطفي واذا كانت ستتطور : وعاد ينظر الي بحنان وهو يردد على مسامعي : يقال ان شومان انتظر حبيبته عشر سنوات قبل ان تصبح رفيقة حياته فهل تريدين ان انتظر مثله ؟ ورددت ببساطة انتظر اذا كان من طبعك حب الانتظار ولكني لا اعدك بشيء .

وهنا اقبل الخادم يحمل لنا بعض المرطبات وتناول قطعة ثلج من اناء امامه والتفت الي وقال لي : ان قلبك كقطعة الثلج

هذه؛ ولذت بالصمت في حين عاد يقول لي: وماذا يستطيع تطور عواطفك ان يفعل لي إن الانسانية كلها قد تخلت عنا وحين رأى اني لم اجبه ضاق بي ذرعاً وصاح اني اكره هذا الصمت البارد ثم فجأة هدأ قليلا وقال بنوع من الاستسلام الساخر: لماذا علي ان الومك انك لم تفعلي معي الا ما فعله الجميع معنا فاذا كان قلبك من جليد نحوي فان قلب الانسانية كلها كان من جليد نحونا وعواطفك لن تغير من الواقع شيئاً؛ ولست ادري لماذا شعرت بعطف شديد مفاجيء نحوه فقلت له : زياد انني انحني خشوعاً امام الآلام التي تحملتها ولكني لست الانسانية، انا ليليان فقط وفي قلبي كثير من التقدير لك وسارع يجيبني دون ان يتأثر كثيراً بما رددته على مسامعه :

« ولكن لك قلب من جليد كالبشرية كلها » . ولم اغير شيئاً من لهجتي وانا ارد عليه : ان ما تقوله ليس حقيقياً ان البشر صالحون ولكن علينا ان نكتشفهم »ورد علي وكأنه شارد يقرأ من كتاب دون اكتراث لقد فتشت عن الدفء الانساني في كل مكان فلم اجده في اي مكان .

– في القلب الاكثر جليداً شرارة من الحرارة اذا اكتشفناها اكتشفنا قداسة الحياة.

– ان قلب الاخرين هو الجحيم الصاقع .

ان الجحيم هو ان نظل مغرقين في انانيتنا غير مكترثين لمصائب غيرنا .

ولكنني اتيتك حاملا لك قلبي فلم اجد منك الا اللا مبالاة.

ليس ما تقوله حقيقياً فاني احترمك واتمنى لك كل خير .

وتغيرت لهجته وارتفع صوته وهو يردعلي : لست اريد احترامك وتمنياتك اريد قلبك . بي ظمأ لان اكون محبوبا . بي جوع الى الحرارة الانسانية.. اني بحاجة الى قلب ينبض بانسجام مع قلبي ، يتألم من اجلي . اني بحاجة لان اعيش حياة جديدة مفعمة .

وعدت أتأمله وانا اردعليه نحن جميعاً بحاجة الى حياة جديدة وستكون لك حياتك الجديدة اني واثقة من هذا . واسرع يرد علي: «ولكني اريدها معك انت فبدونك تتحول كل حياة الى ارض قاحلة» وبح صوتي قليلا وانا اقول له: «زياد انك ما زلت في مطلع شبابك وامامك حياة باكملها بغض النظر عني» ولكنه عاد يقول: وما نفع السنين وتعاقب الايام في غيابك لن تكون هناك حياة بل تعاقب بلا طعم للأيام .

– ولكنك ستنساني مع تعاقب الايام انك تتعلق الان بي بسبب استعداد نفساني تعيشه اليوم فأنت تشعر بانك غريب وبحاجة الى انسان تحبه ولكنك حين ستترك الجامعة وتخرج الى الحياة سترى انك ستنساني . وهنا انفجر بي صائحاً : « كفي عن تمثيل دور الطبيب فان كنت لا تحبينني فلست بحاجة الى استنباط الاستنتاجات الخاطئة تخفين وراءها برودك .

وحين ألفاني ما ازال على صمتي تطلع الي من جديد وقال لي : انت اكذوبة كبرى يا ليليان لقد مللتك سئمت منك . فلست

بحاجة الى مدين لقــد شبعت دينونة فالانسانية قــد لفظت ضدي اقسى دينونــة ؛ لقد تخلت عني ثم لاحقتني بنظرات اللامبالاة . انني قوي قوي جدا ولست بحاجة الى رأفتك. انت اكذوبة وانت تملكــين جميع النقائص التي في ، ولكنــك تدعين بانك تحبين الفقر والفقراء وهذا كذب، اني قد خرجت من البؤس واريد الحياة الخالية من العوز واصرح بهذا ؛ أما انت فانك لا تحبين رغد العيش لانك لم تعرفي الحاجة ، هل رأيت احد الناس الاخصاء مريضاً يتألم ولا يملك ثمن الدواء ؟ اذا كان يحزنك ان تعيشي وجميع وسائل الراحة حولك وفي هذا العالم الكثير من البؤس ، فلماذا لا تتخلين عن راحتك وتعيشين كالبؤساء ، ورددت عليه بعصبية : لاني ضعيفة .

ورد علي بشيء من التهكم : ألأنك ضعيفة ايضا تتألمين لآلامي ولكنك تتألمين لي ؟ وقبل ان اجيبه بشيء عاد يقول لست اريد ان تحي آلامي بل تحبيني انا وحين بقيت صامتة تطلع الي بنظرات حانقة وقال لي : انك تحتقرينني لاني من بلد ذلك الذي تدعين انك تحبينه اكثر من اي شيء .

وبقي يفترسني بنظراته المتقدة شررا في حين شعرت بآلام تمزق احشائي وباعصابي تثور فحاولت ان اصرخ به ان يتركني وسبيلي ولكن اعصابي خانتني ففاضت الدموع من عيني بصمت فقام وامسك بيدي وخرج بي من المقهى وهو صامت صمت الاموات .

٩

ومضى اسبوع على هذه الحادثة وانا اتهرب من لقاء زياد وكان يلاحقني باستمرار ولكني لم اترك له فرصة الانفراد بي حتى كان عصر يوم دخلت فيه صفاً خالياً من الطلاب وفتحت حقيبتي واخرجت احد الكتب للمطالعة ولم اكد ابدأ حتى شعرت بالباب يفتح واذا بزياد يطل علي ، كان في عينيه انفعالات غريبة وتوقف امام الباب يرمقني بنظراته وحدقت بصري فيه ولم نتبادل كلمة ثم خطا خطوته الاولى وهو ما يزال يتردد ولم اتحرك من مقعدي واقبل ببطء وجلس قبالتي كان وجهه يفيض بالانفعالات العنيفة وظل هكذا فترة ثم بدأ يقول لي باندفاع: لا تصدقي كلمة مما قلته لك ليليان لقد تألمت كثيرا طيلة هذا الاسبوع شعرت بحزن مميت يزحف كالليل البهيم فيطفىء على كل

حاسة من حواسي،حزن لم أشعر بمثله الا حين فقـدته ولقد بدت لي الحياة كلهـــا ظلاما كثيفاً وبدا قلبي كتلة من الحزن المظلم لا يضيء غياهبه اي قبس من نور ... احبك احبك بجنون كيف كيف سمحت لنفسي ان أؤلمك ألم تعرفي الحب يا ليليان ؟ شعور مضن رائع في آلامه اقوى من ان تتحمله اعصاب الانسان . اني يائس يائس من كل شيء كيف كيف افعل لاجعلك تحبينني اني اعرف اني احبك ان حبك لي مستحيـل ولكن احبك لان بي شوق الى المستحيل .. اني كمحكوم بالاعـــدام يساق الى المقصلة ولكنه يحب الحياة حبا جنونياً فيصرخ بامـل يائس ... ليليان اغفري لي اني احبك ولن اسمح لنفسي ثانية كيف سمحت لنفسي ان ادخل الى قلبك الألم... اطلبي حياتي اعطيكها طائعاً مختاراً ولكن كيف كيف يمكنني ان ابلغ المستحيل ارجوك دجلي علي اكذبي ولكن قولي انك تحبينني؛ في قلبي يأس بعنف الموت اني لا استحقك ، لا استحق غفرانك ولكنني يـائس حزين لا منتهى لحزني الا بقربك... اغفري لي. واسرع الى يدي اليمنى وامسك بها وراح ينهال عليها تقبيلا قائلا: احبك بكل مافي قلبي من الام وفي نفسي من يأس يا مـلاكي لقد جعلتك تتألمين، هاتان العينان الطاهرتان جعلت الدموع تفر منهـا ما كان اقسى قلبي ... هذا الوجه الملائكي المتدفق فرحا تقلصت عضلاته حزنا كيف اغفر لنفسي...وهذا القلب البتول ارتجف تعيسا اني افتديه بفؤادي. وهذه اليد الرحوم دعيني ابللها بالدموع..احبك احبك يا ملاكي

احب كل قطعة من جسدك هيكـل القداسة احب يدك انامك بل مباركة الارض التي تطأها قدمـك لأن الأرض التي تطأينها تتقدس ... ليتني استحق ان ابلـل هذه القدم الصغيرة الطاهرة بدموع التوبة .

وصمت قليلا قبل ان يقول : انقلبي هذا البحر الهائج ليسكن كالطفـل الصغير حـين يكون قربك اني انظر الى عينيك اللامتناهيتين فيتطهر كل شيء . وظل فترة يحـدق بي ثم رفع رأسه الى العلاء وقال : اللهمّ هبها بركتك اجعلها سعيدة وامنحها السلام الداخلي ينبوع كل غبطة املأهـا بنعمتك لان لهـا قلب تشتهي الملائكة ان يكون لهـا مثله وصمت قليلا قبل ان يقول وكأنه يخاطب نفسه : اين غنى العالم من غنى قلب كهـذا القلب ان الله نفسه ليفرح لان بين خلائقـه من تحمـل قلبا بنقاء هذا القلب .

١٠

في اليوم التالي كنت اجلس وحـــدي في حديقــة المدرسة الهادئة بانتظار بدء الدروس واقبل زياد من بعيد كان يقترب مني متردداً والواقع انني بعد حادثة الامس بدأت اشعر بميل غريب نحوه وبرابطة خفيــة تشدنا الى بعض وخــالجني شعور عنيف وتمنيت لو استطعت ان احنو عليه لأعوضه ماسببته له من آلام. وحين حاذاني حياني على حياء ثم صمت ينظر الي ، كان يود ان يقول شيئاً ولكن يبدو انه لم يكن يعرف من اين يبدأ وحين لمست حيرته سألته عن الكتاب الذي كان يحمله في يده فمده نحوي كان كتاباً عن برجسون وفتحتــه فرأيت صورة الفيلسوف الفرنسي في الصفحة الاولى فأخذت اتأملها وانا اردد :

ما اعمق التعبير المنبعث من عينيه الغائرتين كأنهما تستشفان

اللانهاية وتطلع الى زياد وقال : « وانا مـاذا ترين في عيني » ؟ وقلت ضاحكة : « اني لااري الا الظلام الدامس » واقبلت فيرا وكأنها سرت في وجودنا وحدنا او كأنها انتهزت هذه الفرصة فقالت بعد ان حيتنا وهي تبتسم كعادتها : « انا متأكدة لو ان ليليان رمت نفسها عن الروشة منتحرة لتبعها زياد دون تردد » وضحك زياد وتردد لا يدري مـاذا يقول امـام هذه النكتة اللاذعة ، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وقال « طبعـا فليليان تستحق ذلك » ثم توجه بالسؤال نحو فيرا : « الا تستحق ليليان ذلك » ؟ وكأنه بهذا السؤال يفلت من الفخ الذي نصبته له فيرا بمرحها اللاذع وردت فيرا قائلة طبعا : طبعا. ثم اردفت: « هل لاحظت غمازتيها. ان لها غمازتين رائعتين حقا وستتغنى بهما غداً في قصائدك اياك ان تنساهما». ورد زياد قائلاً « ولكني لست شاعراً ولن انظم اية قصيدة في حياتي» وردت فيرا بمرح: «ان لم يكن شعراً فليكن نثراً اذكرها في اول رواية لك » . ولكني لست فنانا ولن اكتب مقالة فنية . وردت فيرا سريعا: ولكن من اجل ليليان الا تكتب من اجل عينيها السوداوين وغمازتيها الفريدتين الا تستحق ليليان كتابـة رواية ولو اين روح الفروسية ! ورد زياد : ان ليليان خليقة بشاعر كبير لذا لن افسد جمالها بالكتابة عنه» انا الذي لاحظ لي من الفن. وعادت فيرا تسأل زياداً: «ولكن ما رأيك حقا في ليليان وسارع زياد الى الاجابة :

Une belle jeune fille est comme une ouvvre d'art, une joie de plus .

«ان الصبية الجميلة كالعمل الفني فرح اضافي » ، وهتفت فيرا وقد اعجبتها الجملة : «لو كتبت رواية فيها مثل هذه الجملة لضمنت لك نجاحا باهرا ثم تطلعت الي وقالت : انك موهوب حقا. اليس كذلك؟ وهنا قاطعتها قائلة : كفا انتما الاثنين عن التغزل بي فانا لم آذن لكما بعد . وردت فيرا : ولكن الشوق الى الجمال في اعماقنا جميعاً . الم يقل افلاطون بأننا تأملنا الجمال قبل ان نأتي الى هذا العالم وحين نرى الجمال هنا نتذكر الجمال الازلي ؟ ... لابد ان زياد قد رأى جمالك في العالم الاخر قبل ان يأتي الى عالم ما تحت القمر هذا، ولذا فهو يهيم بك اليوم . وضحكت قليـلا لخفة روح فيرا ثم تطلعت إلي وقالت ضاحكة : ان حب زياد لن يفتر مـع الايام كحب كير كيجارد بل سيزداد مع مر السنين سعيراً.

وتطلعت الى زيـاد وقالت : « اليس كذلك » ، وضحكـا معا كانت فيرا قادرة حقا على ان تثير المرح اينما حلت .

واقبل شوقي ومعه بعض الزملاء فبادرته فيرا وكأنها تكمل حديثنا : « ان زياد يرفض ان ينظم قصيدة لليلبان ولكن انت ستنظم لي قصيدة اليس كذلك » ورد شوقي سريعا : طبعا طبعا ولكن ليتني استطيع ان انظم شيئاً يليق . فصاحت فيرا : « ما بالكم جميعا قـد اصبتم بالعقم . ان الشبـان في السابق كانوا امهر منكم في صياغـة عبـارات الغزل وصبهـا في اذان الفتيات ان الروح النقدية قد سادت في كل شيء فأف لهذا العالم ! ..

وقال شوقي يرد على فيرا بلهجة جادة : « ولكنه من المؤلم حقا ان يكون الانسان طموحا وواعيا لعجزه في ان واحد » .

« وقالت فيرا بلهجة مزجت الجد فيها بالمرح : اذن فانت لن تكتب رواية ساحرة كرواية الامير الصغير ؟ورد شوقي متسائلا : « وهل تعجبك هذه الرواية » ؟ وقالت فيرا : « ان ليليان تهيم اعجابا بها وهي التي نصحتني بقراءتها وعاد شوقي يسألني : ان كانت رواية سانت اكزوبرى قد اعجبتني حقا . وقلت « طبعا انها جميلة جدا » . ورد شوقي قائلا : انني استطيع ان اكتب رواية مثلها خلال اسبوع واحد ، ورددت ضاحكة : اذن فأنت عبقري وستستطيع ان تحقق احلام فيرا فقال : كلا اني احب ان اكتب ولكني اعرف اني لن استطيع ان اكتب شيء ذا قيمة ؛ورددت ضاحكة : ولكنك تقول انك قادر على كتابة رواية بجمال « الامير الصغير » خلال اسبوع ، ولكن الامير الصغير رواية سهلة من النوع الخفيف . ان في سهولتها شاعرية ساحرة تبلغ ابعاداً سحيقة من العمق .

ولم يقتنع شوقي بقولي فعاجلته فيرا قائلة وكأنها تتعمد ان تضع حداً لمناقشتنا :

– حسناً ، حسناً اكتب لي رواية بجمال الامير الصغير وسأكافؤك بقبلة .

وحينما لمست فيرا عدم حماس شوقي لما قالته هتفت بي قائلة «أرأيت هذا الجاحد الذي يقابل حبي ببرود انه طبيعة ميتة . » ورددت مبتسمة : « في هذا العالم لا يحب المرء الا من لا يحبه » .

ورد زياد على الفور : وهذا هو الاذلال الرابع وعادت

وعادت فيرا تصيح بشوقي بلهجة خالطها المرح : ولكـن تكلم قل شيئاً ايتها الطبيعة الميتة .ثم بلهجة رقيقة وان ظل المرح يمازجها : احقاً انت لا تحبني » ؟ ورد شوقي مازحاً أيضاً : ان كل من رآك وقع في غرامك» ؟ وسارعت فيرا الى الرد : ولكني لا أريد حب كل الناس بـل حبك انت وحدك.

ولكن مـا دام كل الناس يحبونك فماذا تريدين من حب بائس مثلي .

ايهـا المراوغ . لا بد انك حبست نفسك في غرفة منعزلة مثل كانط ثم قررت ببرود ان الحب يقلق راحتك .

ولم نتمالك انا وزياد وشوقي ذاته انفسنا من الضحك من اعماق قلوبنا ». وسرت فيرا لنجاحها فعادت تطارد شوقي بأسئلتها: ولكن كيف ؟ كيف يمكن ان تترك عاطفتي المتقدة باردة كالعقل المحض ؟ ثم تطلعت الى زياد وسألته : كيف افعـــل لألهب مشاعره ؟ » ورد زياد : ولكن الحكمة كانت دائماً في اخماد العواطف الملتهبـة : آه الفلاسفة اصدقاء الحكمة :

Votre premier maitre ne savait pas
Faire l'amour â sa femme — C'est pour quoi —
il est devenu philosophe .

ان معلمكم الاول لم يكن يعرف كيف يحب امرأته لذا أصبح فيلسوفاً . ورد شوقي قائلاً ؟ ولكنك تعلمين ان امرأة سقراط هي التي قلبت حياته الى جحيم » . وردت فيرا سريعـاً : ليس

صحيحاً . ان هذا ما يقوله الفلاسفة . انني متأكدة انـــه هو الذي حول حياة امرأته الى جحيم بنظرياته الباردة ؛ ثم التفتت الي وبادرتني بالسؤال : ليليان ألم يكن هناك فيلسوف مجّـــد العاطفة ؟ وقبل ان اجيبها قالت : آه . لقد فهمت الآ ن لماذا لم تكن هناك اية امرأة فيلسوفة . ثم عادت لتسألني : اليس من الخطأ تخصصنا في الفلسفة ؟ ليتـني اخترت الادب لكنت اشعر الآن بارتياح . وتنهدت قليلاً لتستأنف اقوالها : شوقي سيكون فيلسوفاً كبيراً في المستقبل يرتدي نظارتين سميكتين ويـــترك زوجته تذهب وحدها الى الحفلات لكي يتسنى له ان يقرأ كل ما كتبه كبار الفلاسفة من افلاطون الى مارتن بوبير .

ومدت يدها تسأل شوقي ان يناولها الكتاب الذي يحمله في يده، وحين تناولته ورأت انه كتاب «الانا والانت» لمارتن بوبير، علت الدهشة وجهها وصاحت فرحة : لقد بدأ شوقي منذ الآ ن يصبح فيلسوفاً ولكنه يطالع كبار الفلاسفة بالعكس بادئاً ببوبير ومنتهياً بأفلاطون.

وغرقنا جميعاً بطوفان من الضحك . وعادت فيرا تسأل : بوبير مـا زال على قيد الحياة اليس كذلك ؟ ورد زياد مسرعاً: أجل وهو يفتخر بانه من اكبر دعاة الصهيونيـة وقاطعته فيرا متسائلة: ولكن كيف اذن تسمح الرقابة بدخول كتبه الى لبنان؟

ورد شوقي قائلا : ولكن البيروقراطيين أغبياء دوماً . في حين تابع زياد قائـلا : وهو يعمـــل حاليـاً استاذاً في الجامعة العبرية في القدس ، وعلق شوقي متهكـــاً : ان

وجوده هناك ليس كسباً لهم ،ورددت عليه متسائلة: الاتعجبك كتاباته ؟ لقد اوصانا المسيو دوبون بمطالعة كتابه «الانا والانت» توصية خـــاصة . ورد شوقي :« ان ما يكتبه بوبـــير قد يكون شعراً او أي شيء آخر .. ولكنه ليس فلسفة على كل حال . ثم توجه الي بالسؤال التالي : هل قرأت هذا الكتاب ؟

– أجل وقد اعجبني جداً في بعض مقاطعه وخصوصاً تحليـــله للصلة بين الانا والانت وقوله انها مباشرة وانه بين الاناوالانت لا يقف أي حائل من المفاهيم أو أي جهد للخيال وان الذاكرة نفسها تتبدل حين تنتقل فجأة من الجزئيات الى الكل وكذلك فليس هناك بين الانا والانت أي هدف أو قصد أو شهوة فان كل وسيلة حائل ومانع وحين تزول جميع الوسائل حينئذ وحينئذ فقط يحدث اللقاء وتصبح الانت حضوراً ؛ ورد شوقي على قولي: ولكنه في الواقع يردد بهذا بعض اقوال ماكس شيـــلر حول التعاطف بصيغة أخرى أقل عمقاً واكثر انفلاتاً . وقال زياد : آه .. ماكس شيلر انه الآخر يهودي ولكني لا اعتقد انه كان صهيونياً لانه ترك اليهودية وتنصر ثم عاد وارتـد عن المسيحية واصبح يؤمن بمبدأ الحلول. لقد كان طبيعة بركانية لا يستطيع ان يثبت على حال . وسألت انا زياداً وما رأيك ببوبير ؟ فرد عليّ سريعاً: آه .. هذا الصهيوني الذي يتحدث عن لقاء الآخرين ومحبتهم كأنت لاكهو أو هذا . هل طبق كتاباته علينا حين

طردتنا الصهيونية وهو أحد دعاتها لا كهو بل كالكلاب ؟ ان ما يقوله الشخصانيون عن التعاطف ومعرفة الآخرين رائع جـــداً ولكن الواقع يكذبهم دوماً فليست هناك طريقة لمعرفة الآخرين الا العنف انهم كرجال الدين الذين لا ينفكون يتحدثون عن طيبة الله ومحبته لهذا العالم وفي حياتنا اليومية الف مأساة ومأساة ؟ وصمتنا جميعاً . كان لكلمات زياد وقع مفاجيء غريب . ولكنه لم يلبث ان تابع هجومه : اي نفع للفلسفة حين تفقد صلتها بالواقع ؟ انهم يعلموننا هنا اشياء تكذبها الحياة اليومية . ورددت انا عليه ولكنك تنسى ان غاية الفلسفة ان تحدد مـــا يجب ان يكون Le devoir — être لا ما هو كائن L'être

ولم يمهلني بل رد سريعاً : ان هذا هدف الاخلاق لا الفلسفة . ان الفلسفة الحقيقية لا تهتم بالأخلاق ، وعدت اسأله وكيف ذلك ؟

– ان الفلسفة تهتم بالحقيقة المطلقة وقد تكون الحقيقـــة خارج جميع المثل العليا . ان حقيقة بدون اخلاق تصبـــح وحشاً لا فلسفة ، ان الذين يتأملون المثل العليا ينسون عادة الواقع فيصيبهم ما أصاب طاليس ، وهنا سألته فيرا التي كانت تتابع النقاش برغبة : وماذا أصاب طاليس ؟ وقع في البئر وهـــو يتأمل نجوم السماء ، وهنا قال شوقي : بـــل يصيبهم ما أصاب بيركلي الذي لم يكن يؤمن بحقيقة وجود الاجسام المادية فخرج يوماً للصيد مع خادمه واثناء ذلك هاجمها ذئب شرس فهرب

بير كلي فسخر منه خادمه وقال له : لماذا تهرب من شيء غير موجود فليس الذئب الا مظهراً والموجود هو فكرة الذئب لا الذئب، ورددت انا قائلة : ولكنك تعرف أن هذه ليست إلا تشنيعة اطلقت ضد بير كلي ولا يمكن ان تكون صحيحة وسألني شوقي : ولماذا ؟ « لانها تعني ان الخادم كان يعرف فلسفة سيده معرفة جيدة ونحن طلاب ليسانس وما زلنا بعيدين عن الالمام بها . وكأنما فاجأه تعليقي فقال : أجل وكيف لم انتبه الى ذلك وكأنما ملت فيرا حديثنا وأرادت أن تغير الحديث قليلاً فسألتني : هل اعجبتك المحاضرة العامة التي القاها السيد كرام امس الاول ماذا كان موضوعها ؟ انني انسى العناوين دائماً ورددت : هذا يعني أن المحاضرة لم تعجبك لذا نسيت اسمها سريعاً. وردت فيرا علي ضاحكة : Cesse de psychanalyser

كفاك تحليلاً نفسياً وقولي لي العنوان أم تراك نسيت انت أيضاً، ورد شوقي : كلا هذا لا يمكن ان يحدث فهي من المعجبات بكرام والا كان فرويد مخطئاً ثم التفت الى فيرا وقال : كانت المحاضرة عن الانسان العربي والثورة هل اعجبتك، فردت فيرا على عادتها مازجة الجد بالمرح. ان حديثه عن وحدة حضارة بلدان حوض البحر المتوسط تعجبني قليلا وقد ترضي بعض غروري ولكن المؤسف حقاً ان الفنانين الذين احبهم لم يكونوا متوسطيين وهنا سألها شوقي ومن تحبين من الفنانين؟ فأجابت : قائلة : آه.. انني احب شوبرت الذي اختارته الآلهة الى جوارها صغيراً .

فموسيقاه تهزني بعذوبتها وحزنها ، ورد شوقي ولكنه لم يكن جميلاً بل كان قصيراً سميناً يضع نظارتين سميكتين على عينيه حتى لقب بالفطر الصغير . وضحكت وانا أقول : ولكن ليس من الضروري أن يكون الموسيقي جميلاً لتكون موسيقاه جميلة » في حين علقت فيرا قائلة : ان بعض مؤرخي سيرة حياته يدعون بانه كان يحتفظ بنظارتيه على عينيه اثناء نومه كيلا يضع بعض الوقت في البحث عنهما اذا جاءته فكرة معينة اثناء الليل وضحكنا جميعاً في حين غيرت فيرا لهجتها وهي تقول : من المؤسف حقاً ان سيمفونيته الناقصة التي ادخلت الفرح في حزنها العميق الى قلوب الملايين لم تعزف للمرة الاولى الا بعد موت مؤلفها بسبع وثلاثين سنة وهكذا فانه لم يسمعها تعزف الا بوتريات خياله السحرية ، وهنا قلت انا : ولكن شوبرت ليس الموسيقي الوحيد الذي لم يسمع موسيقاه في حياته فبيتهوفن ايضاً لم يسمع معظم الحانه تعزف الا باوتار خياله السحرية بعد ان أصيب بالصمم التام حتى أن رومان رولان قال رداً على الذين عابوا على بيتهوفن تقليدصوت العندليب وطائر الكوكو والسلوى في سيمفونيته الريفية : انهم قد نسوا أن بيتهوفن انما فعل ذلك ليسمع صوت الطيور في خياله بعد أن حرم منه في واقعه ، ثم توجهت بالسؤال نحو فيرا : هل تحبين بتهوفن فأجابت كما كان يحبه شوبرت فلقد بلغ من تعلقه به انه قال بعد موت بتهوفن بسنة واحدة حين كان يهذي وقد أخذته الحمى : لا تهيلوا على

التراب لان بتهوفن غير مقبور هنا. بتهوفن كشكسبير ، ليس من لا يحبه ، وهنا قال زياد : لقـــد قرأت أخيراً لمؤرخ موسيقي فرنسي مقالاً يبدي فيه دهشته لمحبة الناس جميعاً على اختلاف اذواقهم وبيئاتهم لبتهوفن ثم يؤكد ان هناك بين الموسيقيين من هم أحق بالاعجاب والتقدير منه فموسيقاه ليست اصلية جداً بل انه استفاد من ابحاث مدرسة مانهايم واكتشافاتها كما وان بتهوفن يدين بدكتاتوريته الموسيقية لا الى عظمة موسيقاه بل الى تمجيد الكتاب له . وهنا قاطعته قائلة: انه ربما يفكر بما كتبه رومان رولان عنه حين قال : أي غزو يعادل هذا الغزو أو أية معركة من معارك نابليون بل أي شمس لإسترلتسز يمكنها أن تبلغ ذرى مجد هذا المجهود الذي يفوق طاقة البشر ، هذا النصر الذي لم تحرز الروح نصراً أعظم منه . إنسان يائس فقير عليل متوحد الألم المتجسد الذي رفض العالم أن يهبه الفرح ،فخلـــق الفرح ليهبه للعالم .ولكنه على كل حال غير محق فكثير من الموسيقيين استفادوا من اكتشافات مدرسة مانهايم ولكن ليس هناك سوى بيتهوفن واحد . وتطلع إلي زياد وهو يبدي إعجابه وقـال لي أنت تحفظين عن ظهر قلب ما كتبه رولان عن بيتهوفن حديثاً وانا أحبه كثيراً وليقل صاحبك ما يشاء ولكني أحب كذلك موسيقى باخ فحين أصغي اليها تنتابني مشاعر غريبة وأشعر بورع صوفي وإني على أبواب الأبدية أقرع باب الفردوس في حضـــرة الذات الإلهية فلا أتمالك نفسي من القول وانا مأخوذة : ها أنذا

أمة يا الهي . وانت ما رأيك في الموسيقى ؟ كان زياد ينظر إليّ بشغف وغبطة ففوجيء بسوءالي الذي قطع عليه فرحه فرد علي بعد فتره : ان الموسيقى أحب الفنون الى قلبي فهي تمثل عطشاً أبدياً كلما ارتوى قليلاً زاد ظمأً ، والسمفونيا رحلة رائعة في عالم ساحر مجهول . واذا كان هناك فردوس فإني اتخيله مكاناً جميلاً تعزف فيه الموسيقى باستمرار ولذا فـإن جميع الموسيقيين سيكونون في الفردوس لان الله سيكون بحاجة اليهم . . فالموسيقى هي شوقنا الدائم الى الفردوس وانا حين اسمع بولونيات شوبان اذوب حنيناً الى وطني لا الى فلسطين التي حرمت منها كما حرم من بولونيا فحسب بل الى الوطن الأكبر الذي نذوب جميعاً شوقاً اليه ، الوطن الأبدي حيث يجد ابن الانسان اين يضع رأسه وصمت قليلاً قبل أن يستأنف حديثه : اعتقد أن صاحبي الفرنسي كما تسمينه لم يكن يحب بتهوفن لأنه كان فرنسياً صميماً أي انه كان ديكارتي النزعة وقد أخافته صرخات الانفعال والعاطفة العاصفة المنتشرة في جميع أعمال الموسيقي الالماني . ورددت انا : الواقع ان معظم الناس يحبون بتهوفن لصرخات الانفعال هذه ولا يقدرون الحركات البطيئة في موسيقاه حق قدرها وأجاب زياد : اتريدين ان تقولي انهم كالانجليز . واستفسرت انا : ماذا تقصد ؟ فأجاب : حينما كان هايدن في انجلترا لاحظ بان الانجليز كانوا شغوفين جداً بموسيقاه الاوركسترالية حينما تكون الحركة سريعة نشيطة في حين انهم يغطون في النوم

حـــين تكون الحركة بطيئة (اندنتي أو اداجو) بالرغم من كل الجمال والسحر والعذوبة التي كان يودعها في حركاته البطيئة ولذا فقد كتب في احدى سيمفونياته حركة اندنتي بطيئة ناعمة هادئة مليئة بالرقة والعذوبة وجعل فيهــا جميع آلات الاوركسترا تخفت بالتدريج وحينما تبلغ الحركة ذروة الهدوء والنعومة يرتفع صوت جميع الآلات فجأة بعنف ويقرع الطبل وبذلك يستيقظ الحضور الانجليز بتأثير الضجة المفاجئة بعد أن اشرفوا على النوم » وضحكت من اعماق قلبي وانا أرد على زياد : انك تكره الانجليز لذا تبحث عن نقائصهم باستمرار ، ورد زياد : ولكنها الحقيقة ، لقد أراد هايدن السخرية منهم في سيمفونيته المفاجأة ولكن القليلين يدركون روح هايدن المتهكمة .

وعادت فيرا تقول فلنترك هايدن يسخر من الانكلـــيز ولنسمع رأي شوقي بالاستاذ كرام، وكأن ما كان شوقي ينتظر مثل هذا السؤال فرد على الفور : الواقع أن جميع اساتذتنـــا يستمدون كل كفائتهم من جهل تلامذتهم ؛ فضحكنا جميعـــاً لملاحظة شوقي البارعة في حين علقت فيرا قائلة يبدو أن روح هايدن قد حلت به ،وعاد شوقي يقول بهدوء :ان الاستاذ كرام يبدو مضحكاً في حديثه عن المتوسطية وهنا انبرى زياد يقول بحماس : ان الاستاذ كرام ينادي بالمتوسطية ويقول بأن البحر المتوسط هو الذي أنجب الحضارات الانسانية الكبرى لا لأنــه

مقتنع بصحة ما ذهب اليه بل لأنه يعتقد أنه بذلك يصبح اوروبياً ينتمي هو والفرنسيون إلى حضارة واحدة . ولكن فليتكلم لغتهم ويدخن الغليون مثلهم وليقلدهم في اكلهم وشربهم ولهجتهم فلن يصبح واحداً منهم ، وانبريت اقول له : انك لا تنفك تهاجمه دوماً » ورد : اني لأعجب لواحد مثله يكره كل ما هو عربي وربما كره نفسه لأنه عربي يتحدث عن الانسان العربي ماذا يفهم هو عن الإنسان العربي ؟ وعدت أرد عليه بهدوء انك تبالغ جداً ،اتنسى انه قال في مرة سابقة انه كان في السوربون حتى القرن السابع عشر تياران فلسفيان يتصارعان تيار ابن سينا وتيار ابن رشد ؟ ان من يقول هذا لا ينطبق عليه ما قلته ورد علي زياد بعنف : هو ماذا يعرف عن العرب انه يخبىء جهله بقوله بأنه كان في السوربون تياران فلسفيان ابن سينا وتيار ابن رشد ولكنه لا يعرف شيئاً عن الشعب العربي ومشاعره انه يكرهه لأنه ، كما قال شاتوف ، لا يشبه الشعب الفرنسي ولا هو بمستواه .

انه ينادي باستبدال الأحرف العربية بأحرف لاتينية لا لأن ذلك يسهل معرفتها كما يدعي بل لأنه يكرهها أنه يريد أن تكون الثورة العربية تفرنس هذا الشعب والا كانت لا معنى لها. وقلت لزياد محاولة تخفيف حدة اندفاعه : ليس ما تقوله صحيحاً ، وكأنما فجرت كلماتي افكاراً دفينة في اعماقه فأسرع

يقول لي : انك تسرين بما يقوله لأنه يملق مشاعرك الخاصة فهـو مثلك لايعرف العرب الا عن طريق مطالعاته الفرنسية، وحاولت ان احتج ولكن كلماتي ضاعت بين كلماته : لقد بدأ محاضرته الأخيرة بتأكيده بان القومية العربية هي نكران لقيم الغرب وهذا ليس فقط غير صحيح بل انه جهل مطبق . فهو يخلط بين شيئين لاسبيل الى الخلط بينهما انه يخلط بين عداء العرب السياسي للاستعمار الغربي ليخلص منه الى القول بان العرب ضد جميع القيم الغربية وهو يعلم ان هذه القيم ثقافية حضارية . وعلقت فيرا قائلة : ولكن المشكلة أن لكل حضارة قيمها ، واسرع زياد بالرد : انني اؤمن بوجود حضارة انسانية واحدة . وعادت فيرا تسأل : وكيف ذلك ؟ . ان الحضارة الغربية الحاضرة هي نفس الحضارة التي حمل لواءها العرب في القرون الوسطى . هناك مشعل واحد للحضارة تتناقله الأجيال والأمم . ردت فيرا مازحة : ولكن انت الا تحلم بان تعيد مجد التراث العربي كما يحلم كل الثوريين العرب . ورد زياد بهدوء بدا وكأنه الم : ليس بعث التراث العربي هو ما يهمني فلنترك الأموات في راحتهم فهم قد أدوا دورهم ، ان ما يحز في نفسي حقاً ان اشعر اننا نعيش اليوم على هامش الحياة وما احلم به هو ان نضيء شمعة جديدة في مشعل الحضارة . ولكن الكثيرين يخالفونك الرأي والثورة العربية في نظرهم بعث القيم العربية . ان من لم يستطع ان يصنع حاضراً مشرقاً يتجه نحو الماضي ليبعث الحياة في الهياكل العظمية

وساعة تمد الحضارة بعطاء جديدلن نعود نفاخر الغرب بابن سينا وابن رشـــد ، وسألته انا : ولكن الا تفتخر بهما انت . ولكنها بحاجة الى دم جديد اني لا افهمك تماماً وهنـــا صاح بي : السطحية لقد اصبحت في دمائنا ، طعامنا اليومي ، كل لحن جميل في اغنيــة مقتبس بلا حيــاء من موسيقي غربي ، كل روائي عندنا تلميذ صغير لزولا أو موباسان أو غيرهمـــا فلنفتح النوافذ الجديدة فاننا نختنق، وصمت قليلاً ثم تطلع الى بعيدوقال وكأنه يستنشق المستقبل في الافق البعيد :ان الموسيقي العربي لم يوجد بعد ، ان ابن رشد الجديد لم يخلق بعد . والف ليلة وليلة الجديدة لم تكتب بعد والخوارزمي الجديد لم يظهر بعد وقريباً سينجلي المخاض العسير عن فجر مشرق جديد وساعتها لن نعود نصرخ فليسقط الاستعمار. إن كلمة فليسقط تعني اننا ضائعون تائهون مـا زلنا نبحث عن ذاتنا . وصمت زياد وصمتنـا جميعاً وكأن مـا قاله لتوه كان مفاجأة مذهلة .

وكأنما شعرت فيرا بالصمت يثقل على كاهلهـا فتطلعت نحو زياد وقالت وهي تبتسم : ستكون انت ابن رشد الجديد فسارع زياد الى الرد مستغرباً : انا ؟ اني لا ادري ماذا أريد مـن الحياة ثم اني كرهت كثيراً في حياتي أقصد ان هدوء الفلاسفـة ينقصني . وهنـا انبرى شوقي للقول : انت آخر من سيمثـل الفلسفة لانها ستنتهي بعد ذلك الى ما انتهى اليه التنجيـم .

ووجدني احتج قائلة : ان الفلسفة ستبقى ما دام هناك انسان يتساءل من اين أتى والى اين يمضي . ورد شوقي ببرود :ولكن العلم هو الذي سيحل محلها كما حل الفلك مكان التنجيم . ورددت محتجة من جديد : لست اعتقد ذلك فالعلم يحل الكثير من المشاكل،يقدم لنا كل وسائل الراحة والوقاية ولكنه لا يخبرنا اذا كانت الحياة تستحق أن نحياها ، وعاد شوقي يقول متهكماً :على الفلاسفة أن يذهبوا على كباريهات العالم اذا شاؤوا أن يعطوا شيئاً جديداً وضحكت فيرا وهي ترد عليه : وماذا تعلمت انت هناك ،وكأن شوقي لم يأبه لتعليقها وقال : الفلسفة ترف للروح لا تزدهر الا بالمجتمع الذي يستطيع ان يضيع بعض وقته في اللهو . انها في نظري كالمسرح والشعر لا اثر لها في حياة المجتمع وسأتخلى عنها يوماً وعاجلته فيرا برد لاذع : « وهل دخلتها يوماً اولاً ؟ وهنا تدخل زياد قائلاً . ولكن الفلسفة في الواقع لا تحل المشاكل الفلسفية الأزلية بل تزيدها تعقيداً فأجابته : ولكنك تعلم ان المهم في الفلسفة الاسئلة المطروحة لا الأجوبة المعطاة ورد زياد:ومن هنا كانت المشكلة اننا نأتي الى هنا لنعرف حل بعض المشاكل العويصة فنخرج وقد ازدادت المشاكل المطروحة وتعقدت ، وفجأة غير زياد لهجته وهو يقول : ومن يستطيع ان يؤكد انه يعرف الغاية من الوجود ؟ من يستطيع ان يواجه الموت ببرود لانه موقن منخلود نفسه أيمكن لسفينة اهواء هذا القلب ان ترسو على شاطىء الطمأنينة وقلب الانسان بحر عاصف لا

شواطىء له ! ؟ ايها القلب البشري ايها العضلة الصغيرة تمزقك العاصفة ،كل يوم فاذا انت براكين هادرة تحرق لظاها الابرياء ، فيك من قوة الدمار ما ليس في ديناميت العالم . كل قنبلة صنعها انسان شظية من آبار الحقد الفائرة في اعماقك. اية بوصلة تستطيع ان تهدي في ظلامك الأبدي ؟ افلاطون ؟ ارسطو ، ديكارت ، كانط ،هيجل ،برجسون ، اصوات ضائعة في بحر الاهواء الهادرة ورضيع في مجاهل غابات القلب اللا محدودة .

وصمت زياد قليلاً وكأنه يمهد لما سيقوله فأجال بصره قليلاً بيننا وفجأة اكتسى وجهه بتعبير صارم وهو يقول : في هذا القلب الصغير بحار من الكراهية في الكراهية مبدأ عظيم كما في الحب ان تكره هو ان تقول لا للضعف لا للبؤس لا للظلم لا للقدر . ان تكره هو ان تصرخ في وجه الآلهة اني اتحدى جبروتكم ، ان تكره هو ان تشعر انك ما زلت انساناً ، ان تكره وأن تشعر بوجودك الانساني هو أن تأخذ على عاتقك تحدي الوضع البشري ، الكراهية هي قدر الانسان،الكره هو طريقة أخرى للحب . وصمت زياد قليلاً كأنه يسترجع انفاسه ثم قال متابعاً دون ان يعبأ بنا وكأنه يخاطب نفسه : سيأتي يوم وهو ليس ببعيد أترك فيه الفلسفة وجميع مشاغلي واصرخ في هذا الشعب في هذه الآلاف البائسة ايها الضائعون لقد وجدتم لكم هدفاً تعيشون من اجله ... تحطيم اسرائيل هو ذا هدف ولا

اسمي . . . وسيستيقظ المشردون ويحطمون قيود بؤسهم سيحرقون خيام الذل ويلقون برغيف الاحسان تحت اقدامهم وساعتئـذ سيشعرون انهم يكبرون ويكبرون وانهم اعظم من المصيبة واقوى من الضياع وستمدهم الكراهية بجبروتها فيصرخون في وجـــه الانسانية جمعاء : ايها البشر احبوا اسرائيل ساعدوها اعطفوا على من جعل منا قطيعاً من اللاجئين اصنعوا الخير معها اما نحن فنحقد لاننا اقوياء لا نرضى المسكنة .. سنحطم اسرائيل تحت أقدامنا لانكم تحبونها .. في اعماقنا شر اسمى من الخير .

وصمت زياد قليلاً وكأنه سكون مثقل ولكنه ما لبث ان نظر الي وقال وكأنه يخاطب المجهول : ليليان وجدت الهـــا الطيب في طفرة حب اما انا فاني ادفن جزءاً من الهي كل يوم تحت انقاض العنف لقد ظللت ابحث عنه كل يوم وكل يوم بدل المحبة كنت اتنفس الكراهية واتطلع الى العلياء أملاً ان تهب رياح جديدة ولكن كل نسيم جديد كان براكين جديدة من الحقد. . . . لا ، لا خلاص ، لقد حكمت الآلهة علينا بالحقد مدى الحياة . . ولقد علقت كراهيتنا آخر حب على الصليب وانطلقت تهلـل منتصرة. الحب لا يستطيع في هذا العالم الا ان يساق الى الصلب كالحمل اما العنف ففعال ، العنف كالدواء الناجح طعمه شديـــد المرارة ولكن يؤدي الى الشفاء . ان عنف قسطنطين هو الذي أخرج حب المسيحيين من تحت الكهوف والأقبية الى انوار الحرية انني حين افكر في مصائب هذا العالم يبدو لي احياناً ان الله لا

يدري ماذا يفعل وان الالهة بحاجة الى غفراننـــا ، ورددت انا قائلة : من الله لا يأتينا الا الخير ، ورد وهو شارد : وهـــذه المحيطات من الكراهية في قلوبنا ؟ ورددت : تغمرها محيطات الحب الكبير ، ولكن الله هو المسؤول عن كل ما في قلوبنــا من حقد الله .محبة ونحن وحدنا مسؤولون عن الشر الذي ننشره حولنا .

ـ احقاً ان الله بريء يا ليليان ؟

ـ براءة المحبة .

ـ ولكنه لم يخلقنا محبة مثله لقد خلقنا مزيجاً من المحبـــة والكراهية فهل نلام ان كرهنا كبشر ؟

ـ يجب مقابلة الكراهية بالمحبة .

ـ آه ـ .. سبينوزا ... سبينوزا كان يهودياً ومع ذلك فها هو شعبه آخر من يحترم آراءه فلماذا احترمها انا وصمت قليلاً ثم قال بتأن ووقار : ان من عرف الجوع والتشريد ورأى دماء اعز الناس اليه مسفوكة لا يجف حقد قلبه الا حين يصبح هـذا القلب طعاماً للدود .

١٠

كنا جماعة من الزملاء نجلس في حديقة المدرسة وقد اطل الربيع ناعساً حالماً كأنما يتعمد ان ينشر جماله الأخاد من حولنا لينسينا قلق افتراق فترة الامتحانات المرهقة وكان الحديث يتشعب بلا رابط ثم قالت فيرا على غير توقع: ان حديث الزملاء يروق لي اكثر من حديث الزميلات لاني الاحظ أن الشبان أعمق من الشابات. فانحنى شوقي أمامها وقال : « باسم الزملاء العميقين اسمحي لي أن اتقدم لك بالشكر العميق . » فحدجته فيرا بطرف عينيها وردت عليه: حينما اسمعك تتكلم أعود وأغير رأيي «وضج الجميع بالضحك وبعد فترة قصيرة قال شوقي اننا نحرق شبابنا هنا في كلية الاداب ولا ندري الى أي مصير سنخرج وهنا رد عليه احد الزملاء فقال : الواقع ان كل الذين في عمرنا حتى وان

كانوا طلاباً يفكرون بالمال » ثم اردف بعد ذلك » الا الفتيات .
« وهنا رد عليه زياد قائلاً « انهن لا يبحثن عن المال بل عن واحد معـه مال » فضحكت فيرا وقالت : هاكم شيئاً عميقاً» .

وعاد زياد يقول : « ان من كان متعطشاً لجمع المـال عليه الا يقرب الفلسفة وأما من كان به عطش ابدي الى المعرفـة ففي الفلسفة ضالته » وقالت فيرا تسائله: « وهل تتعارض الفلسفة مع المال ؟ » ورد زياد : « بل ربما كانت الفلسفة فن العيش بسعادة بقليل من المال » وردت فيرا مازحة في جدهـا : ولكني لا أتصور سعادة بغير مال وفير » ورد زياد من جديد : في الحكمة غنى اين منه دولارات اميريكا » وردت فيرا سريعاً : ولكني أفضل دولارات امريكا على تقشف الفلاسفة . هل الحيـاة التي عاشها سبينوزا حياة تطاق؟اني لا افهم لماذا رفض جميع المناصب التي عرضت عليه ليعيش في الحرمان والفقر » . ورد زياد قائلاً: ولكن الحكمة كانت دائماً في قتل الرغبات لا في ارضائها فلقـد علمنا حكماء اليونان بان الرغبة اناء بلا قعر لا يمتلىء ابـداً ثم لا تنسي ان سبينوزا كان به عطف غريب للامتناهي لذا لم يكن يشعر برغباته المتناهية ! انسيت ان سقراط رفـض الهروب من السجن لأن ما كان يهمه هو خلاص نفسه ؟ . وردت فـيرا : ان هؤلاء الفلاسفة الذين في سبيل خلاص نفوسهم يحرقون اجسادهم وكأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بارواحهم واجسادهم في آن واحد» ورد زياد : « ولكن البحث عن الحقيقة اعظم كنز في الحياة. امـا كيف يعيش الانسان بعد ذلك فهذا أمر ثانوي . وسارعت فيرا

قائلة : يبدو لي انك لا تؤمن بما تقول اننا لا نستطيع ان نصرف حياتنا كلها في الدرس . أم نراك ستكون سبينوزا الجديد ؟

وعاد زياد يقول : « ليس المهم أن نصرف حياتنا في الدرس المهم ان نصل الى معرفة انفسنا والا نمتهن الا ما يتمشى مع طبيعتنا . اني لافضل الحرمان والجوع مع المعرفة على ان اشغل وظيفة تافهة لا لشيء الا لتحصيل المال » وتدخلت انا بالمناقشة الدائرة بين زياد وفيرا وقلت : « الشيء المثالي ان نشغل شيئاً كرسنا حياتنا لدراسته ، ولكننا اذا لم نجد ذلك فعلينا ان نقبل بالفرص المعروضة امامنا. ان العباقرة وحدهم من امثال كانط يعتزلون العالم للكتابة ، انني احب الفلاسفة حباً جماً وحين اقرأ لهم تغمرني الغبطة لعمق تجربتهم الانسانية واتمنى لو كنت استطيع ان اكتب بعمق ما يكتبون ولكن ذلك لا يجعلني اتوهم اني قادرة على ذلك حتى وان قضيت كل حياتي في الدرس . ماذا تريد اننا نحن المخلوقات البشرية العادية علينا ان نفكر بكسب عيشنا وبتحسين وضعنا وطموحنا لا يتعدى ادخال بعض الرفاهية على حياتنا اليومية التافهة » نطقت بالجملة الأخيرة وانا ابتسم لزياد وكأني أقول له اني لا احاول ان احرجك ولكن رده ما لبث أن جاءني سريعاً : يعجبني تواضعك جداً. . ولكن اسمحي لي ان اقول لك ان فضيلة التواضع ليست احدى الفضائل التي اتحلى بها. إن كل واحد منا مهما كان تافهاً يشعر بحاجته لمعرفة نفسه دون

ان يكون عبقرياً أو فيلسوفاً كبيراً ككانط . » وهنا لم تتمالك فيرا نفسها من التدخل من جديد قائلة : « ان الفلاسفة يعتزلون الحياة لأنهم لا يعرفون كيف يعيشونها ببساطة » واسرع زياد بالرد : « بل لأنهم يعيشونها بعمق »

١١

في صباح اليوم التالي التقى بي زياد على انفراد في حديقة المدرسة وجلس الى جانبي ولم يلبث ان تطلع الي ملياً كأنه يحاول ان يستكشف افكاري ثم قال لي: انهم في درس الأخلاق يعلموننا ما يجب ان يكون لا ما هو كائن وانا أرى فيك ما يجب ان أكون لا ما انا هو . » وصمت قليلاً ينتظر اجابتي وحين الفاني التزم الصمت توجه الي بالسؤال التالي : الم تشكي يوماً بوجود الله ؟ وكان لسؤاله وقع مفاجىء علي فتطلعت اليه محاولة ان اقرأ ما يجول في خاطره ثم اجبت : كلا اطلاقاً ولكن لماذا تطرح علي هذا السؤال الغريب؟«احقاً يبدو لك سؤالي غريباً .؟ »وتطلعت اليه من جديد وترددت قليلا قبل ان اقول له وانا احاول ان ابتسم : « ليس سؤالك وحده غريباً بل انك تبدو لي احياناً

غريباً جداً . » وتطلع الي وصمت قليلاً مفكراً في ما قلته لتوي ثم عاد يسألني وكأن جملتي الأخيرة له لا تعنيه بشيء : « هل انت متأكدة كل التأكد من وجوده ؟ الم يخامرك الشك ولو للحظة واحدة ؟ . « الانسان لا يشك بمن يحب ، ولو احببت الله لما شككت به . « من اعماقي احسدك واتمنى لو كنت مثلك ولكني لا استطيع فانا حبيبي قد غرر بي » . ولم افهم ما قصد اليه في جملته الأخيرة فتوجهت اليه بالسؤال التالي : وهل انت متأكد من عدم وجوده ؟ .

– ليتني كنت كذلك اذن لما عذبني طوال حياتي » .وصمت قليلاً قبل ان يستأنف كلامه : غداً ينطلق بسرعة النور ويمضي يبحث عن الله في شتى انحاء الكون ليبرهن للماديين خطأنظريتهم ولكنه يعود اخيراً وقد أصيب بخيبة أمل كما أصيب المعري حين ذهب يناديه فلم يسمع سوى الصمت الرهيب فقال جملته الشهيرة « لقد اسمعت لو ناديت حياً »

وصمت قليلا اتأمل ما فاه به لتوه قبل ان اجيبه : ولكنك تعلم أن الفضاء لامتناه وبالتالي لا يمكن لنا ان نجوبه بأكمله.

وعاد يحدق بي قليلا وهو يقول : على كل حال ستكون الأمور اسهل اذا لم تكن هناك حياة اخرى : كل منا تنتهي جميع مشاكله بموته في حين لو وجدت حياة أخرى فستكون هناك مشاكل كثيرة معقدة جديدة . هل سنعرف جميع الأسرار

والخفايا التي كنا نجهلها في هذا العالم ؟ هـــل سيعرف الباقون خطايانا ؟ وهل سيعرف كل واحد منا الآخر ؟ وهل سيعرف جميع سكان الفردوس بعضهم بعضاً؟ أم كل واحد منا سيضيع في خضم الملايين ؟ هل ستكون لكل منا شخصيته الذاتية؟

ـ اتفكر حقاً بمثل هذه المشاكل ؟

ـ وانت الا تفكرين بها ؟

ـ كلا . فليست هي الأساس .

ـ وما هو الأساس ؟

ـ الايمان بالله » وسكت قليلا قبل ان أتابع وكأني استحثه على المزيد من الحديث؟ « انني حقاً لأعجب كيف يمكن للانسان ان يفقد ايمانه بالله » وسارع زياد الى الاجابة : ـ حين يدرك ان هذا العالم كان يمكن أن يكون احسن مما هو عليه .

ـ ولكن أي تغيير بسيط في الحياة سيوءدي على تغيير كل شيء .

ـ آه .. يبدو انك توافقين ليبنز حين قال أن اختيار أي أمر بسيط معناه اختيار جميع الأمور وبالتالي فان الله اختار أحسن عالم ممكن ومع ذلك فمن الصعب أن نصدق ليبنز أن الله لم يكن يستطيع ان يخلق الانسان وفي جسمه مناعة طبيعية ضد جميع الميكروبات مثلا ، أو أن خلق انسان ذي مناعة طبيعية ضد الميكروبات سيوءدي الى تغيير كل نظام الكون .

ـ على أي حال لا يمكننا ان نتخذ من النقص الموجود في العالم دليلا على عدم وجود الله .

ـ على غيابه من عالمنا على الأقل » « ماذا تقصد بغيابه ؟ » « لو عشت بعض مصائب الناس أو لو تأملت انتصار الباطل كل يوم لأدركت ماذا أقصد » « أإلى هذا الحد تبدو لك الحيـــاة قاتمة ؟ « لو عشت الحياة التي عشتها لرأيت الدنيا كلها ظلام « ثم انتفض فجأة وصاح بي : ليليان اني اكره ذاتي لاني اكره ماضي . ان هذا الماضي يلاحقني باستمرار . كيف .. كيف يمكن للانسان ان يتخلص من ماض كريه ؟ اني اكره كل شيء حتى الحيـاة « وهنا توقف قليلا ثم قام ووقف في مواجهتي وامسك بكتفي وقال لي بلهجة غريبة وعيناه تشعان ببريق وضاء . لقـد قتلت اعز من احب فلم يبقَ لي سوى الحقد اجتره كل صباح ومساء . انا لست زياداً الذي اريده؟ زياد الذي اريده دفن هناك في حيفا قبل سنوات قتلته رصاصة خرقت جسد الحبيب وقتلت الهـــاً انتهى من قلبي . »

وبعد ان هدأ ترك كتفي وقال لي بهدوء ليليان اني اراني فيك لو لم يمت زياد لكنت اليوم مثلك » .

والواقع اني لم ادرِ كل ما كان يرمي اليه بتعابيره الغامضة غير اني حاولت ان اجد جملة مناسبة اذ الفيتني امـــام انسان جديد : أنت كتوم يا زياد لماذا لم تحدثني عن حياتك في فلسطين

لقد سألتك ذلك مراراً ولكنك لم تشأ ان تفتح لي قلبك ولم يجبني بل اكتفى بعبارة مقتضبة : « الى مرة اخرى » . ولكني عدت ألح عليه قائلة ان امامنا وقتاً كافيـاً اليوم وانا احب ان انسى الدرس قليلا لاستأنفه بنشاط فيما بعد. وعرض علي أن نمضي الى مقهى قريب نصرف فيه بعض الوقت فرحبت بالفكرة .

وسرعان ما وجدتني اجلس الى جانبه على طاولة واحدة في مكان هادىء .

القسم الثـــاني

- ١ -

ما ان انتهت الحرب العالمية الأخيرة حتى بدأ جو جديد من الأرهاب يجتاح فلسطين من اقصاها الى اقصاهـــا اذ بدأ اليهود الذين وفدوا الى البلاد من شتى اقطار المعمورة ابان فترة الانتداب البريطاني ينظمون اعمـــال العنف من قتل ونسف وتدمير ضد السلطات الحاكمة التي جمعت شملهم لتجعل من فلسطين وطناً قومياً لهم تنفيذاً لوعد بلفور الشهير وبدأت اسماء منظمات الهاجانا وشترن وارجون زفاي ليومي تتردد على كل لسان وبدا لفترة ان المعركة تدور بين الانجليز واليهود واننا نحن العرب لسنا سوى متفرجين ، فبعد ان كنا نقوم في فترة ما بين الحربين بالمظاهرات تلو المظاهرات والاضراب تلو الاضراب ضـــد السلطات البريطانية الحاكمة التي فتحت باب الهجرة لليهود على مصراعيه وبعدان تحول اضراب سنة ست وثلاثين١٩٣٦ الى ثورة شاملةمسلحة ضدالمستعمر اصبحنا سنةست واربعين١٩٤٦و كأننا

لسنا طرفاً في ما يدور في البلاد وبدا ان صديق الامس قد باتا عدوي اليوم . الا ان هذا المظهر لم يكن الا سطحياً وسرعان ما تعود المعركة الى حقيقتها فيصبح في طرف منها الحاكمون البريطانيون واليهود الذين تجمعوا من كل بقاع العالم واصبحوا يشكلون ثلث سكان البلاد بعد ان كانوا اقلية ضئيلة وفي الطرف الاخر شعب فلسطين الاعزل .

ما زلت اذكر السنة الاولى التي تلت الحرب الاخيرة كانت الدوريات المسلحة تجوب جميع شوارع حيفا باستمرار وكانت التحصينات الشديدة قد اقيمت امام دور الحكومة والمؤسسات الرسمية اذ كانت الشرائط الشائكة واكياس الرمل تعزلها عن المتطفلين ومع ذلك فقد نسفت منظمة الهاجانا في ليلة واحدة جميع الجسور التي تربط فلسطين ببقية البلاد العربية المجاورة ، وكذلك نسفت منظمة الارجون في ليلة اخرى جميع اجهزة الرادار التي تمتلكها السلطات الحاكمة مما يسر لعشرات السفن التي تحمل المهاجرين اليهود والذخائر ان تصل الى فلسطين بسلام وهو ما كانت تريده بريطانيا ، فكان تواطؤها لا يحتاج هذه المرة الى ذكاء لاكتشافه .

اما منظمة شترن فقد كلفت بمهمة اكبر فلقد كانت قيادة الجيش البريطاني في فلسطين تقيم في قسم من فندق الملك داود الضخم في القدس وكانت جميع احتياطات الأمن قد اتخذت حول الفندق إذ كانت الاسلاك الشائكة تحيط به من الخارج وكان

رجال الجيش المدججون بالرشاشات خلف اكياس الرمـــل يستعدون لكل طـــارىء والحراس يسدون جميع المنافذ المؤدية الى الفندق ويقفون امام كل ابوابه ويجوبون الردهات في الداخل .

ولقد كان من عادة اصحاب الفندق ان يبتاعوا الحليب من مورد عربي فكانت سيارة شحن صغيرة تقف كل صباح امـــام الفندق . وكان بعض العمال العرب ينزلون منها بعض براميل الحليب .

وافقنا ذات صباح على صوت المذيع يعلن نبأ نسف فندق الملك داود ومقتل العشرات من المدنيين العزل تحت انقاضه . واصيب الناس بذهول وقطعت محطـــة الاذاعـة جميع برامجهـــا الغنائية لتعلن الحداد واكتفت باذاعة الموسيقى والانبـاء .

وكان لهذا الخبر وقع مفاجىء في حينه ولكنه خف بعد ان تكررت اعمال النسف . ولقد اتضح فيما بعـــد ان افراد منظمة شترن قد اقاموا كميناً لسيارة شحن الحليب واعتقلوا العمال العرب منها ثم اجبروهم على تبادل الثياب معهم وانزلوا براميل الحليب ووضعوا مكانها براميل مليئة بالديناميت ، وهكذا تمكنوا من نقلهـــا إلى داخل الفندق دون ان يفطن احد لهم ولكن مـــا ان ابتعدوا قليلاً حتى دوى الانفجـار الرهيب .

ولقد كانت أخبار أعمال النسف والتدمير تملأ فلسطين كلها فما ان ينتهي الناس من الحديث عن عمليـــة ارهابية إلا ويبدأ الحديث عن عملية اخرى ومن ابرز هذه الأعمال أيضاً حادثـة نسف سجن عكا التي قامت بهـــا منظمة الارجون وما زالت داكرتي تعي هذه الحادثة لان كان لي اقارب كثيرون يقيمون في عكا ولم يكن في هذه المدينة التاريخية الفاتنة سوى المواطنين العرب . وكان فيها سجن أشبه بالقلعة قـد اقيم داخل الحصن القديم الذي قاوم غزو نابليون في السابق . وكان هذا السجن يقع على شاطىء البحر والى جانبه معسكر حربي . وقد تمكن فريق من ارهابيي الاراجون ان يصل الى جدران السجن السميكة يحميه فريق آخر بطلقات رشاشاته المستمرة . وتمكن الفريق الأول ان يحدث فجوة بالجدار بنسفه بالديناميت فاتحـاً الطريق امام فريق آخر ليلج السجن وهو يطلق النيران على الحرس فيشل مقاومتهم .

كان الوقت بعد الظهر ، موعد استراحة السجناء ، وكان في السجن عشرات الارهابيين اليهود وبعض السجناء العرب الذين كانوا يقومون بمباراة بكرة القدم ، وتبع السجناء اليهود اخوانهم حسب الخطة الموضوعـــة وفي الخارج كانت هناك سيارات شحن في انتظارهم .

في حيفا حيث كنت اقيم تتالت أيضاً الأعمال الارهابية ولم تسلم بعض دوائر الدولة من ديناميت شترن أو الاراغون

وكذلك عمد اليهود احياناً إلى نسف سيارات الجنود البريطانيين أثناء سيرها بالديناميت وإلى محاولة نسف القطارات والجسور فكنا كلما مررنا قرب جسر قلنا من يدري فقد تكون تحته قنبلة موقوتة .

والواقع أن موجة الارهاب التي فرضتها المنظمات اليهودية بعد انتهاء الحرب الأخيرة على البلاد كانت تخدم أغراض بريطانيا واليهود على السواء فبعد أن جمعت السلطات الانجليزية الحاكمة اليهود من شتى أنحاء العالم خلال أكثر من ربع قرن أدت مهمتها على أكمل وجه لخلق وطن قومي لليهود في فلسطين وأصبح على اليهود أن يقوموا بالشق الثاني وهو محاربة السلطة المنتدبة ليظهروا أمام الرأي العام العالمي كما لو كانوا أصحاب البلاد الشرعيين يقومون بثورة مسلحة ضد المستعمر لطرده ، لاظل المستعمر وضيعته .

غير ان هذا الوضع الشاذ لم يدم إلا أقل من سنتين أعلنت بريطانيا بعدهما عن عزمها على الأنسحاب من الأراضي المقدسة وإنتهاء الأنتداب عليها في منتصف أيار سنة ثمان وأربعين . كنت في ذلك الحين في السادسة عشرة من عمري ولم أكن ادرك بعد معنى الأستقلال وروعة الحرية بل كان هناك شيء عاطفي غامض يطغي على جميع مشاعري ويومها نظرت إلى الشارع الذي أسير فيه متأملاً وغمرني شعور بالغبطة حين فكرت أننا سنصبح نحن أنفسنا أسياد الشارع الذي اسير

فيه . ساعتها أحسست اني أعطي حياتي راضياً مختاراً في سبيل بلادي ، لم تكن بلادي كلمة مجردة تردد على مقاعد الدراسة بل شعرتها حباً كبيراً يعيش في كل جوارحي . أصحيح ما هي إلا أشهر ونكون أسياداً في بلادنا ؟ لم أكن يومها أدرك أن هذا الحلم الجميل لن يتحقق اطلاقاً وسيتحول إلى مرارة عميقة وسنصبح جميعاً بعد شهور كومة من اللاجئين . كان آخر ما يمر بخاطري التشريد والعيش بلا وطن . لست ادري لماذا كان يخامرنا نحن عرب فلسطين احساس باننا سننتصر وبان الظلم لا يمكن أن يقع وان فلسطين لا يمكن أن تتحول إلى اسرائيل . كان في قلوبنا ايمان ساذج احياناً بان اليهود لن يستطيعوا طردنا وبان الله يقف الى جانبنا ضد من سفكوا دم المسيح . كان هذا احساسي وأنا في مطلع شبابي وكنت المسه لدى جميع الناس .

صمت زياد قليلاً وتطلع الى البعيد كأنه يحاول ان يستحضر الذكريات ثم قال :

« أكثر من عشر سنوات مرت لا اصدق كيف » ثم التفت الي وبادرني بالسؤال : اني اشعر أني لم اعش في جو طبيعي منذ طفولتي ، كان الارهاب في حداثتي أمراً عادياً . ان حياتي في فلسطين تجثم على صدري كابوس جميل » وصمت قليلاً وحين رأيت تردده في متابعة الحديث قلت له : ولكنك لم تحدثني بعد عن زياد المقاتل — ثم اردفت قائلة وانا ابتسم له : —

– احب أن أسمع قصص بطولاتك، ولم يتجاوب مع مرحي بل قال لي والحزن باد في كل كلمة يقولها : « ليس لي بطولات انما كابوس فارغ . الحياة كلها كابوس .

– ولكننا اذا تحدثنا عن الكابوس للاخرين خفت وطأته .

وقال كمن يطلق حكمه يؤيد ما قلته : الكابوس هو الوحدة .

– وهل يسؤك ان تقص علي كابوسك ؟

– كلا ولكن قصته طويلة .

– أنا على استعداد ان أبقى معك إلى صباح الغد .

وهنا أشرقت اسارير زياد قليلا ، وعاد الى حديثه بعد فترة من الشرود .

٢

كانت حيفا مـــا تزال مدينة ناشئة في أوج نموها وتوسعها سكانها يضاهون سكان العاصمة إذ اضحوا أكثر من مائة واربعين ألفاً نصفهم من العرب الذين وفد معظمهم اليها من المدن والقرى المجاورة ، والنصف الآخر أغلبه من المهاجرين اليهود الذين كانوا يحيطون بالسكان العرب من جميع الجهات تقريباً . وقد بنوا لهم حياً مغلقاً على سفح الجبل ، يشرف على المدينة القديمة التي يسكنها العرب ، وقد أطلقوا على حيهم هذا اسم هادارا كرمل وكان غاية في الجمـــال كله ابنية حديثة ضخمة بينها الشوارع الواسعة الأنيقة التي يرتاح الانسان للتنزه فيها لدى الأصيل أو عند المغيب أو في الليل حين تكثر الحركة فدور السينما والملاهي والبارات والأندية الليلية الفخمة منتشرة هنـــاك بكثرة .

وتستحم قدما حيفا في شاطىء البحر ويضطجع رأسها بغنج ودلال على الكرمل الصموت الخاشع . على سفـــح منه اقيمت كنيسة للنبي ايليا في داخلها مغارة يقال انها كانت مأوى له ، وهي مزار يقصده الكثير من اهل حيفا ومن المدن المجاورة في عيد النبي ايليا في العشرين من تموز من كل عام .

وعلى سفح آخر أشاد البهائيون مزاراً لزعيمهم واحاطوه بحدائق واسعة رائعة الجمال فيها من شتى أصناف الزهور تظللها بعض أشجار السرو والشربين والشجيرات المختلفة وبينها ممرات ملئت بالحصى وكان ينتابني شعور غامر من السعادة وأنا أسمع وقع خطواتي عليهـــا ومن حولي الأزهار المتعددة الألوان والطيور المختلفـة الاجناس تغرد مسبحـة الجمـــال من حولهـــا .

وكثيراً ما كنا نتسلق صخور الكرمل لنجلس في ظلال شجر الصنوبر . ولقد اخبرتني أمي مرة ان صبياً كان يلهو في الكرمل وحده ومالت الشمس للغروب وحاول الصبي ان يعود الى بيته ولكنه ضل الطريق فتملكه القلق ثم بدأت دموع اليأس تفر من عينيه وخاف خوفاً شديداً من ان يحل الليل وهو بين صخور الجبل فبدأ يصرخ باعلى صوته ، ثم فجأة رأى ما جعل الدم يبرد في عروقه فكف عن العويـــل : رأى شيخاً جليلا ينتصب بقامته المديدة امامه له لحية طويلة بيضاء ، وقد

اتشح بالبياض . وحين كان الصبي ما يزال يقف صامتاًمشدوهاً أشار الشيخ اليه ان يتبعه ، ثم سار أمامه والصبي يتبعه بصمت وبعد قليل اختفى الشيخ فجأة كما ظهر فجأة وتلفت الصبي في حيرة يبحث عنه فلم يعثر له على أثر ونظر حوله فاذا به امام طريق يعرفها جيداً فاسرع عائداً الى البيت خائفاً لا يفهم ما رأى وما أن وصل الى المنزل حتى قص ما مر معه على امه وهو مبهور الانفاس . وما سمعت الأم القصة حتى صاحت به : هذا ايليا عليه السلام ، لقد ظهر لك ليحميك .

كانت هذه القصة تتردد في خيالي حين كنت مرة مع أخي الأكبر وبعض الرفاق نلهو بين صخور الكرمل وأشجار الصنوبر المضطجعة على كتفه ولم اكن قد جاوزت العاشرة من عمري . وفجأة الفيتني ابتعد عن الجميع ثم غمرني شعور غريب احسسته يتفجر من اعماقي كما لم ينتابني في السابق شعور رائع الجمال ولكنه يزق اعماقي فجثوت على الصخرة واغمضت عيني وأنا اؤمن اني سأرى ايليا بثيابه البيضاء حالما افتح عيني . وفي تلك اللحظة شعرت بان ايليا ليس نبياً مجرداً مبهماً عاش في الماضي السحيق بل اب رحوم حي يجوب الكرمل ليل نهار ليساعد الصغار الذين في ضيق . ثم غمرني شعور بانه يراقبني الآن وبأنه يقترب مني اكثر فأكثر . فأغمضت عيني اكثر خشوعاً . ههوذا يقف بالقرب مني ، انه يتأملني ملياً انه يدنو مني اكثر ، ها هو

يمد يده في اتجاهي انه يضع يده على رأسي واجفلت فجـــأة وفتحت عيني ، لم يكن امامي شيء ولكني رأيت كل ما حولي بهاء صافياً واحسست في اعماقي نورا جديداً وحباً عميقاً مضنياً لجميع الناس . وحـين ناداني رفاقي للعودة معهم وسألوني عما كنت افعله وحدي تبعتهم بصمت كالمؤخوذ اذ كان مـا عشته اسمى من كل كلام .

٣

الوقت مساء والخريف يبسط الهدوء والراحة على حيفا وقد اجتمع في بيتنا جمع غفير كان بينهم السيد جميل سعيد احد اقاربنا وقد انهى تحصيلة الثانوي منذ سنوات وبدأ العمل موظفاً في دائرة البريد ولم يكن بعد قد جاوز الخامسة والعشرين ، متوسط القامة عالي الجبين ، ابيض الوجه ، وقد اعتاد ان يزورنا باستمرار اذ كان اهله يقيمون في عكا . التي تبعد اقل من ثلاثين كيلو متراً عن حيفا ، وكذلك كان حاضراً في تلك الليلة شاب فارع الطول اسمر الجبين لم يتجاوز الثامنة عشرة اسمه قاسم ، وكان في نهاية دراسته الثانوية مع اخي الأكبر مني في صف واحد وقد توطدت بين عائلتينا علاقات ود وصداقة عن طريق قاسم وكان أبو قاسم ذا قامة مديدة نحيف الجسم يضع طربوشاً على رأسه في الخمسين

من عمره كوالدي ، وكان يشتغل بالقضايا الوطنية ويعتبر نفسه زعيماً محلياً ، وكذلك كان حاضراً شاب آخر من زملاء قاسم ومنير في الدراسة اسمر الوجه ذو تعابير صارمة متوسط الطول ، اسمه حسن شعبان، وافتتح اخي منير الحديث قائلاً : لقد تأجل الاقتراع على مشروع التقسيم مرة ثانية الى الغد بعد ان تأجل يومين في السابق . وسارع ابو قاسم للرد بحماس : يبدو ان اليهود قد تأكدوا من عدم نيل مشروعهم اغلبية الثلثين في الجمعية العمومية فعمدوا الى التأجيل للضغط على الاعضاء ، ولكنهم لن ينجحوا : وهنا انبرى جميل يقول : « سينجحون وسترى غداً » . ورد ابو قاسم : ولكن اصدقائنا لن يتخلوا عنا .

– بل سيتخلى معظمهم عنا . لقد عمل اليهود بنشاط دائب في جميع عواصم العالم منذ ان شكلت هيئة الامم لجنة التحقيق قبل سبعة أشهر فماذا فعلنا نحن ؟

– وماذا كان باستطاعتنا ان نفعل ؟ الكل يعرف ان هيئة الأمم ليست إلا قسماً من وزارة الخارجية الاميركية ، وساسة اميريكا يسايرون الصهيونية كسباً لاصوات اليهود الاميريكيين في الانتخاباب .

– اننا نخفي تخاذلنا بحجج واهية فاذا كانت أصوات اليهود تخيف الساسة الاميركيين فلماذا لا يخيفهم تهديدنا لمصالحهم

الكثيرة .

وحين لمس أبو قاسم اندفاع جميل قال له وكأنه يطمئنه إلى أن ليس هناك مـــا يدعو للقلق : خاب فألهم جميعاً . انهم يتآمرون ويدسون ولكنهم لن يصلوا إلى ما يبغون . ان الله عز وجل لن يمكنهم منا نحن اصحاب الحق الشرعي في البلاد .

ثم استشهد بآية من القرآن وكأنه يعطي البرهان على صدق ما ذهب إليه : « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ثم اتبعها بآية اخرى « قالت اليهود يـد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

وليزيدن كثيراً منهم ما انزل اليك من ربك طغياناً وكفراً والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما اوقدوا ناراً للحرب اطفأهـا الله . ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » . وكان والدي حاضراً فبادره قائـــلاً : بإذن الله ابا قاسم . هم يخططون ولكن الله يسخر من مخططاتهم .

وكأنما اراد قاسم ان يقول لجميل بأنه يشاطره رأيه فتدخل متوجهاً بالحديث الى ابيه : ولكن الله قال في كتابه العزيز : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، فاية قوة اعددنا لهم ؟ الخطب الحماسية . المنظمات الصهيونية تلجأ الى العنف ضـــد السلطات الحاكمة ، ونحن نتفرج وكأنهم اصحاب البلاد . وهنا قال جميل مقاطعاً : وكأننا لسنا نحن الذين اشعلنا ثورة سنة

ست وثلاثين (١٩٣٦) ضد الانجليز

وقال أبو قاسم بهدوء: سيهب هذا الشعب ثانية غداً وسيفعل المعجزات . ان الهيئة العربية ليست غافلة ، انها تعمل جاهدة لشراء السلاح .

ورد جميل : لماذا أوقفتم ثورة سنة ست وثلاثين . وكان يجب ان تستمر حتى جلاء المستعمر ، وعاد أبو قاسم يرد بهدوء وهو يبتسم : ولكنك تعلم ان الدول العربية تدخلت ورجت زعماء فلسطين وقف اعمال العنف ؛وهز جميل برأسه غير مقتنع وقال: لقد اوقفها الزعماء لأنها تحولت في نهايتها إلى ثورة شعبية شاملة فخافوا ان تستمر الى مداها الطبيعي فيفلت الزمام من ايديهم . وظل أبو القاسم محتفظاً بابتسامته وهو يجيب : كيف يخشون ثورة هم زعماؤها وقادتها ؟ ورد جميل بنفس لهجة الحماس : الشعب هو الزعيم الاكبر وهو القائد الأوحد ، وبعد ان تمهل قليلا عاد يقول : اننا نؤمن بان النصر سيأتينا برداً وسلاماً . ورد أبو قاسم : ان ايماننا بعدالة قضيتنا هو اعظم سلاح نتذرع به يا سيد جميل . وهنا تدخل أبي أيضاً قائلا تأييداً لما قاله أبو قاسم لتوه : الله كبير يا سيد جميل وهو يرى ما يجري ويعلم ان قضيتنا قضية حق ، أو تظنه غافلا عما يدور في البلاد المقدسة . ورد جميل : ولكنني أريد أن يقتنع البشر بحقنا في ارضنا ، فمنذ أيام خذلتنا الجمعية العمومية للامم المتحدة حين طرحت المشاريع التي تضمنت وجهة نظرنا في القضية . لقد

طالبنا باحالة وعد بلفور وتنفيذ صك الانتداب على محكمة العدل الدولية لتبت فيها ولكن الجمعية العمومية رفضت طلبنا . لقد عالج مندوبو الدول العربية الموقف بالكلام والخطب الرائعة . اننا لم نفهم بعد انه لا يكفي ان يكون الحق الى جانبنا . ان العالم لا يسمع إلا لمن يعرف كيف يدافع عن حقه ويموت في سبيله .

ورد أبو قاسم : توكل على الله فالباطل لا يمكن ان يدوم ، قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، ورد جميل بهدوء متصنع : ولكن غداً يفوز الباطل وتقر الجمعية العمومية التقسيم باغلبية الثلثين أو تظنهم قد ارجأوا التصويت مرتين ولن يستطيعو ان يضمنوا الثلثين ؟وقبل أن يرد أبو قاسم تدخل أبي ثانية مخاطباً جميل : « من اعتز بغير الله ذل » وهم يعتزون باموالهم والاعيبهم ولكنها ستبوء بالفشل ، وقال أبو قاسم : أنا واثق ان مشروع التقسيم لن تقره الجمعية العمومية فالدول العربية السبع لها من النفوذ والأصدقاء ما يجعل احلام اليهود تتبخر ، وتساءل جميل متهكماً:اصدقاء العرب ؟ مَنْ الأنجليز ، اصدقاء الشريف حسين الذين وعدوه بان يجعلوه ملكاً على البلاد العربية ، ثم سخروا منه حين اخذ كلامهم على محمل الجد .

فزحفت جيوش اصدقائهم الفرنسيين وكسرت عرب سوريا

في معركة ميسلون . الاميركيون ورئيسهم ترومان صهيوني اكثر من اليهود وقد جاء بمشروع ادخال مائة الف يهودي جديد الى فلسطين . اني لا ادري ما دامت قد اخذته الشفقة على اليهود لماذا لا يجمعهم جميعاً في ولاية من ولايات دولته . لماذا يريد ان يبلينا بهم وبلاده واسعة ودولاراتها خيرة ما شاء الله . اصدقاء العرب ؟ من ؟ الباكستان ؟ وهل يستطيع مندوبنا ظفر اللهخان اكثر من القاء خطاب حماسي شأنه شأن المندوبين العرب ؟ نحن نعرف ان الدول الكبرى الغربية ضدنا ومع ذلك فما زال حكامنا يتمسحون باعتابها .

وعاد أبو قاسم يرد على جميل : وماذا يستطيع جميع أخصامنا ان يفعلوا حتى وان أقر مشروع التقسيم غداً ، فانهم يصطدمون بمعارضتنا وسنقاوم المشروع بالقوة وسيهب الشعب العربي كله لمؤازرتنا ، ماذا يستطيع اقل من مليون يهودي ان يفعلوا بين اكثر من سبعين مليون من العرب ؟ لا بد انهم حمقى كي يظنوا انهم قادرون على اقامة دولة لهم في قلب البلاد العربية . وابتسم جميل قليلا في حين قال اخي منير معلقاً : كان من الخير لهم ان يرضوا باقامة دولتهم في اوغندا في افريقيا الشرقية كما عرض عليهم الانجليز في الماضي فهناك يستطيعون ان يعيشوا بسلام : في حين عاد جميل ليرد على أبي قاسم قائلا : يجب الا نخدع انفسنا ، بفخامة كلمة سبعين مليون عربي فهناك جزء

كبير منهم مـا يزال يرزح تحت وطأة الاستعمار ، وقـد علمتنا الايام أن الزعماء العرب قادرين على كل شيء ما دام الأمر لا يعدو الكلام وهم سبب الوضع الذي اصبحنا فيـه فلولا تدخلهم سنة ست وثلاثين لكنا نلنا استقلالنا من زمان ثم ان منهم من يطمع ببلادنا أو بجزء منها ولكنه يخفي طمعه في الوقت الحاضر وأنت تعلم ما اعني ، وتبسم أبي قاسم :

انك لا تنفك تحمل على العرب بدافع الاخلاص وتتهمهم بالتقصير وكأننا فقدنا فلسطين وقامت دولة اليهود .

- ولكننا إذا استمررنا في الطريق التي نسلكها فسنصل إلى هذا .

– غير ممكن اطلاقاً ولكنكم انتم الشباب في غمرة حماسكم تكيلون التهم جزافاً ولكني على كل حال ابارك هـذا الحماس فسنكون بحاجة اليه غـداً حين نحمل السلاح دفاعاً عن أرضنا .

وتدخل أبي من جديد وكأنه يحاول أن يوفق بين رأيي جميل وأبي قاسم : ابا قاسم ان السيد جميل من خيرة الشباب الوطني وهو انما يقول ما يقوله لأنه يغار على فلسطين وعلى العرب .

وقال أبو القاسم بلهجة الزعيم الواثق من نفسه والتي لم تفارقه طيلة حديثه : بارك الله بالشباب المتحمس فهو سندنا الأكبر قبل

زعماء العرب ومندوبيهم .

ورد جميل بهدوء قائلا : ان مـا يحز في نفسي مثلا ان أرى العرب يقابلون الدعايةالصهيونية بالسكوت فمنذ ان شكلت هيئة الامم لجنة التحقيق، و بعد ان اعلنت بريطانيا عزمهـا على الانسحاب من فلسطين واليهود يتصلون بجميع اعضاء اللجنة ويمارسون معهم شتى انواع الضغط . وما ان وطأت أقدام هذه اللجنة أرض فلسطين حتى وقعت حادثة الباخرة اكسودس فلم يترك اليهود وسيلة الا واستعملوها لاستغلال الحـادثة لصالحهم واثارة العطف على قضيتهم . لم تكن الحادثة في حد ذاتها شيئاً يذكر . باخرة تنقل عدداً من المهاجرين اليهود غير الشرعيين الى فلسطين التقت بها في عرض البحر قوة بريطانية مسلحة ولم تطع الباخرة اوامر السلطة الحاكمة وهي في المياه الاقليمية لفلسطين فكان اصطدام مسلح أدى الى وقوع بعض القتلى والجرحى ، ثم اجبر الانجليز اليهود على ان يصعدوا على ظهر ثلاث سفن عادت بهم الى قبرص لنقلهم من هناك الى البلاد التي اتوا منها . غير ان الصهيونية التقطت افلاماً سينمائية لهؤلاء المهاجرين وهم في قبرص تصور حالة البؤس والتشريد التي يعيشون فيها ووزعت تلك الأفلام على معظم دور السينما في اميريكا واوروبا استدراراً لدموع الرأي العـام العالمي ، وقـد كان لهم ما شاؤوا وها هي غالبية اعضاء لجنة التوفيق قد اوصت بتقسيم فلسطين ، لقد نجحوا في خداع الرأي العـام العالمي وقامت بعض المظاهرات مندِّدة

بموقف بريطانيا ، كأن بريطانياقد شردتهم من بلادهم وكنهـــا ليست هي التي تركت اكثر من سبعمائة الف مهـاجر يهودي يدخلون بلادنا فترة انتدابها: أما نحن اهل البلاد الاصليين فصمتنا كأن الأمر لا يعنينا بشيء .

ورد أبو قاسم متسائلاً : وماذا كنـــا نستطيع ان نفعل ؟ اليهود منتشرون في شتى انحاء العالم ولهم نفوذهم بما يملكون من اموال . أما نحن فالجميع ضدنا فاذا اطلقنا رصاصة واحـــدة قامت السلطات باعتقال المئات ونصب المشانق للعشرات . لقد اعدم الانجليز فرحان السعدي قبل عشر سنوات وهو صائم في شهر رمضان الكريم ، وقد بلغ الثمانين من عمره بعد محاكمة سريعة له لأنه اشترك في ثورة سنة ست وثلاثين ولم يراعوا حرمة لكبر سنه ولا لصيامه في حين انهم يتركون المنظمات الصهيونية تقوم باعمـــال العنف والارهاب وهم مكتوفو الأيدي يتلقون الصفعة تلو الصفعة ، فمنذ فترة وجيزة وضـع اليهود في طريق الجبل مواداً شديدة الانفجار مشدودة بشريط عـبر الطريق وحين مرة سيارة جيب عسكرية على الشريط تناثر ركابهـــا البريطانيون اشلاء في الفضاء وتلقت السلطات صفعة اصدقائها بهدوء كما تلقت من قبلها صفعة اخرى حين خطف اليهود جنديين بريطانيين وقتلوهما ومثلوا بجثتيهما ثم علقوهما بشجرتين في غابة ، وبعد بضعة ايام عثر على الجثتين عربي فمضى واخبر السلطات بما رأى فاستدعت السلطة الصحفيين والمصورين ليلتقطوا صور

الوحشية وحين تقدم ضابطان بريطانيان لانزال الجثتين من على الشجرتين حدث انفجـار هائل ادى الى مقتل بعض الحضور وجرح البعض الآخر لان منظمة الاراجون كانت قـــد لغمت الجثتين . وبالرغم من كل هذا فان الحكومة البريطانية تعترف بالوكالة اليهودية وتتركها تتسلح كما تشاء وتحرم علينا اقتناء مسدس صغير للدفاع عن انفسنا .

وصمت الحضور جميعاً قليلا وتنهد جميل ثم قال كأنه يقرر حقيقة معروفة : لقـــد تمت اللعبة . غداً تقر الجمعية العمومية مشروع التقسيم وتسلمنا بريطانيا لقمة سائغة لليهود بعد ان تم لها ما ارادت وحققت وعد بلفور ،انها تدعي انهـا ستحافظ على الأمن والنظام وهي في الواقع قد حافظت على اليهود منا الى ان قوتهم وسلحتهم وغداً تتركهم يفتكون بنا بعد ان جردتنا من كل سلاح . الهاجانا جيش نظامي مدرب ومهيأ ليحل محـــل الانجليز عند الجلاء .

٤

ما زلت اذكر ذلك النهار كان يوم احد اعتقد اننا كنا في اليوم الأول من كانون الأول . كانت السكينة ما تزال تلف حيفا بكاملها ، وكان الخريف قد بدأ يودع المدينة الهاجعة . وكنا نجلس في البيت عصر ذلك النهار وقد امتلأ منزلنا بالضيوف ومن بينهم ابو قاسم وابنه وجميل وحسن شعبان . وكانت الحياة ما تزال تسير في مجراها الطبيعي . وقطع صوت رصاص بعيد احاديثنا فاصغينا قليلا فعاد صوت الرصاص يلعلع بضع ثوان اخرى . ثم اعقبه سكون مطبق وعلق أخي منير قائلا : لن يسكت صوت الرصاص بعد اليوم حتى يتطهر كل شبر من فلسطين ورد حسن شعبان بحماس قائلا : سنحمل جميعاً السلاح منذ الآن ولن نلقيه الا بعد التحرير ، وتطلع أبو قاسم الى جميل وقال

له : لقد صح ما توقعته واقر بالأمس مشروع التقسيم . ورد جميل : لقد كان اقراره اكبر ضربه تسدد الى العدالة . لقد فشل مشروع الدولة الفدرالية الواحدة . ما زلنا نشكل اكثر من ثلثي السكان ومن حقنا ان نختار نظام الحكم الذي نريد وبدل ذلك يتفق الجميع ضدنا لتقسيم وطننا وليتهم اعطونا ثلثي مساحة البلاد ، ان القسم الاكبر من الأراضي المزروعة قد ضم للدولة اليهودية المغتصبة .

وقاطعه أبو قاسم : لذا فهم يرقصون اليوم في الشوارع فرحاً يظنون انه قد تم لهم ما ارادوا ، ورد قاسم الذي كان حاضراً: سنحول فرحهم الى مأتم . هل سمعتم بان الفدائيين قد باشروا عملهم منذ اللحظة التي اقر فيها التقسيم ؟ لقد وصلت الاخبار اليوم من الجنوب تقول بان الفدائيين قد هاجموا سيارة ركاب يهودية كبيرة تعمل على طريق تل ابيب وامطروا ركابها بوابل من الرصاص . وقال اخي منير وقد اخذه الحماس : اذا كانوا هناك في نيويورك قد اقروا قيام اسرائيل فنحن هنا نقول لهم لا وسنقولها بقوة السلاح . وقال أبو قاسم : سنحمل الجميع السلاح شيباً وشباناً ، لن يروا ان الله يمهل ولا يهمل ، وقال ابي أيضاً : الله معنا ولا تخف على من كان الله الى جانبه ، وقال حسن فليقروا الف مشروع تقسيم ولكنهم لن يستطيعوا تنفيذه ، كل شبر من فلسطين سيتحول الى جحيم تحت اقدام الغزاة آن اوان الجد ولن يفهم احد بعد اليوم الا لغة الرصاص .

ورد أبو قاسم قائلا : من الغريب حقاً ان يعلم الجميع انهم يؤيدون الباطل ومع ذلك فقد اقروا المشروع والاغرب من ذلك ان المندوب السوفياتي وقف يندد بالاستعمار ثم أبدى اسفه لاضطراره الى تأييد مشروع التقسيم كحل اخير للقضية .هاجم الاستعمار الغربي وأيد مشروعه . ووقف مندوب السويد أيضاً يبدي تحفظاته على المشروع ويقول. ان للمشروع سيئاته الكبرى ومع ذلك فقد صوت الى جانبه . أمامندوب بلجيكا فقد قال: بصراحة ان الوطن القومي الطبيعي لليهود البلجيكيين هو ارض بلجيكا بالذات لا فلسطين ، وبالرغم من هذا ايد مشروع التقسيم أي نزوح اليهود إلى فلسطين واتخاذها موطناً لهم .

أما مندوب هايتي فكان قد اعلن صراحة ان حكومته تحرص على الدفاع عن حريات الشعوب الصغيرة ولذا فلن تؤيد مشروع التقسيم. وكذلك فان مندوب الفلبين حمل على التقسيم قائلا ان من حق كل شعب ان يقرر مصيره السياسي وان يحافظ على كيانه وان مشكلة يهود اوروبا لا علاقة لها البتة بانشاءدولة يهودية مستقلة في فلسطين ومع ذلك فان مندوبي هاتين الدولتين أيدا التقسيم . وهنا صاح جميل : ألم اقل لك انهم ارجأوا التصويت مرتين ليتسنى لهم ان يلعبوا لعبتهم . ورد أبو قاسم: على كل حال الغربيون هم الخاسرون . لقد ثار مندوبو الدول

العربية وهاجموا وتوعدوا حين اقر المشروع وقـــد ثار معهم سبعون مليون عربي . لن يبقى بعد اليوم للغرب صديق على أرض عربية . لا لن نرضى ان تدّول القدس ولا ان يقتطع القسم الاكبر من فلسطين هبة لليهود .

ورد جميل : ان بعض اليهود يريدون القدس لهم والانكى من ذلك انهم يريدون ان يوجد اتحاد اقتصادي بين الدولة اليهودية والدولة العربية لـكي تنتعش دولتهم الجديدة وتقوى ، يريدون ان يؤمنوا لها اسباب الحياة .

وتساءل أبو قاسم متهكماً : أيريدون ان يطردونا من حيفا نحن الذين ولدنا فيها أو أن نعيش كمواطنين اسرائيليين تحت حكمهم هم الذين أتوا من المانيا وبولونيا وهنغاريا وغيرها ؟ .وكان يشير بذلك الى ان حيفا تقـع في المنطقة اليهودية بموجب قرار التقسيم . ثم اردف قائلاً : الواقع ان هيئة الامم كانت كريمة حقاً معهم ، ورد جميل قائلا : لهـذا يرقصون اليوم في الشوارع وحين اعلنت نتيجة الاقتراع كان هناك حاخام يهودي يحضر الجلسة فصاح باندفاع باعلى صوته : هذا هو اليوم الذي صنعه الرب . فلنفرح ونتهلل به . وصاح قاسم : فليفرحوا ويتهللوا غداً حين يتسلح هذا الشعب . وقال أخي منير : من فرح اولاً بكي اخيراً ، وتثاءب جميل وهو يقول : من يدري ؟ فلقد جعلهم الانجليز يفرحون اولاً وقـــد يمكنونهم من ان يفرحوا اخيراً ايضاً .

٥

كان كانون الاول ما يزال في ايامه الأولى ولم تكن بوادر الشتاء قد بدأت وكنت متوجهاً الى المدرسة التي تجـاور حي هدار كرمل اليهودي ، وسمعت صوت بعض الرصاص يمزق سكينة الصباح .

كانت الصحف تخرج كل يوم باخبار الاشتباكات الجديدة بين العرب واليهود واحسسنا جميعاً اننا تركنا فجأة امام مصيرنا . وساد البلاد جو من الترقب المشحون بالحماس والرهبة . واستأنفت سيري الى المدرسة وتوقف الرصاص قليلا ثم عاد بعد ساعتين ينهمر بغزارة ثم اخذ يتقطع ليعود بشدة من جديد وانتظرنا انقطاعه طويلا ولكنه الح وحين توقف قليلا نحو الظهر امرنا اساتذتنا بالانصراف الى البيوت وفي الطريق اضطررت الى المرور

بحي تكاد تختلط فيه بيوت العرب ببيوت اليهود .

وكنت اسير متوجساً اخشى في كل لحظة ان يعود الرصاص الى الانهمار فلا اعود استطيع ان اتابع سيري . وبينما انا على هذه الحال اذ اقبلت سيارة كبيرة مليئة بالركاب ورأيت نافذة تفتح من الحي العربي ورشاشاً يصوب ثم اذا بالرصاص ينهمر على السيارة بغزارة . وانطلقت اصوات الاستغاثة وتوقفت السيارة عن السير وتفرق الركاب هالعين وهم لا يصدقون بالنجاة . وقد تركوا وراءهم بعض الدماء . وحرت ماذا افعل ، ولكني وجدت نفسي اركض في اتجاه الحي العربي وكنت قد بدأت اطمئن قليلا حين اقبل رجال الجيش الانكليزي بمصفحاتهم وبدأوا يطلقون النيران كيفما شاؤوا . ولجأت بسرعة إلى أقرب بناية الي واحتميت فيها حتى مروا . وعندما هدأ روعي وعدت لاتابع سيري ، كانت الطرقات كلها خالية والحوانيت مقفلة ومنظر حيفا يبعث على الرهبة فكأنها اطلال قائمة لا مدينة حية يعمرها الالوف ، ووصلت الى البيت فاذا باهلي جميعاً ينتظرون اوبتي بتلهف . اذ كانت اختاي ليلى ودلال قد عادتا من المدرسة مع أخي الصغير سمير الذي لم يكن قد جاوز السادسة وكانت ليلى في الرابعة عشرة ودلال في الثانية عشرة وكذلك كان أخي منير قد سبقني وتجمع اهلي حولي غير مصدقين عودتي سالماً وقد رأوا

وجهي شاحباً ولكني تصنعت الهدوء ولم اقصص عليهم ما مر معي واخبرني منير انه كان يمر بالقرب من مدرسة الاباءالساليسين صباحاً وقد علم ان احد الرهبان قد صعد الى سطح المدرسة حين سمع صوت الرصاص ليعرف مصدره فاصيب تواً برصاصة قاتلة .

واستمرت الحال تهدأ يوماً لتعود فتندلع نيرانها اياماً ... وعرفت حيفا يومين هادئين نسبياً فامن النـــاس وعادوا الى استئناف نشاطهم وكنت عصر ذلك النهار اسير في شارع يافا الهادىء الجميل المزدحم بالحركة الممتد على مسافة طويلة يستقبل نسيم البحر الهاجع . ودوي انفجار هائل مزق السكينة المخيمة على الشارع والهدوء الكامن في النفوس . واعقب صوت الانفجار بعض الدخان المتصاعد . ثم عويل مفجـــع . ورأيت الناس يركضون الى جهات مختلفة وقـد شعر الجميع ان طمأنينتهم لم تكن في محلها فبات عليهم ان يعودوا إلى منازلهم باسرع مــــا امكن قبل ان يحيق بهم مكروه . وانطلقت اعدو الى مكان الحادث وكان على بعد خطوات مني . وهناك رأيت منظراً لن انساه ما حييت .. ومع ان المنظر عاد فاصبح مألوفاً لي الا انني ما زلت اذكر انطباعاتي الأولى التي هزتني ذلك النهـــار فيقشعر بدني . كانت هناك سيارة ركاب كبيرة وقد انقلبت رأساً على عقب وتناثرت قطع منها فلم يعد لها شكل محدد يميزها . وعلى الشارع انتشرت قطـع الاجسام البشرية ... فهناك يـد

مبتورة .. وهناك جمجمة مهشمة والى جانبها جثة هامدة وقد تشوه وجه صاحبها . وبين هذه الاشلاء بقع سوداء قانية من الدماء . . وحز في نفسي انين الجرحى الخافت المتقطع وشعرت بالاسى يملأ جوانحي وأنا أرى جثث الابرياء متناثرة بهذا الشكل المؤلم . وعرفت من ثياب الضحايا ان معظمهم من سكان الريف من العرب الذين جاؤوا الى حيفا لقضاء بعض حاجاتهم وقد عزموا على العودة الى ريفهم الهادىء. واقبلت سيارات الاسعاف . وسمعت صوت الرصاص يعود من جديد وينطلق من جهات مختلفة فنسيت الضحايا قربي ولم اعد افكر الا بالنجاة فحثثت الخطى نحو المنزل وانا اشعر ان الهدوء الذي كنا نتمتع به سابقاً قد مضى الى غير رجعة ...

وفي احدى الليالي اقبل عندنا ابو قاسم مع بعض زعماء حيّنا ثم اخبر ابي انهم يقومون بجمع التبرعات لشراء السلاح وانهم قد بدأوا بتنظم المناضلين وتدريبهم للدفاع عن المدينة ، وسألهم ابي كيف سيستطيعون شراء السلاح فرد عليه أبو قاسم قائلا : الهيئة العربية العليا تساعدنا بالحصول عليه من الدول العربية وسنرسل نحن انفسنا من يشتري السلاح ويهربه الى هنا. اننا نعمل في ظروف صعبة ونحارب امبراطورية كبرى زودت اليهود بكل سلاح يريدون. وجعلتهم يشكلون جيشاً نظامياً كاملا هو الهاجانا، أما نحن فقد تخلى الجميع عنا وزعماؤنا خارج البلاد وسنعتمد على انفسنا وبعض المتطوعين ، سنعتمد

على بطولة شعبنا فيقهر قوى البغي والعدوان ، ثم اضاف قائلاً : املنا كبير بالله ... واردف : كم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بأذن الله ؛ إلا انني لمست في لهجته هذه المرة الى جانب الحماس نوعاً من المرارة والشعور المرهق بالمسؤولية . وبعد فترة من الصمت عاد يقول : اذا لم نستطيع ان نتدبر السلاح فعلينا ان نستولي على سلاح الجنود الانجليز انفسهم كما فعل المناضلون منذ ايام حين هجموا على مدرسة البوليس الاضافي قرب الرملة واستولوا على اكثر من اربعمائة بندقية وبعض مدافع ستين مع ذخيرتها .

وبعد فترة التفت ابو قاسم الى والدي وسأله : هل ستقوم دولة اسرائيل، مـاذا يقول كتابكم بذلك ؟ وكأن والدي كان ينتظر هذا السؤال ليبرهن عن سعة معرفته الدينية فقال : ان العهد القديم والعهد الجديد يتفقان على انه بعد مجيء المسيح لن تكون لليهود مملكة وفي هذا العهد يتفق العهدان مع ما ورد في القرآن فبادر ابو قاسم الى القول : والقينا عليهم الذل والمسكنة الى يوم القيامة ، وتابع ابي : الواقع ان عودة اليهود الآن ليست لصالحهم اطلاقاً كما يظن البعض فالله قـد جمعهم هنـا ليلاقوا مصيرهم فالمسيح لن يعود ثانية الا بعد ارتداد اليهود الى اورشليم ، وارتدادهم الى اورشليم لن يكون لخيرهم بل لنهايتهم : اذ قـال حزقيال النبي : « بسخطي وغضبي سأجمعكم » وسيجمعهم تعالى بسخطه وغضبه من اربع جهات المعمورة لينالوا جزاءهم لأنهم قالوا : «دمه علينا وعلى اولادنا ».

وتطلع ابو قاسم الى ابي قليلاً وقال : ما دام اليهود قد سفكوا دم المسيح فلماذا يساعدهم الانجليز كل هذه المساعدة ، اليسوا مسيحيين ؟ ورد ابي : ان الانجليز قد نسوا المسيح والعالم الآخر ليحكموا هذا العالم « لا يستطيع انسان ان يعبد ربين » ولكنهم في الواقع اداة في يد الله دون ان يدروا . فهم قد جمعوا اليهود من شتى اقطار الارض لغايتهم السياسية ولكنهم لا يدرون ان هذه علامة من علامات اقتراب يوم الاخرة وانهم يسوقون اليهود الى حتفهم تمهيداً لمجيء المسيح الثاني ، لأنه لن يأتي ثانية حتى يكون الارتداد . والارتداد هو رجوع اليهود الى فلسطين . وصمت ابو قاسم قليلاً ثم قال :

ولكن قبل مجيء المسيح الثاني الن تقوم لليهود دولة ؟ ورد ابي سريعاً : محال فقد قال حزقيال نفسه حين تكلم عن تاج اسرائيل : «منقلباً منقلباً منقلباً اجعله » ،وقال بولس الرسول عن اليهود في رسالته الى اهل تسالونيكي : «وادركهم الغضب الى الأبد » .

وحين جاء ابو قاسم ليودعنا قال : باذن الله وهمة الشباب لن نمكنهم من اقامة دولتهم ، اننا جميعاً بحاجة الى ان نعتصم بحبل الله ولا نتفرق .

٦

وبدأ الجو يتغير وبدأت الرياح تشتد منذرة بمجيء الشتاء ، واقبل الميلاد ومضى بهدوء لم يكد يشعر بمجيئه احد . واقبلت سنة ثمان واربعين دون ضجيج فكأنها مولود سفاح. وبدأت الأمطار تغطي شوارع حيفا فتزيل اثار الدماء عنها ولكنها لم تخفف من حدة التوتر في النفوس فمع مجيء السنة الجديدة بدأ عدد الضحايا يرتفع تدريجياً كل يوم . ولم اعد أنا او أي من اخوي او اختي الى المدرسة اذ اغلقت مدارس حيفا ابوابها. ونظم اهالي الاحياء العربية صفوفهم لحراسة الاحياء من الاعتداءات اليهودية وبدأنا نحن الشبان نتدرب على السلاح وقد ابتعنا بندقيتين واحـدة لي واخرى لاخي منير وقد قام بعض الشبان بشراء البندقيتين لحسابنا وتهريبهما الى بيتنا وتدريبنا على استعمالها .

وبدأت اخرج كل ليلة وأنا احمل البندقية بيدي وبرفقتي بعض شبان الحي للدفاع عن منطقتنا .. وكنا نعود مع الفجر الى بيوتنا ونخبىء اسلحتنا في اماكن يصعب العثور عليها اذ كثيراً ما كان الجيش البريطاني يقوم بحملات تفتيش واسعة النطاق بحثاً عن السلاح في الاحياء العربية ، وما زلت اذكر انني عدت مرة مع الصباح الى البيت بعد ان قضيت ليلة ماطرة في الحراسة خارجاً ولم اكد اغفو قليلا حتى سمعت طرقاً شديداً على الباب فهببت مذعوراً وفتحت امي الباب لتجد نفسها وجهاً لوجه امام خمسة من الجنود البريطانيين المدججين بالسلاح . ولم يستأذنوا بل دخلوا البيت وتفرقوا في مختلف انحائه يقلبون الاغراض كما يحلو لهم . واقتربوا من المكان الذي خبأنا فيه البندقيتين فامسكنا انفاسنا وايقنا ان الكارثة لا بد واقعة .. وكانت لحظات ترقب رهيبة ولكنها مضت بسلام اخيراً . وتنفسنا جميعاً الصعداء .

وبعد رأس السنة بيوم واحد جاءنا قاسم وحسن شعبان برفقة اخي منير وكانوا لا يكاد يفترق احدهم عن الاخر ، وكان قاسم ثائراً كأخي لان اليهود كانوا قد القوا قبل بضعة ايام بصفيحة مليئة بالمواد المتفجرة بين الجماهير العربية العزلاء في حي باب العمود في القدس فقتلوا وجرحوا الكثيرين من الابرياء ، ولمست ان الثلاثة يحضرون شيئاً ولكنهم لا يريدون ان يبوحوا لي به . وبعد ايام قليلة اخبرني قاسم

انهم قـد اعدوا خطة نسف كبيرة وسينفذونها في الغـد واذا شئت أن أشاركهم فيهـا عهدوا الي بدور معين . والهبت العملية خيالي !! اشارك بعملية نسف ؟ كنت منـذ حداثتي احب المغامرة والمجازفـة فأسرعت اقول لهم : اني على استعداد للاشتراك فعاد قاسم يطمئنني ويقول لي : سأشترك انا واخوك وحسن وبعض الشبان في القسم الرئيسي من العملية ، اما انت فعليك ان ترابط على مقربة في سيارة للحراسة وهكذا ستكون في مأمن واذا احسست بأي خطر فر بنفسك بالسيارة فعهدي بك ماهراً !..

وفي اليوم التالي علمت بان قاسمـاً وحسنا واخي وبعض الفدائيين قد استولوا على سيارة بريد حكوميـة سيضعون في داخلها قنبلة موقوتة ويدخلون متخفيين الى المنطقة اليهودية. وفي الوقت المحـدد كنت اتقدم انا ومعي شخص آخر بسيارة خاصة نحو المنطقة اليهودية . وعلى بعد قليل كانت هناك سيارة اخرى يقودها شخص ثالث ثم اقبلت سيارة البريد الحكومية ولمحت اخي وقاسما وحسنا داخـل السيارة وجمدت اعصابي وشعرت بخوف شديد وحبست انفاسي ترقباً ورأيت رجلاً يقبل نحوي من بعيد يبدو انه يهودي . هل علم بأمرنا ؟ ورأيته يقوم بحركة بيده فخلته سيستل سلاحاً ويطلق النار علي فأحنيت رأسي توجساً ولكن الرجل ما لبث ان توقف قليلاً وبدأت

ارقب حركاته واتأمله جيداً : كان في اواسط العمر بهي الطلعة وجهه يفيض احمراراً وبقيت فترة اراقبه وتحول نظره فجأة نحوي وتفرس بي ثم ابتسم ابتسامة عريضة خلتني بعدها انني اعرفه من زمان وانه سيأتي الي الان ويحييني ولكنه لبث في مكانه كان التردد بادياً على وجهه وعادت نظراتي تتابع سيارة البريد . انها تتقدم بسهولة ثم اختفت عن ناظري . وفجأة استبد بي قلق شديد . هل سيعود اخي حيـاً أم سيكتشف احدهم العملية . ؟ وانتابني هلع شديد أكان من الضروري أن يشترك اخي في العملية ؟ ولكنه يدافع عنا جميعاً واذا اقتضى مات شهيداً ، كلا ، كلا ، لا اريده شهيداً فليبق الى جانبي كإنسان عادي . واحسست بحنين اليه وان اضمه الى صدري . ماذا لو قتل في المنطقة اليهودية . لن نستطيع حتى ان نحصل على جثمانه . وانتفضت بكليتي حين بلغ تفكيري هذه المرحلة لاسمع صوته الاجهش قربي يقول : أسرع أسرع وصعد السيارة مع قاسم وحسن بحذر ثم انطلقت باقصى سرعة ، وفي لحظة خاطفة رأيت الرجل المتردد يسرع عائداً الى الحي اليهودي حيث اختفت سيارة البريد . ولم نكد نبتعد قليلاً حتى سمعنا صوت الانفجار يهز حيفا بكاملها وتنهد قاسم بارتياح عندها قال : لابد ان مائة حشرة قد تناثرت هباء الآن ، في حين قال اخي : لقد كان هناك كثيرون ينتظرون مرور سيارة الركاب لنقلهم. وقاطعه قاسم وهو يقول : فنقلناهم نحن الى مكان لا يرجعون منه .

اما انا فكنت كالمأخوذ لا اكاد انتبه لمـــا يقولون وشعرتني كبرت فجأة : كانت علامات الارتيـاح والسرور بل والتشفي ترتسم على محيا قاسم ولم يكن اخي باقل منه فرحاً بما اقترفوه في حين ظل حسن صامتاً متجهم الوجه ، لا بد وان كلا منهم قـد شعر فجأة انه اصبح بطلاً فأخذه الزهو امـــا انا فشرد فكري بعيداً وكادت تأخذني شفقة على نفسي بل على الوضع الذي اعيش فيه كله ووجدتني بالرغم عني افكر في الرجل الذي وقف قبالتي لتوه لا بد انه لن يبتسم بعد اليوم لقد قتلت الابتسامة انا قتلت الابتسامة اننا جميعـــاً نقتل الابتسامة كل يوم وشعرت بحاجتي المفجعة لأن القى الرجل واصافحه وابكي امامه لأقنعه اني بريء واني لم أقصده باذى ولكني قتلت البراءة كنا آثمون لاننـــا ابرياء . كذب الحياة أكبر اكذوبة .

Un être humain ne peut jamais être un ennemi :
il suffit d'un moment de sympathie , d'un éclair
d'amour
d'un petit sourire et toutes les barrières ne seront
plus .

ان كائناً بشرياً لا يمكن ان يكون عدواً تكفي لحظـــة تعاطف أو بارقة حب أو ابتسامة صغيرة لتنهار جميع الحواجز. لم يبتسم الا من بعيد للحظـة خاطفة ولكنهـا ابتسامة مزقت كل احقاد قلبي ولم يعد عدواً مجرداً بل اصبح اباً من لحم ودم يسرع للعودة الى صغاره وغمرني حنين شديد الى اهلي والفيتني

افكر : ماذا لو لم أعد انا الى اخي الصغير سمير ما اشد شوقي لأن اعتصره في حضني ، ليتني كنت استطيع أن احتضن العالم كله واطبع عليه قبلة حب هستيرية ، واحسست برغبتي الشديدة لأن أجهش باكياً لا لنفسي بل لأنني ادركت في تلك اللحظة بلمحة خاطفة كابتسامة ذلك الرجل زيف الوضع البشري كله ، ولم تعد اعصابي تحتمل فصحت بمن معي : نحن جميعاً مجرمون ورد قاسم علي قائلاً : ماذا تقصد ؟ وعدت اجيبه بعصبية : اقصد اننا جميعاً نحرم الأبناء من ابيهم والمرأة من زوجها ؛ وعاد قاسم يقول : لم افهم بعد ، ولكن رويدك لا تسرع فاني لم انج من عمل بطولي لأموت في حادثة تافهة . وظل حسن على تجهمه وصمته .

وعدت اخفف السرعة ولكن اعصابي ظلت متوترة وظلت صورة الرجل تلاحقني بابتسامة وعدت اقول لقاسم . كلنا (ليدي ماكبث)وصاح بى قاسم وقد بدأ يدرك ما أرمي اليه: ما بك يبدو ان اعصابك لا تحتمل كثيراً ، ولكن لا بأس فهي المرة الاولى غداً تعتاد ، ثم عاد يصيح بي : لقد قمنا اليوم بعمل بطولي رائع سيرفع معنويات جميع المجاهدين العرب سيتحدث عنه الجميع باعجاب .

غداً تعتاد لقد قمنا بعمل بطولي سيتحدث عنه الجميع باعجاب انا اذن ما زلت صغيراً غرا يهزني منظر البشاعة البشرية وحين اتقدم في السن استمرىء عذاب الآخرين وكدت اصيح كلا باعلى صوتي ولكني كتمت انفاسي وحين دخلنا المنطقة

العربية صاح بي قاسم وكانه يرد علي من جديد، : أوتظننا قتلنا من قتلنا الآن من اليهود لأننا نحب ان نقتلهم ؟ لقد قتلناهم لأنـه كان لا بد من ذلك من أجل فلسطين من أجل الخلاص .

وحين عدت الى البيت بدأت أقول لنفسي : ان دوري كان تافهاً على كل حال ولم اكن اكثر من متفرج لا يستطيع تغيير الأحداث أو التأثير بمجراها وشعرتني كالضائع وسط الأحداث المتتالية ما ذنبي انا ؟ لست انا المسؤول عن الظرف بالذات ولا انا الذي اتى باليهود ومن بينهم الذي رأيته اليوم الى فلسطين ولست انا الذي نادى بتقسيم بلادي ولا من جعل اليهود يختارون فلسطين موطناً لهم لأنهم كانوا في يوم من الأيام يقطنونها. لقد ظلوا بعيدين عنها نحو الفي سنة ولم يشاؤوا ان يعودوا الا حين ولدت انا ، ووجدتني ارتاح اخيراً : اذا كان ثمة من مسؤول فهي الظروف. انا عربي ووطني مهدد وعلي أن ادافع عنه وليمت من يموت. إن لم اقتل اليهودي اليوم فسيقتلني غداً أما أن يكون اباً أو ابناً فهذه ليست مسؤوليتي ان مسؤوليتي تنتهي عند حدود الدفاع عن نفسي . اكان الانجليز يفكرون بان الجندي النازي الذي يقتلونه اب له أولاد سيفجعون بوفاته ؟ اكان اليهود يفكرون حين نسفوا فندق الملك داود بان ضحاياهم بشر مـــن لحم ودم وعواطف وسيوجع فقدهم الكثيرين ؟ هكذا عاش الانسان منذ فجر التاريخ ولن استطيع ان اغير شيئاً وشعرت باليأس الفاجع يعتصر قلبي حين اكتشفت هذه الحقيقة فرفعت رأسي الى السماء

طالباً العون الأخير وبدل بارقة الأمل احسست اننا جميعاً دمى في يد قدر عات اصم عبوس وبان لي كلمح البصر حكم السماء جلياً .

Nous sommes tous condamnès à être coupables . Rien à faire :

نحن جميعاً محكوم علينا بأن نكون اثمين ولا مفر من ذلك .

والفيتني دون ان ادري اجثو على ركبتي وارفع يدي الى فوق وانا اضرع الى الله : اصفح عني هذه الكأس ولكن السماء ظلت على تجهمها وكانها تقرعني على عملي .

٧

وفي احدى الليالي كنت اقـــوم بالحراسة مع قاسم واخي وبعض شبان الحي ومنهم حسن شعبان وقد تدثرنا بمعاطفنا اتقاء للمطر والبرد، وكانت تباشير الفجر قد بدأت تلوح في الافق وكنا قد قضينا ليلة هادئة نسبياً فنسينا ما كنا فيه وبدانا نقطع الفترة الباقية أمامنا للعودة الى منازلنا بالاحاديث التافهة فكدنا ننسى ما يحيق بنا من اخطار وفجأة سمعت صوت قاسم يصيح بي: زياد فارتميت على الارض منبطحاً ورأيت امامي سيارة جيب بريطانية مقبلة من طريق الجبل تحاول ان تدخل الحى العربي وصحنـــا بالسيارة ان تتوقف فكان ردها علينا ان اصلتنا بنيران رشاشاتها.. وسمعت الرصاص ينهمر قربي فادركت اني هالك لا محـالة :. ودهشت حينما لم أشعر باية رصاصة تصيبني .. ورأيت احـــد الجنود الانكليز يصوب رشاشه الي من جديد ... وكان قد اصبح على بعد خطوات مني وفي مثل لمح البصر انتزعت قنبلة يدوية من

جانبي ونزعت حلقتها والقيت بها على السيارة امامي وقد اخفيت رأسي جيداً تحت المتراس الذي كنا قد اقمناه . وسمعت صوت الرصاص ينهمر قربي بكثرة . ثم سمعت صوت انفجار هـــائل ورأيت احد الجنود يقفز من السيارة وبيده الرشاش ويحاول ان يولي هاربا ولكن قاسم كان أسرع منه فامطره برشاشه فخر مضرجاً بدمائه ..

وساد السكون من جديد .. وتحسست نفسي فاذا بالدماء تسيل من احدى كتفي .. وربطت الجرح.. كان طفيفاً لا يدعو للقلق .. ونظرت حولي اتفقـد رفاقي فاذا بحسن شعبـــان غائص الى جانبي في بركة من الدمــــاء واسرعت اليه وهززته وناديته ولكنه كان جثة هامدة وقد اخترقت عشرات الرصاصات صدره .. وتعاونت مع قاسم ونقلنا جثته الى اهله .. ولم نلبث هناك الا برهة .. وحينما كنا نغادر ذلك المنزل عائدين كان صوت النواح والعويل قد بدأ يتردد صداه فيصل الى اذاننا مريراً قاسياً ...

وفي الطريق التفت قاسم الي وقال بصوت جليل حزين :لقد سبقنا الى الاستشهاد ولكن من يدري متى يأتي دورنا ؟ وشعرت بالاسى يعتصر قلبي فسكت عن الكلام وكنت اعرف مقدار محبة قاسم لحسن وكثيرا ما كانا يأتيان معا لزيارتنا برفقة منير . ولكن الثورة كانت تعتمل في نفس قاســـم فقبض على رشاشه بشدة وصوبه الى الامام بعصبية وحسبته سينهال بالرصاص على احـدهم ولكنه قال لي بعصبية : القتلة المجرمون سأقضي عليهم

جميعاً ، وبدأ يحرك الرشاش الى اليمين والى اليسار بجده وهو يقول : لن يبقى بعد اليوم قاتل ساجتثهم من جذورهم . لعنة الله عليكم ايها الانكليز وعلى الساعة التي دنستم بها ارض بلادنا.. كذب كذب كل ما علمتمونا اياه عن حضارتكم ، اني اكرهكم جميعاً وأكره كل ما تمثلون اكره شكسبير لأنه واحد منكم بل اني اكره نفسي لأني اعرف لغتكم ، وقبل ان تهدأ ثورته أمسك برشاشه وقذف به ارضاً وهو يقول بعصبية : كذب كلها الحياة .

كان منظره في ثورته يبعث على الرهبة . كان يبدو وكأنه فقد السيطرة على اعصابه وقمت الى رشاشه فحملته معي ومد يده بهدوء وتناوله مني وبقيت أتأمله بصمت ولم ينبس بكلمة فخيم صمت حزين بيننا وظللنا نسير جنباً الى جنب دون ان نتبادل الاحاديث فترة من الزمن وأخيراً خرج قاسم عن صمته وقال لي : بصوت هادىء متئد : ان قضيت يوماً فاوصيك يا زياد ان تخبر أهلي بالا يبكيني احد وبعد فترة صمت قصيرة اجبته : ما زلت في مطلع شبابك وما زالت امامك حياه طويلة تعيشها ، فرد علي قائلاً : ولكن لا بد ان يموت الكثيرون قبل ان تستقل بلادنا ، واجبته : ستحتاج اليك فلسطين بعد الاستقلال مواطنـاً كما احتاجتك مقاتلا يقوم باعمال البطولة بشجاعة .

كنا نسير في الظلام ولم يكن يعكر السكينة من حولنا سوى وقع اقدامنا وكانت الغيوم تحجب عنا النجوم وكنا قد انعطفنا الى شارع ضيق تقاربت البيوت فيه ، وكانما كان قاسم

ينتظر جملتي الاخيرة فالتفت الي ولم استطع ان اتبين ملامحه جيداً ولكن نبرات صوته كانت تنم عما يعتلج في نفسه ، وقال لي : لقد سئمت حياة البطولة اريد ان اعود الى مقـاعد الصف بين زملائي طالباً يفاخر بقلمه لا ببندقيته . فاجبته ولكن في حيـــاة البطولة لحظات من المشاعر الزاخرة لا يمكن للانسان العادي ان يعرفهـا ، وهنا انتفض كلية وامسك بي من ذراعي وكنا قد اقتربنا من منعطف جديد على جانبه مصباح كهربائي خافت فبان وجهه صارماً ،قال: يوم قمت بعملية النسف كنت في كل لحظة وجهاً لوجه امام الموت كنت اتحداه، كنت اشعره يزحف على نفسي بسرعة وكنت اسخر منه ولكني في النهـاية انا ايضاً عرفت الخوف شعرت بالموت يغزو قلبي كان شعوراً مضنيـــاً ولكني لم اتراجع . كانت الحياة على بعد امتــــار مني في الحي العربي ولكنها بدت لي بعيدة جداً جداً ... فاستبدت بي رغبة فاجعة بأن اعود الى الحياة ... ومرت بمخيلتي صورة امي حين سيحمل لهـــا بعضهم جثماني كما فعلنا نحن اليوم وتصورت ما سيحل بها اذا خرقت هذا القلب الذي يفيض بحبهـا رصاصة . وصمت قليلا ليستأنف كلامه : لا اريد ان اكون بطلا احمل الموت شبحاً ملازماً لي اريد أن اكون انساناً عادياً مجهولاً يدخل الفرح الى قلوب والديه وزملائه ويشيع السرور اينما حل.. كانت الكلمات تتدفق سريعة في البدء من فم قاسم وكانه يعري نفسه وهنا صمت قليلا وتخلت يداه عن كتفي ولكنه لم يلبث ان قال لي ثانية وكانه يقرر امنية بعيدة المنـــال : لا شيء يساوي

حياة بسيطة هادئة .

وعاد الصمت يخيم بيننا فقطعه قاسم من جديد وقال بصوت هادىء خطير : ما اقسى ما تبدو الحياة انها اشد ظلاماً من هذا الليل البهيم . الامـــال الكبار والطموح اللامتناهي والشباب الجارف ثم رصاصة ويتلاشى كل شيء فلا تبقى سوى الحسرة في قلب ام رؤوم والغصة في فؤاد اب مفجوع .

٨

في الليلة التالية كان البرد خفيفاً ناعماً ولكنه يخترق اللحم ويصل الى العظم دون استئذان وكنت اقوم بالحراسة على حدود منطقة فاصلة بين الاحيــاء العربية وهدار كرمل حيث يقطن اليهود وكنا دوماً مهددين بالخطر لان موقـع دفاعنا كان ضعيفاً اذ كان اليهود يحتلون كل المنطقة الجبلية فوقنا مما يجعلهم في مركز حصين ويجعل المنطقة العربية الامامية تكاد تكون تحت رحمتهم.

وانتصف الليل والتحمنا مع بعض المتسللين بمعركة قصيرة ، اعقبها سكون مطبق . ومرت فترة ترقب .. وبعد نحو ساعة سمعت جلبة خافتة فامسكت بالرشاش في حالة تأهب.. وتقدمت الى الامام.. وسمعت الضجة تتضح.. كانت هناك حركة دائبة.. وحدقت لعلني استطيع ان اتبين ما يجري ولكن الظلمة كانت شديدة .. وفجأة رأيت أشباحاً تسرع بالجري .. وسمعت بعد ذلك هدير سيارة شحن كبيرة تنطلق .. واسرعت اطلق النــار .. ولكن السيارة كانت قد انطلقت سريعة .. واقبل

بعض رفاقي على صوت الرصاص .. وقبل ان يسألوني عما جرى سمعنا صوت انفجار مريع فانبطحنا ارضاً .. وتلا الانفجار الاول انفجار ثان اشد منه .. ثم رأينا نيران تشتعل ويعقبها انفجار ثالث فرابع واعقب صوت كل انفجار صوت انهيار .. واحسسنا بالارض تميد من تحتنا .. واستولى الجزع على نفسي . وسمعت قاسم يصيح: انظروا...، التفتنا الى حيث اشار وفي تلك اللحظة دوى انفجار هائل جديد ورأينا البناية التي امامنا على بعد بضعة امتار تتراقص قليلا ثم تنهار بكاملها .. وبرد الدم في عروقي فجمدت مكاني انتظر الكارثة باستسلام .. وامسكنا انفاسنا خوفاً . ومضت لحظات رهيبة .. وحينما لم نسمع صوت انفجار جديد قمنا مسرعين نعدو نحو البناية المنهارة . كانت قد اصبحت كومة من الانقاض .. بل مقبرة حقيقية .. ورأينا الجثث التي تناثرت .. وكان هناك بعض الضحايا الذين كانوا يحاولون ان يخرجوا من بين الانقاض فساعدناهم على ذلك .. وبدأت برفع بعض الانقاض وصعقت حينما رأيتني فجأة أمام ثلاثة اطفال بثياب النوم وقد اضطجعوا جنباً الى جنب وقد تشوهت وجوههم واصبحوا جثثاً هامدة .. وعند ارجلهم رأيت امرأة ملقاة على وجهها بثياب النوم وقلبتها . كانت جثة هامدة ولكن عبارات الفزع كانت مرتسمة بوضوح على وجهها.. ويبدو انها سمعت صوت الانفجار فقامت راكضة الى اطفالها ولكن المنية عاجلتها هي واطفالها فماتت عند اقدامهم.. ولست ادري لماذا اذكر كلما سمعت احداً ينادي بالعدالة صورة هذه

المرأة الميتة عند اقدام اطفالها واتصور العدالة في هذه الحياة أمرأة جاءت لنجدة ابنائها فماتت معهم قبل ان تتمكن من احتضانهم وتقبيلهم قبلة الوداع .

عدت الى البيت مع الفجر منهوك القوى فرأيت الذعر يستولي على اهلي .. وحينما وقع نظر امي علي اسرعت نحوي واحتضنتني واجهشت في البكاء . واستيقظ اخي سمير واقبل نحوي يتأملني مشدوهاً وقد ظن ان مكروهاً قد احاق بي .. وسألتني امي عن أخي الاكبر منير فأخبرتها اني لم اره الليلة اذ كان يقوم بالحراسة في جهة أخرى . ولكي أدخل الطمأنينة الى قلبها قلت لها : أنه لا بد وسياتي بعد قليل فلا داعي للقلق ، ولكنها عادت تستفسر مني عن الانفجارات التي هزت حيفا بأكملها الى ساعات قليلة فصمت وقرات على وجهي علامات الحزن العميق فعادت تلح بالسؤال فاخبرتها الحقيقة بايجاز فلم تتمالك نفسها عن ارسال شهقة رعب ونظرت الى وقالت :

– الى متى نقيم في حيفا وقد اصبحت جحيماً ؟

– لقد ولدت هنا ولن اترك هذا المكان الا الى القبر .

– ان الناس يغادرون حيفا كل يوم بالمئات ولن نظل هنا بعد اليوم يوماً اخر .

– ان مكاننا الطبيعي هنا وسندافع حتى النهاية ..

– وما هي النهاية ؟

– الموت ...قلتها بصوت جاد رزين فصرخت امي قائلة :

–كلا..كلا لن نبقى هنا سنمضي هذا الصباح الى عكاء اوالى

أي بلد آخر ولكننا لن نبقى في حيفـا .. لن نبقى يوماً آخر والموت يحيق بنا من كل ناحية سياخذ ابوك اجـــازة من عمله وسنمضي جميعاً . لن ابقى هنا ليلة اخرى .

– باستطاعتك ان تمضي أنت وأبي وأخي سمير واختـاي ومن شئت اما انا فلن ابرح حيفا ..

– انك تقول هذا وانت تعلم أننا لايمكن انن نذهب ونتركك وراءنا ..

وحينما لمست اصراري هذا ورأت ان كلماتها لم تستطع ان تزحزحني عن موقفي استسلمت لدموعهـا ثم احتضنتني وهي تجهش بالبكاء والقت برأسها على صدري وقالت : لا لن تلوعني بك .. لن اعيش بدونك .. ستمضي معي في الصبـاح .. لن اتركك تموت هنا ..

ونظرت الى اخي سمـير قرب امي فألفيته يبكي بصمت فاقـتربت منه وقبلته وقلت له : لا تبك .. ستنتهي الحرب قريباً .. وستبتسم حيفا من جديد .. وستعود الى مدرستك .. وسيحمل الربيع القادم تباشير الحيـاة من جديد . فنظر الي المسكين وقال لي وكأنه لا يصدق كلماتي : ستنتهي الحرب حقاً ولن نعود نسمع صوت الرصاص والقنابل؟ ولن تعود تتركنا انت واخي منير كل ليلة ؟ ستعود وتنام قربي قريباً ؟ وكان في اقواله كثير من التلهف فاجبته قائلاً : طبعـــاً ساعود اليك وساظل دومـــاً قربك . وعجبت للصغير يجهش بالبكاء قائلا بصوت متقطع : أني اعرف انك تخدعني .. انك تظنني صغيراً

لا أفهم هذه الامور .. أنت لن تعود لتنام قربي .. ستمضي كل ليلة وتتركني وحدي ، واستلت كلمـــاته الدموع من عيني رغم أنفي ..

ومضيت واضطجعت في فراشي واخذتني سنة مـن النوم فاغفيت بضع ساعات ولم استيقظ الا نحو الظهر . والفيت امي جزعة وقالت لي حينما قمت من النوم بأن أخي منيراً لم يعد بعد وهي تخشى ان يكون قد اصابه مكروه .وحاولت ان أطمئنها ببعض كلمات ولكني في قرارة نفسي كنت اشعر بالقلق مثلها .

واقبل العصر وأخى لم يعد. وفجأة انطلق سيل من الرصاص من بيوت بعض اليهود نحو الشارع الذي يقع فيه بيتنا. وحاولت ان أمضي لابحث عن أخي ولكن الرصاص كان ينهمر بغزارة ودون انقطاع وقد تحول الشارع الى ساحة حرب.. ولم ينقطع الرصاص طيلة تلك الليلة فبقيت سجيناً في البيت مع اهلي.. وفي الصباح لم نستطع ان نخرج الى الشارع لنبتاع شيئاً من الطعام فاضطررنا الى أن نأكل مما وجدناه في البيت ..

واقبل عصر ذلك النهـار ولم يقبل اخي منير فبدأ اليأس يتسرب الى قلبي .. وكانت امي كلمـا سمعت صوت الرصاص قالت متحسرة : أين منير ؟ اين ولدي ؟ ولم اطق ان أصبر على رؤيتها على تلك الحـال فصممت على الخروج من البيت بأي ثمن فقمت الى بندقيتي وحملتهــا وحاولت ان اتسلل منطلقاً الى الشارع ولكن امي لحقتني فأسرعت الي ورمت بنفسها علي وقالت لي : أين ستمضي ؟ الا تسمع صوت الرصاص ؟ انهم سيقتلونك

قبل ان تخطو بضع خطوات .

وعدت الى البيت ودخلت غرفة نومي فجأة دون ان احدث ضجة فألفيت سميراً راكعاً على سريري وقد رفع يديه الى العلاء يصلي بحرارة ويبتهل الى الله ان ينهي الحرب وان يعيد منيراً سالماً وسمعته يقول : يا رب انا احبك كثيراً ولم اطلب اليك شيئاً في السابق .. ارجوك ان تشفق على امي وعلي انا وترجع اخي منيراً الينا .. اني ارجوك لأني احبه كثيراً . سترجع لي اخي اليس كذلك ؟ وستوقف الحرب . ولن يعود اخي زياد يتركنا .. وسنبيع البندقيتين اني اكرههما . وبقيت جامداً أتأمله وقد استغرق بدعائه الساذج حتى انتهى منه فقام والتفت وراءه وحينما رآني قال لي بلهجة مؤثرة : الم يعد منير بعد ؟ فمضيت اليه وحملته وقلت له وانا اقبله : سيعود عما قريب يا حبيبي .

وعند المساء بدأ انهيار الرصاص يخف ومرت فترة ترقب وانتظار .. وما لبثنا ان سمعنا بعض الجلبة في الحديقة من الجهة الجانبية . فتوجسنا خيفة واسرعت الى بندقيتي فجهزتها ولبثت ارقب ما سيحدث ثم رأيت شخصاً يقفز سور الحديقة الى الداخل ولم اتبين ملامحه من الظلام الذي بدأ يخيم .. واخفت الاشجار الشخص . فصوبت بندقيتي نحوه وصرخت قائلاً : من هناك .. مكانك .. وسمعت صوت اخي منير يقول لي : انت حارس

امين يا زياد .. لقد جئت ومعي ضيف .. ولم اصـدق اذني فأسرعت راكضاً نحو منير وانا اصرخ بأهلي : منير .. منير.. لقد عاد منير ومضيت الى منير واحتضنته ثم بـــدأت امطره بالأسئلة . وحين حانت مني التفاتة الى ورائي رأيت شاباً غريباً ينتصب بقامته المديدة وقد حمل بندقية بيده . ونظرت اليـــه متعجباً ولكن اخي سارع يعرفني عليه قائلاً : الم اقل لك معي ضيفاً .. الأخ رشيد متطوع من لبنان . وقد امضيت معه هذين اليومين .. وقمنا ببعض المغامرات سوية .

وامضى رشيد ليلته معنا وكانت ليلة ممتعة قضيناهـــا في احاديث المغامرات .. واعجبني حماس رشيد الذي دفعه لأن يترك بلده الآمن الهـــادىء ويأتي ليواجه المصاعب ويتحدى النيران .

واخبرنا انه جاء مع رهط من الشباب وقد رأى بعينه بعض رفاقه يسقطون مضرجين بدمائهم ...

وفي الصباح عاد المنزل اليهودي المواجه للشارع الذي نقطن فيه يطلق النيران علينا بكثرة . ورأيت التأثر يبدو جلياً على وجه رشيد ولمست في عينيه بريق التصميم .. وتنبهنا فجأة اليه فلم نعثرعليه وتفقدناه فرأيناه ونحن في الشرفة يتسلل الى الشارع وبيده بندقيته .. وحينما بلغ الشارع رأيناه يسرع فينبطح ارضاً ويختبىء وراء احد اعمدة الكهرباء.. وبدأ سيل الرصاص ينهمر

علينا من جديد .. ولكنه لم يكد يبدأ هذه المرة حتى انقطع ..
وسمعنا صرخة استغاثة دوت في الحي اليهودي ثم ما لبثت ان
ماتت سريعاً .. وانقطع سيل الرصاص عنا . وعاد رشيد وقد
امتلأت اساريره .. وتناول طعام الغداء معنا. ولم نكد نفرغ منه
حتى الفيناه يعود فيسارع الى استحكامه .. وانتظرنا برهـة
نراقب مـا سيجري وفجأة سمعنا دوي رصاص ورأينا رجـلاً
يسقط من شرفة المنزل الى الشارع في الجهة المقابلة .. وبعدهـا
امضينا اياماً هادئة اذ انقطع سيل الرصاص عنا من جيراننا .

واخذت كل يوم اخرج في الصباح فلا أعود احيانـاً الا في
اليوم التالي وكثرت تغيباتي عن البيت اذ بـدأت الحالة تزداد
سوءاً . وعدت عصر يوم الى البيت من الجهة الخلفية فلم أجـــد
رشيداً فظننته خرج في احدى مغامراته فلا يلبث ان يعود ولكني
لم أكد أدخل البيت حتى الفيت الوجوم يخيم على اهلي.. وسألتهم
عما جرى فقالوا لي : لقد خرج رشيد قبل ساعات الى استحكامه
كعادته.. وبدأت بينه وبين الحي اليهودي المجاور معركة رهيبة
هائلة اشترك فيها من الجانب الآخر ما لا يقل عن عشرة وكان
وحده ولكنه استطاع ان يصمد بشجاعة .. وكان قد اصيب في
كتفه ولكنه لم يكترث لذلك وقد ناديناه ليعود ولكنـــه لم
يكترث لندائنا .. وبينما كانت المعركة ما تزال محتدمة اقبلت
مصفحة انكليزية من خلفه فأطلقت عليه نيرانها..وسمعناه يرسل

في الفضاء صرخة مدوية ثم تسقط بندقيته من يده ويسقط فوقها جثة هامدة ..

وظل الانكليز يرابطون بمصفحاتهم قرب منزلنا طيلة ذلك النهار . وفي الليل مضى الانكليز وكانت جثة رشيد ما تزال ملقـاة في الشارع فمضيت انا واخي الأكبر وتسللنا خفيـة الى الخارج وتعاونا على نقلها الى الداخل .. كان الرصاص قد مزق صدر صاحبها تمزيقاً .. وجاءت امي فألقت نظرة عليها ثم قالت: مسكين .. ليس له من تبكيه .. يموت بعيداً عن بلده وأهله .. واغرورقت عيناها بالدموع فلم تستطع ان تحبسها .

ومضيت الى زاوية في الحديقة وبدأت احفر بسرعـة . . . كان القمر يرسل اشعة شاحبة قاتمة . ومـــا لبثت الغيوم ان اخفته .. وبدأ المطر يتساقط فلم اعبأ به وتابعت الحفر ولكن الأمطار تـكاثرت فاصبح التراب موحلا. وعدت الى البيت انتظر ريثما ينقطع المطر ولكن الغيوم امطرت بغزارة في تلـك الليلة فاضطررت أخيراً ان أعود لاتابـع الحفرمع اخي تحت الامطار. وعدنا الى داخل البيت لنحمل الجثة الى مثواهـــا الأخير .. وحانت مني التفاتة فرأيت اخي سميراً يتأمل الجـثمان بصمت وينظر الى الأماكن التي اخترقها الرصاص . فالتفت اليه وقلت له : الم تنم بعد يا سمير ؟ لا بد انك نعسان الآن ؟ فاجابني على الفور قائلاً : لست نعسان ولست خائفاً. ولكن اين امه واهله؟

الن تأتي أمه لتراه وتأخذه ؟ فأجبته قائلا : سنأخذه نحن الى اهله بعد قليل .

وحينما عدت الى البيت بعد الانتهاء من دفن الجثـة وتسوية التراب فوقها رأيت سميراً ينتظرني أمام الباب فبادرني بالقول حين رآني : آه لقد عرفت لمَ لم تأخذوه الى امه.. لقد دفنتموه وحده ... اهكذا يفعل الناس بكل الذين يمـوتون ؟ الا يرى الأموات امهاتهم قبل دفنهم؟وكان في لهجته رنة لوعة فاحتضنته وقلت له : لا تخف يا حبيبي .. انت ستبقى دوماً مع ماما . . ولن تفارقها .

٩

اقبل ابوقاسم بصحبة ابنه قاسم عصر ذلك اليوم وقد بدأ آذار يعلن انتهاء الشتاء واستقبله ابي بالحفاوة كعهده ، وما ان اتخذ للضيفان مكانهما حتى بادرهما ابي قائلا بفرح : الم أقل لكما بأن الله معنا ارأيتما ما فعله البطل انطون بالامس في القدس لقد دك الوكالة اليهودية بمفرده . يحيا البطن الذي حمله . وكأنما سرت عدوى الحماس الى ابي قاسم فقال :

– انه حقاً بطل اذ استطاع ان يخدع السلطات البريطانية واليهود على السواء حين رفع على سيارته العلم الاميركي . وقال ابي مقاطعاً: وظنها اليهود سيارة صديق لهم ولم يعلموا انها تحمل الدمار والموت فما ان تركها أمام معقلهم وفر حتى انفجرت فهزت القدس كلها وقتلت خيرة زعمائهم . وهنا تدخل قاسم

فقال : حقاً لقد قتل عدد كبير من الشخصيات اليهودية البارزة» وعاد ابي يقول : ليست هذه الا البداية وسيرون ايضاً العجب لن تتوقف اعمال التدمير بعد اليوم ، في الشهر الماضي نسف الفدائيون شارع بن يهودا في القدس حين تركوا في صميم المنطقة اليهودية سيارة شحن مليئة بالمتفجرات فانفجرت وهدمت بناية جريدة البالستين بوست وغيرها من الابنية وقضت على العشرات . والآن نسفت وكالتهم وقريباً ننسفهم جميعاً دفعة واحدة ونستريح. قال ابي الجملة الاخيرة بكثير من الحماس والاندفاع بل قالها وهو يضحك .

ثم تشعب الحديث وبعد فترة قال ابو قاسم : الواقع اننا جئنا الى هنا لأن قاسم سيودعكم الآن فهو سيسافر غداً أو بعد غد الى لبنان مع بعض الشبان لشراء السلاح والذخائر . والتفت ابي الى قاسم وقال : على بركة الله » ثم سأل : « وهل سيطول غيابكم » ورد قاسم : « هذا يتوقف على الظروف التي ستصادفنا » وقال اخي منير : ساذهب انا معك » ولكن قاسماً قال له : « كلا فمن الافضل ان تظل هنا حيث انت في الحراسة ولكن اخي منيراً عاد يلح في مرافقة قاسم وصحبه وقاسم يلح عليه بالبقاء . واخيراً قبل اخي بالبقاء وقال لقاسم : ولكن انتبهوا جيداً فللعدو عيونه وآذانه . ورد قاسم : لقد احطنا امر سفرنا بالسرية التامة ولن يعلم أحد بالطريق التي سنسلكها ولا

ولا متى سنسلكها. وقال ابي : وهل انتم بحاجة ماسة الى السفر » ورد قاسم : « الواقع يا ابا منير ان وضعنا حرج فبدل الجيش الواحد المتماسك عندنا جهاد مقدس له في كل منطقة قيـــادة مستقلة . والاخطر من ذلك ان كلا منا يملك سلاحاً يختلف عن الآخر فبعضنا يملك بنادق انجليزية وبعضنا يملك بنادق المانيـة وبعضنا يملك بنادق فرنسية وبعضنا يملـــك رشاشات من شتى الجنسيات والانواع وهذا يخلق امامنا مشاكل صعبة فأحياناً لا نجد عندنا اية ذخيرة المانية فتتعطل جميع الاسلحة الالمانيـة التي نملكها . سنحاول ان نبتاع من لبنان اسلحة من نوع واحـد أو نوعين على الأكثر اذ يبدو اننا مقبلون على ظروف صعبة » وقال والدي : « الواقع ان الاحوال تتدهور بسرعة ولكن النهـاية معروفة سلفاً فلم يعد بيننا وبـين انتهاء الانتداب سوى شهرين وبعدها ستطبق الجيوش العربية السبعة على اليهود ولن يكون امامهم سوى الاستـلام » ورد قاسم بلهجة تـــنم عن الشك : « ولكن من يدري ماذا يحدث خلال الشهرين .

وحين جاء قاسم ليودعنا شد اخي منير على يده وهو يقول له : « رافقتك السلامة ، وان شاء الله نراك بيننا بعد ايام وقـد اتيتنا بالسلاح المطلوب لنقوم ثانية بمغامرات جديدة .

وبعد بضعة ايام عاد اخي منير ظهراً ونحن نتناول طعـام الغداء والحزن يرتسم على وجهه وسألته امي ان يشاركنا الطعام ولكنه قال انه غير جائع . وعلمت انه يكتم خبراً محزناً عنا .

فسألته ما بك ؟ ولكنه ظل صامتاً قليلاً ثم قال بهدوء حزين : « لقد قتل قاسم » واجفلت بكليتي للنبأ وقفزت عن مقعدي وتوجهت اليه قائلا : « ماذا ؟ قاسم مستحيل » ورد علي ثانية : « بلى قاسم لقد تأكد الخبر وكنت عند اهله قبل قليل ، وعدت اصيح به : ولكن كيف ؟ متى ؟ » وكان تساؤلي سيخفف من وقع الفاجعة . وتوقفنا جميعاً عن متابعة الأكل واصغينا بذهول: « لقد وصل قاسم ورفاقه الى لبنان وابتاعوا كل ما شاؤوه من اسلحة وذخيرة وعادوا بها خفية بسيارات شحن يحرسها بعضهم وتمت العملية بسلام ولكن ما ان وصل الموكب امام مستعمرة نهاريا حتى انهال الرصاص عليهم من كل صوب .فادرك الشبان انهم وقعوا في كمين فردوا على النار بالمثل وقامت معركة بين الجانبين ولم تلبث القنابل الثقيلة ان انهالت بكثرة على الفدائيين اذ كان اليهود قد استعدوا استعداداً تاماً للعملية ويظهر ان سيارة قاسم قد اصيبت اصابة مباشرة فقفز منها قبل ان تنفجر ولكن أحد اليهود عاجله برشاشه . لقد كانت معركة قصيرة ولكنها كانت بشعة جداً اذ لم ينج أي واحد من شبابنا بل قضوا جميعاً قبل أن يستطيعوا ايصال السلاح الينا .

ولم اتمالك نفسي ان قلت : « القذرون لا بد انهم علموا من أحد عملائهم بالقضية . ورد منير : « بل الارجح ان الانجليز علموا بالامر فاخبروا اليهود بذلك لأن السلاح لو وصل الى ايدينا لباءت جميع خططهم بالفشل حتماً .

وشرد فكري الى بعيد، الى تلك الليلة التي فتح لي قاسم فيها قلبه والفيت بالدموع تنساب من عيني . لن يعود بعد اليوم يدخل الفرح الى قلوب والديه وزملائه بل ستظل ذكراه غصة مرارة في قلوب جميع عارفيه . هذا الطموح المتدفق ، هذا الذكاء المتوقد لم يعد سوى جثمان ملقى على قارعة طريق وقد مزقه الرصاص .

وحين رأيت اباه للمرة الأولى بعد فاجعته بدا لي انه كبر فجأة عشرين عاماً وان الموت قد امهله ليمد في احزانه .

١٠

اقبل الربيع وحيفا ما تزال جحيماً . فلم أعد ارجـــع الى البيت الا لفترة قليلة واقبل نيسان يحمل لنا بدل الشذى العطر رائحة البارود والدماء وبدل الفرح جاءنا بالمفاجآت الأليمة .

كان الليل قد بدأ يزحف على المدينة اسود كالحقد العامر في القلوب . وكان صوت الرصاص لا يـكاد ينقطع وانتفضت امي واقفة وصاحت بي «لقد سئمت هذه الحياة . سئمت هذا السجن ساصاب بهستيريا . فليقف اطلاق الرصاص . فليقف اطـــلاق الرصاص . ان صوته يفقدني اعصابي » وصمتنا جميعاً ولكن امي عادت تصيح « لا لن ابقى هنا بعد الان ساعة واحدة » ثم امسكت بي وقالت : « ماذا تنتظر لتترك حيفا ؟ سيأتون يوماً

ويذبحونا جميعاً كما فعلوا بالأمس في ديرياسين » وما كادت امي تلفظ جملتها الأخيرة حتى هببت واقفاً ممسكاً برشاشي وقلت « سأقتلهم جميعاً قبل ان يجتاز أحدهم عتبة الدار . بل سأخرج الان واصرعهم جميعـــاً » وكنت في حالة هستيرية من الهياج ووضعت اصبعي على الزناد وبدأت أحرك الرشاش وكأني بدأت أصرعهم فعلا وهممت بالخروج ولكن امي اسرعت الي تمسكني وهي تصرخ : « ولكن الانجليز سيصرعونك حالما تخرج الى الشارع كما فعلوا برشيد وحسن وقاسم »وصحت انا بها : ولكني لست احسن ممن قتلوا » وصاحت بي ثانية : « ولكني لم اتألم في السهر عليك كي يعود بك الناس محمولاً على الأكف » وصحت بها : « اتركوني اتركوني سأقتلهم جميعاً الانجلـــيز واليهود على السواء سأنتقم لأطفال ديرياسين . سأنتقم لقائد الجهاد ، ولكن ارتمت علي بكل ثقلها وهي تقول :«الانجليز يرابطون في الشارع أمام بيتنا وان رأوك تحمل سلاحاً صرعوك رأساً » . وصحت انا بها في غمرة اندفاعي : « ولكني سأصرعهم جميعاً قبل ان يفتحوا علي النار » وبدأت امي بالبكاء وهي تقول : لا لا انهم يرابطون بدباباتهم لقد رأيتهم بنفسي هذا الصباح،ولن تستطيع ان تقاوم شيئاً ستذهب حياتك سدى ، والتفت اليها وتلاقت عينانا ، كانت الدموع تسيل بسخاء وقد جحظت عيناها فزعاً وابتهالا واجفلت بكليتي ووقفت جامداً في مكاني وبعد لحظة القيت برشاشي جانباً واستلقيت متخاذلاً على اول مقعـــد صادفني .

وعدنا نسمع صوت الرصاص في الخارج يتخلله من حين لآخر صوت بعض الانفجارات وعادت امي تقول : سنترك حيفا غداً الى عكا ورددت وانا احاول ان ابدو هادئاً : « لن نخرج من هنا الا على أسنة الرماح » وفطنت بعد القيت بهذه الجملة الى انني رددت غير قصد عبارة كنت قد حفظتها في أحد دروس التاريخ وما لبثت امي ان قالت لي : وماذا سنبقى نفعل هنا ؟ هل ننتظر العصابات اليهودية لتأتي وتذبحنا كالنعاج ؟ وقلت بهدوء ولكن باصرار « سنبقى هنا ندافع عن كل شبر نملكه » وهنا تدخل ابي وقال ؟ وما جدوى المقاومة ؟ وهل نستطيع نحن أن نقاوم بريطانيا العظمى التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها « وهنا صحت به : بريطانيا السفلى التي لا تغيب الشمس عن جرائمها « وظل ابي على هدوءه وقال لي : لقد نصحني أحد موظفي الانجليز معي في العمل في دائرة الجمارك بأن اترك حيفا انا واسرتي الى عكا ، او الى الجليل في اقرب وقت لأن اموراً كثيرة مفاجئة ستقع في الأسابيع القادمة قبل موعد الجلاء .

وقد اخبرني انه انما فعل ذلك لأنه يقدرني ولا يحب ان يقع لي أو لأحد افراد اسرتي أي سوء وحين انتهى ابي من الكلام قلت له : ولكن هذا ما يريده بالضبط الانجليز واليهود منا . يريدوننا ان نهجر حيفا لتكون لقمة صائغة لهم وقال ابي ولكن سواء تركناها أم لم نتركها فالانجليز سينفذون ما يريدون بالقوة . ورد اخي منير : ونحن هنا لنمنعهم بالقوة » . وعاد

ابي يقول لي ولمنير : اسمعا من مجرب خبر الحيـاة وعاش فترة الثورات والكنني بقيت مع منير على اصرارنا وهنا تدخلت امي وقالت لي راجية باكية « لا من اجلي انا بل من أجل هـــذا الصغير » وامسكت باخي سمير ثم أضافت « من أجل اختيك الصغيرتين » وكان منظرها امواساً حادة تقطع نياط قلبي ولكني لم انبس بكلمة ، فنظرت الي ثانية وقالت من خلال الدموع : الم تسمع ماذا فعلوا في دير ياسين،الم تتصور الجريمة ؟ ثم صاحت مولولة : لقد قتلوا الاطفال، قتلوا الصغار وذبحوا النساء وبقروا بطون الحوامل ولم يرحموا الشيوخ، قتلوا الجميع . قتلوا الجميع. حين كانوا يطعنوا امرأة بالسلاح الأبيض رآها طفلها الصغير فقال له احد السفاحـــين : لا تبك فالحربـــة حادة وسيأتي دورك «سيذبحونني غداً وسيبكي سمير فيقول له المجرم لا تبكِ فالحربة حادة . ولم تستطع اعصابي ان تتحمل المزيد فصحت بها : لن يمسكم احد بسوء وفي نفس ينبض .

وامسكت امي بي وهي تبكي ولكنهم سيفجعونني بك . سنرحل . سنرحل .. وصحت لن نغادر هذا المكان . لقد ترك الانجليز مجرمين عصابتي الارغوان وشترن يذبحون جميع سكان قرية ديرياسين في نيل بهم ويمثلون بجثث القتلى ويلقون بها في بئر ليزرعوا الرعب في قلوب العرب . لنهرب خوفاً من المصير ذاته فليفتكوا بنا جميعاً ولكننا لن نهرب سنقاوم حتى آخر قطرة

من دمائنا.

ساخرج الليلة وأقتل الف يهودي انتقاماً لدير ياسين . وقال منير « الانجليز المجرمون . اننا ما زلنا نعيش تحت انتدابهم . لقد حافظوا على أمن أهالي دير ياسين محافظة تامة، تركوا اليهود يبيدون القرية برمتها فساد الهدوء التام !»

وعادت امي الى الالحاح والرجاء بان نترك حيفا قائـــلة : « ليس لنا شيء هنا سنمضي الى الريف لشهر واحد الى ان يمر الخامس عشر من أيار ورددت أنا : لقد ولدنا هنا وسنموت هنا قبل ان نغادر هذا البيت سيمتزج ترابـه بترابنا » . ولم تيأس أمي من الألحاح فقالت ثانية : « سيقتلون أخاك الصغير لم يرحموا الصغار في دير ياسين » ورددت بهدوء . « ولكن حـــاولي ان تفهمي انهم انما فعلوا ما فعلوا لكي يدخلوا الرعب الى قلوبنا فنترك حيفا ونهرب بـــل هم يريدوننا ان نهرب من كل فلسطين ليقيموا دولتهم « وحين لمست أمي ان كل رجائهـا لم يزحزحني عن موقفي استسلمت لدموعها وكان قلبي ينفطر للحظة ولنت قليلاً فقلت لها : « لماذا لا تأخذين سميراً واختي وتذهبـــين الى الى الريف ريثما ينجـلي الموقف ؟ « وصاحت « لا لن اتركك وحدك هنا . سيقتلك الانجليز بعد أول يوم من رحيلي . فأنت متهور كأخيك منير . قلت : « اذن نبقى جميعاً » . فصاحت

بيأس : « لا لن نبقى فالجميع قد تخلو عنا ألا ترى كيف ان الجميع قـد تخلوا عنا وليس من يحمينا ؟ » ورددت باصرار : « نحن سنحمي انفسنا . » وردت امي من خلال الدموع وقـد ازداد يأسهـا أمام اصراري . « وهل حمى أهل دير ياسين أنفسهم ؟»

وهنا تدخل ابي من جديد فقال بعد ان لمس اصراري انا ومنير على البقاء في حيفا مهما غلا الثمن : « فلنترك حيفا الى الريف فبعد شهر ينتهي الانتداب البريطاني وتأتي الجيوش العربية السبعة وتطبق على حيفا من جميع الجهات وتفتك باليهود »وكان أبي يقوم بهذا بمحاولة أخيرة لاقناعنا بوجهة نظره .

الا ان منيراً بادره الى القول : «الجيوش العربية» لقدسئمنا أحاديث الدول العربية فهي ضالعة مع الاستعمار البريطـاني ، لقد رفضت جامعة الدول العربية مدنا بالسلاح . لقد مضى قائد الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني الى دمشق يرجوهم مده بالسلاح لان القدس في خطر فماذا فعلوا معه ؟ ماطلوا انهـم يبخلون علينا بالسلاح فهل سيمدوننا بالرجال ؟ » كان منير يتكلم بحماس وعصبية في حين اجاب ابي بهدوء » ولكنهم يا بني ينتظرون انتهاء فترة الانتداب في الشهر القادم ليعلنوا الحرب على اليهود . فهم لا يستطيعون ان يدخلوا الآن في حرب مـع الانجليز ، « ورد منير ولكنا لا نطلب منهم ان يدخلوا في حرب مع أحد. نريدهم فقط ان يزودونا بالسلاح والباقي نحن كفيلون بـه » . وقال ابي : « ولكنهم يريدون ان يكونوا كرماء معنا فهل

نرفض ؟ » وتدخلت انا لاقول بعصبية « ولكنهم هم الذين قتلوا عبد القادر الحسيني قبل ايام . حجبوا عنه السلاح في اوج المعركة فعاد غاضباً متألماً الى القدس بعد ان وصلته انباء سقوط القسطل اثناء غيابه بايدي العدو . لقد استطاع اثناء وجـــوده ان يرد جميع هجمات اليهود الجنونيـــة على القسطل لاحتلاله اذ كان العرب بتل القسطل يسدون الطريق امام يهود القدس فيهددونهم بالاستسلام او الموت . وحين عاد جمـــع بعض رجاله وتقدم الصفوف وهاجم القسطل المحتل وحقق المعجزة برجاله القليلين وطرد اليهود . ولكنه التحم معهم في قمة التل فاصابته قنبلة من قنابل العدو المتراجع فزعا وقبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة رأى القسطل متحرراً .

وتنهد منير وهو يقول : « من المؤسف حقاً ان المجاهدين الذين احتلوا القسطل مع الشهيد قد هرعوا الى القدس لتشييع جثمانه ناسين انه اعطى حياته ليبقى القسطل عربياً فجاء اليهود واحتلوه ثانية دون مقاومة .

ورددت أنا : « لقد كانت الصدمة عنيفة انست المجاهدين حتى الدفاع عن القسطل ».

وقال ابي : « مهما يكن من أمر فكلها مسألة شهر وتزحف الجيوش العربية السبعة بأكملها من الشمال والجنوب والشرق فلا يبقى امام اليهود سوى الفرار عن طريق البحر عائدين مـــن حيث اتوا ».

وهنا لا ادري لماذا انفجرت صائحاً به : « لقد قتلوا عبد

القادر ولن يخدعونا باقوالهم المعسولة . سنخسر فلسطين لان بيننا كثيرين من امثالكم، ماذا عندكم غير سبعة جيوش عربية ستزحف . والله معنا . وان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وكم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بأذن الله ، والقينا عليهم الذل والمسكنة الى يوم القيامة ، وعن تاج اسرائيل قال منقلباً منقلباً منقلباً اجعلكم ، وأدركهم الغضب الى يوم القيامة ، « كنت حقاً عصبياً ومندفعاً وقد المني مصرع قائد الجهاد المقدس واخبار مذبحة دير ياسين وترك الحكام العرب لنا من غير أسلحة حديثة. وقد انفجرت بوالدي غاضباً حين لمست حكمته المتخاذلة ولكني ما لبثت ان هدأت بعد قليل فقمت اليه وانا أقول : « اعذرني ، انا لم اقصد .. ان السهر ورؤية الاصحاب يتساقطون قد ارهقا أعصابي كثيراً ، « ورد ابي بهـــدوء « لا بأس لا بأس يا بني فنحن جميعاً نعيش على أعصابنا في هذه الايام ونحمل ارواحنا على اكفنا ».

١١

نيسان مـــا يزال يبسط جماله على حيفا ولكن صوت الانفجارات لا يكاد ينقطع منذ ثلاثة أيـــام والمعارك تدور في الشوارع واهلي يلزمون المنزل ويقتاتون مما كانوا قد خبأوه تحسباً للطوارىء . وكنت انا وأخي منير نتسلل كل صباح بسلاحنا لنلحق برفاق الجهاد .

وذات يوم سبقني منير بالخروج وحين لحقت به كان الرصاص ينهال غزيراً على مواقعنا ورأيت امارات الجد مرتسمة بعنف على وجهه وبادرني الى القول : زياد لقد جاءت النهاية » وبادرت الى الاستفسار عما يعنيه فقال لي سيفعل الانجليز هنا اليوم ما فعلوه قبل يومين في طبريا » فصحت به ماذا ؟ هـــل سيسلموننا الى الهاجانا اليوم ؟ ولكنهم قالوا انهم باقون في حيفا الى آب القادم

وما زلنا في نيسان . ورد منير بهدوء ولكن بلهجة قاطعة :

اخبرنا الجنرال ستكويل انه عازم على سحب جميع القوات البريطانية من مراكزها الحصينة التي تفصل بيننا وبين اليهود وقد بدأت القوات البريطانية بالفعل الجلاء متجهة نحو الميناء مسلمة مواقعها بخطة مدبرة لليهود لقد بتنا الان مطوقين من جميع الجهات ... وقبل ان ينهي اخي كلماته رأيت اليهود يتقدمون تجاهنا بأسلحتهم الأوتوماتيكية الحديثة وفتحوا علينا النار وانسحب أخي منير قائلاً لي انه سيعود الى البيت لمساعدة أهلي في اليوم العصيب . ثم رأيت جموع اليهود تتدفق تجاه شارع عربي آخر وبداوا يلقون القنابل بغزارة واخذ صياح الاهلين وصراخهم يصلنا من بعيد . ثم عادت قنابل العدو تتساقط خلف خطوطنا ونظرت خلفي فرأيت الأهلين يخرجون من بيوتهم مسرعين خائفين وتكاثر الناس في الشوارع واشتد هجوم اليهود علينا ولكني صمدت مع نفر قليل من الاخوان . وكنا نأمل في كل لحظة ان تصلنا الامدادات العربية من القرى المجاورة ولكن أملنا ما لبث ان خاب سريعاً حين علمنا ان الانجليز يسدون جميع الطرق في وجه النجدات العربية . وبين الفترة والاخرى كانت تصلنا الأخبار المؤلمة عن تقدم اليهود في الاحياء العربية وهرب الأهلين فزعين من الا تتكرر مأساة دير ياسين ، وبعدها جاءنا من يقول بان مفاوضات هدنة قد جرت بين العرب واليهود حصرها الجنرال الانجليزي سكويل نفسه ولم تثمر المفاوضات

اذ تمسك اليهود باعتبار حيفا يهودية دون قيد او شرط .

واستمرت المعركة طاحنة لساعات بيننا وبين العدو ونحن صامدين وبدأت وطأة هجومهم تشتد علينا وبدأوا يقتربون أكثر فاكثر منا وبدأت نيران مدفعيتهم تدك البيوت العربية من حولنا ورأيت الناس يخلونها بفوضى والهلع باد على وجوههم . وبدأت جثث الضحايا تتساقط الواحدة بعد الاخرى وسمعت فجأة اصوات انفجارات متعددة هائلة قربي وأحسست بالارض تهتز بي ورأيت بناية ضخمة امامي تميل ثم تنهار .. ومن ورائي كانت الناس قد ملأت الشارع تبغي الفرار وسقطت قنبلة في وسطها فاذا بجثث الضحايا تتناثر وتتطاير في الفضاء واذا بالشارع قد اصطبغ بحمرة قانية ... وازداد العويل والفزع .. ولكن النيران ازدادت شدة فلم أعد اسمع سوى دويها .. وشبت النيران من حولي وتكاثر الدخان فلم اعد اتبين ما يحيط بي .. ولكن لاحظت بعد فترة اشباحاً تزحف نحوي فعمدت الى اطلاق النار وانا لا أبصر جيداً.. ولم أعد أعي ما يدور حولي تماماً : شعرت ان المعركة تلفني لفاً ... ورأيت رفاقي في السلاح يتساقطون الواحد تلو الاخر .. ورأيت شبحاً يقترب مني .. وأبصرته فجأة يلقي بقنبلة نحوي فأسرعت اختبىء جيداً في المتراس وسمعت الانفجار بجانبي وتطاير الغبار فحجب ما كان امامي .. وعندما هدأ قليلا رأيت أحد رفاقي وقد تشوه وجهه وتناثرت أمعاؤه ...

وتكاثر اليهود من حولنامحاولين تحطيم مقاومتنا وبين اللحظة والاخرى كان الموت يحصد احد رفاقي وأحسست بالموت حولي حصاداً جباراً مخيفاً متدفق النشاط وكلما حصد واحداً ازداد جبروتاً وتعطشاً ورأيته يزحف عاتياً بقدميه الرهيبتين الثابتتين بالارض اللامتناهيتين بطولهما ، ويقترب مني وينظر الي بشهية الجائع الى الثمرة الناضجة . ومع كل رصاصة كنت اسمع وقع قدميه يزلزل الارض من تحتي وشعرت أني صغيراً وصغيراً وضائعاً يسد علي القدر كل منفذ للخلاص ، واحسست بالنهاية تسري في عظامي وبالفناء يقبض على قلبي وفي لحظة هستيرية ملؤها القلق والخوف واليأس الفيتني القي بقنبلة يدوية أمامي ثم أركن الى الفرار متوجهاً الى البيت لارى ما حل بأهلي وقد أخذني فزع هائل وشعرت بالاحداث موجة عاتية تغرقني في زبدها .

وعدت الى البيت وازيز الرصاص يرن في اذني .

وتوقف زياد عن الحديث وحدق في عيني يقرأ التعابير ولكني ظللت على هدوئي آملة ان يستأنف الحديث ولكنه ظل واجماً قليلاً ثم شرد الى البعيد وتاهت نظراته الحائرة ثم انتفض فجأة وهب واقفاً وهو يقول : لا لا ، لا استطيع ان استأنف الحديث ، لقد كان مخيفاً ما كان ينتظرني في البيت اقوى مما تحتمل اعصابي . وسكت فجأة كما تكلم فجأة . وحين حاولت حمله على استئناف الحديث وقد بت بغاية الشوق لمعرفة ما جرى له في ذلك اليوم نظر الي بلوعة والدموع تترقرق فيعينيه وقال:

لقد انتزعوه مني وصمت قليلا ليستأنف. في عينيك بريق ساحر يا ليليان يدخل الطمأنينة الى قلبي . ورددت قائلةوبرجاء ورقة: ولكن قل لي ماذا حدث لك في ذلك النهار ربما كان ذلك مؤلماً لك ولكن في الاعتراف تعزية ، وعاد يحدق في عيني ثم قال : لقد تخلى الله عني يا ليليان ، لقد تخلى عني ساعة كنت احوج ما أكون اليه . وصمت وفي صمته حرقة مريرة .

ورددت عليه ولكن اخبرني بالتفصيل فسِّر لي، ورد: ليس ثمة ما يفسر لم يعد.. مضى كالحلم. وعدت أحدق فيوجهه فالفيت الدموع تحاول ان تفر من مقلتيه ولكنه يتجلد لحبسها . وساد صمت حزين بيننا قطعه بعد قليل بعصبية : لقد قتلوه ، لقد قتلته ، نحن جميعاً قتلناه لاننا جميعاً مجرمون نقتل البراءة كل صباح وكل مساء ، واصبحت لهجته رقيقة مؤثرة حانية وهو يقول : « انت لا تستطيعين ان تتصوري كم كنت أحبه كنا ما نزال في الربيع وكان في جمال الربيع وعمر الأزهار وبراءة البراعم المتشوقة الى الحياة ، لقد عملت كل شيء للدفاع عنه ولكني انتهيت الى قتله !!!

١٢

عدت الى البيت وانا اصرخ كالتائه : السفلة ، الانجليز لقد سلمونا لقمة سائغة لليهود ، وانا اشعر اني في دوامة ودفعت باب الحديقة امامي ودخلت مسرعاً ثم توقفت فجأة وجمدت في مكاني حين وقع نظري على منزلنا . كانت قنبلة قد اصابت الحائط الجانبي فاحدثت فجوة صغيرة فيه وحين استفقت الى نفسي بعد ان اصابني الذهول المفاجىء اسرعت راكضاً الى الداخل وقد احسست بعصبية غامضة مخيفة تتسرب الى كل جسدي . ووجدت باب المنزل مفتوحاً والغرف خالية فصحت « اليس هناك من أحد» ؟ ولم اسمع سوى صدى صوتي فخرجت الى الحديقة ورأيت اخي سميراً يخرج من خلف البناية حيث يبدو انه كان مختبئاً - ويركض نحوي مسرعاً وهو يبكي بسبب

الخوف الشديد الذي لا بد قد استبد به ، وفتحت له ذراعي وانا احاول ان انتزع ابتسامة استقبله بها وفجأة سمعت صوت طلق ناري وسقط سمير بين ذراعي والدماء تنزف من صدره وجحظ الي بعينيه وقال : زياد ، احمني ، قتلوني .. هـل سأموت ؟ ، وتلفت الى المدخل الرئيسي مصدر صوت الرصاص فرأيت جندياً يهودياً يحمل بندقية مصوبة نحوي فأسرعت ارمي نفسي وراء جذع شجرة وقبل أن اتمكن من اطلاق النار كان الجندي اليهودي يركن الى الفرار .

وعدت الى سمير كان ما يزال جرحه ينزف دماً غزيراً فحملته بين ذراعي الى داخل البيت وتناولت قطعة ثياب وقمت عليها يدي وربطت الجرح عل الدماء تتوقف عن النزيف ثم أضجعته على أول سرير صادفني .

وانحنيت عليه كان يشخص ببصره الي ويجاهد ليفتح فمه ليقول شيئاً فلا يستطيع سوى تحريك شفتيه ... وملأت الدماء صدره .. وغامت الدنيا امامي فرفعته الى صدري .. ورأيته ينظر الي من جديد نظرة حية فيها التوسل والرجاء ثم يطبق جفنيه فانهلت عليه أقبل وجنتيه وكأنني أحاول ان أعيد الى قلبه دفء الحياة ، وأحسست بدمائه الحارة تتدفق الى صدري فشددته الي وكأنني اخشى ان يهرب مني وعدت اتأمله من جديد. كانت الحياة ما تزال تدب في جسمه ورأيته يجاهد ليفتح عينيه ثم سمعته يقول بحشرجة اخيراً رق فيها صوته وبدت فيه مسحة

اللوعة ... ماما .. ما .. ماما .. ثم اطبق عينيه فانحنيت عليه وصرخت بأعلى صوت : لا ، لا ولامست وجنتي وجنته كانت باردة كقلب الانجليز وانتابتني موجة هستيرية من البكاء فامسكت به وبدأت اهزه وانا أصرخ بلا وعي .. سمير سمير لن تموت ، لا .. لا .. سمير .. وفي لحظة ياس وانهيار رفعت رأسي الى العلاء ويداي الى فوق وناجيت الله واللوعة تعتصر قلبي . ايها الآله القادر على كل شيء انقذه وانا أهبك كل حياتي . ساتقبل منك كل عقاب بنفس راضية ولكني اضرع اليك ان تعيده الى الحياة .. انه صغير صغير جداً يا آلهي الرحوم لم يعرف بعد هذا العالم الجميل الذي صنعته يداك لم يرتكب اثماً ولم يبغض أحداً .. وبكيت بمرارة وأنا أتوسل الى الله لعل دموعي الغزيرة تشفع لي عنده .. ثم انكببت على الأرض اقبلها فشعرت بطمأنينة خاطفة تنساب كالنور في أعماقي فقمت الى أخي أناديه وفي قلبي أمل كبير يائس بانه سيجيب النداء وينتهي الكابوس ولكن القنوط القاتل استبد بي حين ظل الصمت البـــارد يحدق بي : كلا لن يموت ولماذا يموت كلا كلا لن يفجعني الله به لن يخيب رجـــاء المتكلين عليه ان الله لا يجرب خائفيه فوق طاقتهم. كلا كلا لن يحدث هذا الأمر الفظيع .

لم تكن اعصابي بعــــد قادرة على تصديق الامر وكنت في في ساعة قنوطي اعتقد ان معجزة ستحدث تنهي الكابوس فعدت ابلل وجنتي اخي السجيتين الباردتين بدموعي الحارة ثم اخذت

اهزه وانا أصرخ بهستيرية . سمير سمير .. وحين ظل الصمت الأبدي جوابه الوحيد صرخت باعلى صوتي: لقد مات لقد مات لم يعد. « ثم نظرت الى العلاء وقلت بصوت منخفض بطيء براه الألم العميق واليأس القاتل : رباه ، لقد مات ..لقد مات لم تأخذك رحمة بطفولته ولا رأفة بي أأنت مسرور الآن .

وخنقتني دموعي وفجأة احسست بثورة عصبية تغلي في عروقي وبتحد غريب للقدر فصحت بكل ما بقي لي من طاقة : ايها الجبار كالانجليز كلا كلا لن يموت اتفهم ؟ اني اكرهك انت انجليزي قلبك من جليد . انت تسخر من مصيبتي في عليائك الصامت ، لانك كالانجليز أسلمتنا للسفاحين . انت لا تشفق لانك لم تكن في يوم أخاً . أأنت قادر على كل شيء ؟ لقد مات أخي الى الأبد ولن تستطيع ان تحييه . اني اكرهك اكرهك اتسمعني لا بد انك تقهقه ساخراً مني الان في عليائك الصموت كما يسخر الجنود البريطانيون منا اليوم ونحن نفر كالجرذان بعد ان سلمونا للمغتصبين انت جبار كالانجليز قوي مثلهم ولكنك قاس أيضاً مثلهم فانت لست بافضل منهم .

وتنبهت الى بندقيتي بالقرب مني فامسكت بها وقذفتها بعيداً بغضب هستيري وسمعت صوت ارتطامها بالحائط وانا اصرخ : خيانة .. خيانة .. الحياة اكبر خيانة .. وحوش .. وحوش.. الحياة اكبر وحش .

١٣

ارتميت على جثمان اخي اقلبه وقد شعرت ان المصيبة اكبر مما كنت اتصور وغامت الدنيا من حولي وأظلمت: أخي الصغير الحلو مضى الى غير رجعة .. لن أمسك بيده بعد اليوم واذهب به الى المدرسة .. لن أخرج معه للنزهة .. لا لا لن يستطيع الموت ان ينهي كل هذه الذكريات دفعة واحدة.. أخي يا أجمل زهرة ويا أحلى ابتسامة ويا أغض طفولة اجبني .. لا لن تظل صامتاً هكذا اني احبك أحبك كثيراً ولن تقسو علي الى هذا الحد. انا لم أتعمد ان ابقى في حيفا وابقيك معي كي تموت .. لقد اردت الدفاع عنك كنت أحمل الموت في احشائي كل يوم لتعيش من بعدي آمناً ... كلا انت لم تمت لن يستطيع الموت ان ينهيك دفعة واحدة أنت باق

في قلبي الى الابد .. قم فالماما في انتظارنا سنمضي اليها .. لا لن تكون قطعة من ثلج.. لن تعود الى التراب . لن نبقى هنا.. ستهرب معي .. استحلفك بحبنا العظيم ان ترد علي .. اقبلك كثيراً فرد عليّ قبلاتي .. لن اصدق لم تمت لن تموت لن تموت .

واحسست بالدوار يعصف في رأسي فارتميت على الارض متخاذلاً وبقيت فترة لا اكاد أعي ما يدور من حولي .

وتوقف زياد عن الكلام وتفرس بي قليلاً وحين رأى الدموع في عيني اشاح بوجهه عني في حين اخرجت منديـــلي ومسحت الدموع التي كنت اجاهد في حبسها وانا أقول له : فظيـــع فظيــع ما حدث لك وفظيــع ما تقوله .. ورد علي قائلاً وهو شارد الفكر. ليليان أعذريني اني لا أستطيـع ان أتكلم عن أخي الصغير الابكثير من الحماس.. لقد كان جزءا من حياتي ولم تستطيـع السنون الطويلة ان تنسيني اياه .. فالموت وان استطاع ان يعدم جسمه من الحياة قد فشل في ان يحذفه نهائياً من الحياة .. انه باق في اعماقي .. باق في الذكرى التي خلفها وراءه . لقد كان الموت اعجز من ان يمحيه نهائياً من الوجود دفعة واحدة ..

- لقد مات أخوك وهو صغير فهو هناك في العلاء . في عالم جميل عند الله الذي يخصه بحبه - لا لا اني لا أحب ان اخدع نفسي ... ولن تعزيني بقولك ان الله قد حباه فاختاره لجنانه وهو صغير .. لقد احببته كثيرا .. احببته اكثر مما احبه الله..

ان الله كامل بدونه .. وانا لم أكن استطيــع ان اتصور حياتي تكمل بدونه .. ان الله روح محض واذا بلحم واعصاب .. بشعور انساني.. والله لا يشعر بذلك لانه روح وليس اعصاباً.. ان الله لا يستطيـع ان يخصه بحب مثلي لان الله للعالم أجمع وانا كنت لاخي وحده ..

١٤

نظرت الى سمير، قربي كان يرقد في سكينته الابديه فقمت اليه وقبلته قبلة الوداع كان بارداً كالثلج .. واطبقت جفنيـــه وغطيته بملاءة بيضاء .. ثم اغلقت باب الغرفة عليه وانطلقت مسرعاً الى الخارج ..

وفي الشارع رأيت الناس في هرج ومرج فهناك طفل يبكي وقد اضاع اهله..وهناك امرأة تولول وقدفقدت زوجها واخرى اضاعت اولادها .. وهناك عائلات اخرى تحمل بعض الحاجات وتنطلق مدبرة ..

وفي هذه الفوضى التامة كانت بعض سيارات الشحن فيهـا جنود يرتدون لباساً زي الجيش العربي تجوب الشوارع تعلن بمكبرات الصوت بالعربية : اسرعوا فان عصابة شترن قادمــة » .. اسرعوا الى الميناء .. اهربوا الى البور .. وقد

علمت فيما بعد ان افراد منظمة الارغوان هم الذين تخفوا بلباس الجيش العربي ليحضوا السكان على ترك المدينة .

وانطلقت مع هذا الخليط من الناس دون تفكـير وعيناي تبحثان عن اهلي .. فلم أجد سوى الفزع مرتسماً على الوجوه .. ولم انتبه الى نفسي الا حينما رأيتني أصل مع الناس الى المينـــاء وهناك رأيت الجماهير محتشدة بالآلاف والصراخ يشق عنان السماء ... ويتزاحم الناس للاسراع بركوب البحـر فراراً من حيفا...واجلت ناظري ابحث عن اهلي ولكني لم اعثر عليهم.. وبدأت اشعر بدوار شديد وضعت بين الجموع ولكني عـدت اشق طريقي في الزحام محاولاً ان اتخلص من هناك ..شعرت اني على وشك ان اصرخ بملء فمي بين الناس .. لم تكن اعصابي تحتمل كل هذا . كانت وجوه الناس من حولي كلها تنطق بالفزع الشديد .. ورأيت امرأة في وسط هذا الحشد تندب باعلى صوتها ابنها الذي اضاعته بين الجموع ولم يكن أحد يلتفت اليها اذ كانت الجموع تمر دون ان تشعر بها . ولم يكن أحد يفكر بما حل به بل كان يحاول ان يلوذ بالفرار هرباً بنفسه من الجحيم ..

وعدت اسير على غير هدى ولم انتبه لنفسي من جديد الاحين وجدتني قرب بيتنا وعدت الى حيث كنت احمل السلاح في الليلة السابقة وهناك رأيت جثث رفاقي ملقاة في عرض الشارع لا يلتفت اليها احد .. وانطلقت مسرعـــاً لا الوي على شيء

ومررت بشارع ستانتون ثم عرجت على ساحة الخناطير وهالني كثرة ما وجدت من جثث ملقاة في الشارع .. ووقفت انظر اليها وقد نسيت نفسي وانتبهت على واحـــد يلكزني ونظرت خلفي فوجدتني وجهاً لوجه أمام جندي اسرائيلي .. وتطلعت اليه وقد ساورتني نفسي ان انهال عليه ضرباً ولكمـاً ولكني رأيت رفاقه منتشرين على طول الطرقات .. واشار الي الجندي ان اتابـع طريقي دون ان اتوقف .. ولم ينس ان يودعني بضربة على كتفي بعقب بندقيته وحانت مني التفاتة الى المسجد المقام هناك فرأيت علم اسرائيل يرفرف فوقه .

ووصلت الى محطة السكك الحديدية فرأيت الجند الاسرائيلي يحتل كل ابنيتها .. ولم ادرِ اين اذهب فتابعت سيري متجهاً نحو الشمال وحينما كدت اخلف حيفا ورائي برز لي فجأة جندي اسرائيلي وشهر سلاحه في وجهي وامرني ان ابتعد..وتظاهرت باني انصعت لأمره وسرت أمامه حتى وصلنا الى عطفة جانبية في الشارع فحثثت خطاي وغافلته وانطلقت أعدو باقصى سرعة . وركض ورائي وسمعت خطواته خلفي ...

وبدأت أدخل من زقاق لأخرج الى غيره وسمعت طلقات نارية خلفي ..وعدت أعدو حتى بدأت الهث من التعب فدخلت اول بناية صادفتها ووقفت اصغي ولكني لم اسمع وقع خطوات فغادرت المنزل ومضيت مسرعاً .. واصبحت خارج حيفا في

السهل الفسيح ولاحت عن بعيد خزانات تكرير البترول فبد
لي كشواهد وضعت على قبر حيفا ! ولم اسلك الطريق المعب
مخافة ان يصادفني احد بل سرت في السهل متخفياً بين المزروعا
معظم الاحيان ومبتعداً عن كل المنازل ...

وبقيت اعدو فترة من الزمن بدت لي طويلة حتى اعترض
جدول ماء ينساب هادئاً في السهل الفسيح فعرفت اني وصلت
نهر المقطع فجلست على ضفته وغسلت وجهي وشربت من مائ
فاحسست بنشاط جديد يعاودني . واسترحت فترة قصير
واخذت افكر بما سأفعل.. ان عودتي الى حيفا لم تعد مأمونة.
اين سأمضي واين استطيع ان أجد اهلي؟ ولم يطل بي التفكي
اذ سرعان ما قررت ان اتابع سيري نحو عكاء .

وقطعت نهر المقطع وتابعت سيري اكثر من ساعتين .
وبدأت الشمس تميل نحو الغروب . وبدأ التعب يستولي عل
اعضائي وشعرت بحاجتي للراحة فجلست بين الأعشاب .
وحينما قمت لاستأنف سيري فوجئت باصوات تنتهرني ان اقف
مكاني .. ولم ابه للانذار بل اطلقت لساقي العنان وسمعت
طلقات الرصاص خلفي تنهمر بكثرة .. وشعرت بشيء يخترق
ساقي فجأه وسقطت على الارض .. وزحفت الى الامام قليلاً
واختبأت بين المزروعات..وأقبل اسرائيليان مدججان بالسلاح
يبحثان عني .. وكتمت انفاسي ومرت علي لحظات توتر رهيبة

ولكني ما لبثت ان سمعتها يتلفظان ببعض الكلمات بغضب ثم هادا ادراجهما...وبقيت فترة قصيرة جامداً في مكاني ورفعت رأسي ونظرت الى ساقي وقدبدأت تؤلمني فرأيت الدماء تنزف منها بكثرة فاخرجت منديلاً من جيبي وربطتهـا جيداً .. ثم تحاملت على نفسي واكملت سيري .. ولم اعبأ بالاجهاد الشديد الذي بدأ يدب في اوصالي . وبدت لي عكاء بعيدة جـــداً .. وداخلني يأس شديد في نفسي واستسلمت لأفكار سوداء وفجأة شعرت قدمي تغوص تحتي وتنبهت فاذا بجدول امامي فارتميت ارتوي من مياهه وقد عرفت انه لا بد من ان يكون نهـــر النعامين .

وشعرت بالطمأنينة تداخلني فانا قد بلغت مشارف عكاء ولا البث ان اصلها قريباً . وخلعت حذائي ورفعت ثيابي قليلاً وقطعت الجدول .. وحينما اصبحت على الضفة الثانية تنفست الصعداء .. ولم البث ان تبينت من خلال الظلمة التي بـــدأت تسيطر على سور عكاء الضخم . كان ما يزال منتصباً كالمارد الجبار بحجارته العالية المهيبة .. وشعرت بالنجاة .. بالأمل يداخلني فرفعت يدي محيياً السور .. وما هي الا برهة حتى كنت قـد وصلت الى باب السور .. الحديدي الضخم .. كان مـــا يزال كالطود مهيباً جليلاً .. واثارت رؤية هذا الباب الجبار في نفسي الذكريات الكثيرة .. كان يستقبلني بمهابته في كل نهاية اسبوع

حينما كنت آتي لزيارة بعض اقاربي ولقضاء اوقات بهيجة في التنزه .. وتذكرت المرة الاولى التي رأى اخي سمير هذا الباب العابس من بعيد ينتصب وسط هذا السور الجبار فصاح بي قائلا ونحن ما زلنا في القطار في طريقنا الى عكاء.. انظر ما أكبر هذا الباب لماذا صنعوه كبيراً هكذا ؟ وكان في قوله الكثير من الدهشة . وقد اجبته انه انما صنع كبيراً هكـــذا ليحتمي كل الناس وراءه .. وحينما بلغناه وقف يتأمله وقد اعترته دهشة عجيبة ..

ولدى باب السور اعترض طريقي بعض المسلحين من اهالي المدينة وحينما عرفوا اني هارب من حيفا بـــدأوا يمطرونني بأسئلتهم عما حدث وكنت مشغولاً عنهم بحالي فلم اجبهم سوى اجابات مقتضبة .

ودخلت المدينة القديمة فرأيتها تعج بالناس من اهلها ومـن الغرباء عنها ثم فجأة انطلق صوت المؤذن في جامع الجزار الشديد البياض ذي القباب المتعددة : الله اكبر .. الله اكـــبر وبان لي الأذان رثاء حزيناً لنا جميعاً والجامع ببياضه الناصع الأخاذ، قبراً كبيراً يستطيع الانسان اخيراً ان يرقد فيه بسلام .

وبدأ الاعياء الشديد يستولي عليّ وبدأت اتعثر في طريقي ولم أعد أرى جيداً امامي ولم اهتد الي بيت السيد جميل سعيد الذي اقصده رغم معرفتي الحسنة له وبـــدأت امر بزقاق لأعود

فاجد نفسي قد عدت اليه وبدأ الارتباك يسيطر عليّ ؛ ان هذه الازقة متشابهة وبدأت اسمع وقع خطواتي على بلاطهـــا القديم بوضوح. ان ابنيتها القديمة المتشابهة وهذه الجدران المنتصبة المتراصة التي كانت حبيبة الى نفسي بت اضيق ذرعاً بها وجدتني اطل على البحر بعد طول تجوال ثم عدت ادراجي اذرع هـــذه الأزقة المسقوفة من اعلى وعادت الابنية تتضح لي فاهتديت اخيراً الى الباب وانهلت عليه طرقاً سريعـــاً وفتح الباب ورآني ابي من الداخل فاسرع نحوي واحتضنني وقد كادت العـــبرات تخنقه واسرعت امي من الداخل وقد سمعت جلبة في القاعة وما ان رأتني حتى هجمت عليّ وارتمت على صدري وبكت وبدأ والدي يردد : « الحمد لله على سلامتك » وحين تمالكت امي مشاعرها واستفاقت الى نفسها سألتني وقد تنبهت الى ان فرحتها لم تكتمل بعد ، عن اخي سمير ولم تطق اعصابي ان يفرح اهلي بسلامتي وقد شهدت هذا الصباح مصرع أخي الصغـير فانفجرت بوجه امي قائلاً : مات سمير . . . قتل بالرصاص . ونزلت كلماتي على رأس اهلي كالصاعقة ورأيت امي وقـــد طعنت بالصميم تنظر اليّ مشدوهة برهة قصيرة ثم تترنح وتنفجر باكية متلوعة ورفعت يديها الى اعلى ولطمت بهما وجنتيها وقـالت : سمـــير المدلل الحبيب .. واحسست بنياط قلبي تتقطع فانفجرت باكياً بصوت مدو وغامت الدنيا امامي وسيطرت غشاوة على ناظريّ ورأيت

المرئيات امامي تتراقص وشعرت بالم عنيف في ساقي وغاب كل شيء عني وسقطت على الارض وسمعت صراخاً شديداً يصل الى مسامعي كانه آت من الأبدية ثم لم أعـــد اعي شيئاً على الاطلاق .

١٥

– كيف حاله يا دكتور ؟

– لقد زال الخطر عنه نهائياً ولا يلبث ان ينهض اليوم من نومه معافى .

– وساقه ؟

– آه بحالة جيدة انها لن تلبث ان تشفى تماماً وسيكون باستطاعته ان يسير عليها بعد بضعة ايام فقط ...

كانت هذه اول كلمات سمعتها بعد ان غامت الدنيا امامي وبعد ان اخبرت اهلي بوفاة اخي الصغير . وفتحت عيني بعدها واجلت بصري في الحاضرين ووقع نظر امي عليّ فابتسمت وهي تقول : « الحمد لك يا الهي .. لقد استيقظ اخيراً .. الحمد لك.. واحد يكفي . ونظرت اليها وانا لم اثب الى وعيي تماماً

وقلت : اين انا ؟ فأجابتني : لا تخف يا حبيبي انت هنا في قلبي: واقبل والدي واخي واختاي والسيد جميل واهله وتحلقوا حول سريري ينظرون الي دهشين واستغربت كلما يجري ولكنني علمت بعد ذلك اني بقيت ثلاثة ايام صريع الحمى والهذيان وقد اشرفت على الهلاك .

وفي اليوم التالي نهضت من الفراش وقمت بنزهة في شوارع عكاء برفقة اخي منير .. كانت ساقي ما تزال تؤلمني فكنت احمل معي عكازة اتكأ عليها .. وكان اخي ينظر الي ويحاول ان يبتسم لي ولكنني كنت استشف من وراء ابتسامته بألم عميق خفي عبرت عنه تقاطيع وجهه . وهالني ان اجد المدينة بحالة هيجان شديد فكنت ارى سيارات الشحن العديدة تقف امام الابنية وقد بدأ الاهالي يحملون اثاثهم ويرحلون ..

وعدت الى فراشي ولزمته عدة ايام وتماثلت ساقي للشفاء التام . وعدت بعدها اتجول في شوارع عكاء .. كانت البلدة ما تزال في حالة اضطراب شديد وكان النزوح عنها ما يزال على اشده .

وقد اخبرني اهلي ان قنبلة وقعت اثناء غيابي انا ومنير على بيتنا في حيفا في ذلك اليوم المشؤوم الاربعاء في الحادي والعشرين من نيسان فاضطرب اهلي وخرجوا خائفين الى الشارع كل على

حدة وفي الشارع التقت امي بابي واختيّ ورأوا الناس تسـير باتجاه الميناء فسارعوا مع الجموع قليلاً ليروا ما يجري وفطن ابي بعد قليل الى ان اخي سميراً ليس معهم فأراد الرجوع ليبحث عنه ولكن الجنود الانجليز حجزوه اكثر من ساعـة ثم امروه بالسير قدماً نحو الميناء وعدم الرجوع الى الخلف وهددوه بالقتل ان لم يمتثل لاوامرهم . اما اخي منير فقد حجز مع فريق مـن المجاهدين ولم يستطع الاتصال بالبيت. وقد قيل له ان الاهالي قد هربوا عن طريق البحر فهرب هو ايضاً عن طريق البحر ولكنه حين بلغ عكا لم يجدني لا انا ولا اخي الصغير فأراد العودة الى حيفا ثانية فمنعته امي اذ رأت ان من الافضل الصبر قليلا ريثما ينجلي الموقف .

١٦

كانت قد مضت على اقامتنا في عكا فترة وجيزة . وكان ايار في اوائل ايامه وقد اعتاد ان يجتمع في بيت اهل جميل بعض الشبان والكهول يتداولون في الاوضاع الراهنة . وكان ابو جميل قد جاوز الخمسين يعمل بتجارة الاقمشة في عكا حيث يقيم بشكل دائم . وقد قال في احدى هذه الاجتماعات :

– لا لن يتحقق ما جاء في الكتب المقدسة عن انكسار اليهود .

وكان هناك رجل في مقتبل العمر يحضر الاجتماع فقال : « لا تيأس ابا جميل لانهم استولوا على حيفا لاتخيفك اسلحتهم التي اعطاهم اياها الانجليز فكم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بإذن الله .

ورد جميل : سينتصرون ما دام الانجليز معهم .

وعاد الرجل الاول يقول بحماس : بل سنردهم وسترى ان نابليون نفسه رد خاسراً عن ابواب مدينتنا .

ورد جميل : ولكن نابليون كان الانجليز ضده امـــا اليوم فالانجليز ضدنا نحن .

وعاد الرجل الاول يقول : ولكن مـــا هي الا ايام حتى تطبق الجيوش العربية على فلسطـــين فتحررها . ورد جميل : « ولكن يبدو ان الناس غير مؤمنين بذلك فهم يتركون عكا كل يوم بالمئات .

وفجأة نهضت انا وقلت للحضور : اتدرون من هو الله ؟ وفوجىء الجميع بسؤالي الغريب واخذوا ينظرون الي بدهشة في حين تابعت انا اقوالي : « لكل زمان الهة . وإله هـذا الزمان الانجليز وها هم يفون بوعـدهم . انهم كالله سبحانه تعالى في كل مكان في عمان – في دمشق – في المغرب - في القاهرة – في كل عاصمة عربيـــة . الشمس لا تغيب في امبراطوريتهم . وفي كل بقعة من الارض مأثرة من صنعهم . اتظنون اننا سنستطيع ان نتخلص منهم . سيلحقون بنا في كل مكان . بالامس في حيفا وغداً هنا في عكا وبعده في الجليل . ان الشعب قـــد ادرك بحاسته ان الوحش يطارده لذا فهو يرحل هرباً منه .

وبقينا اياماً اخرى معدودة في عكا ثم حملنا ما معنا مـن اغراض قليلة في سيارة صغيرة وانطلقنـا الى قرية في الجليـل .

وهناك كانت الحياة صعبة جداً. أما ابي فكان الاستسلام ظاهراً على وجهه . وكان يردد دوماً على مسامعي : « الله اعطى والله اخذ فليتبارك اسمه» وكان يقول لي دوماً حين يراني ساهماً حزيناً « لقد طلبت الى الله والله استجاب لدعائي .. لقد طلبت اليه حينما افتقدناك انت وسميراً ان يعيدكما الي سالمين اذا شاء ، وان كانت مشيئته ان يموت احدكما فليمت الصغير فهو طير من طيور السماء ... لقد طلبت اليه وقلت له : اعد الي زياداً ان كنت تريد ان ترحم شيخوختي وان تجعلني اظل اردد الحمد لك .. فلنقسم الاثنين بيننا خذ انت سميراً وأعد لي زياداً .. وقد استجاب الله لطلبي فلا تحزن .

وعندما كنت اسمع هذه الأقوال من والدي كنت لا استطيع ان اتمالك اعصابي فأرمي رأسي على صدره وابكي . ويرفع رأسي اليه وينظر الى دموعي. وبهدوء كانت تنساب دموعه على وجنتيه بوقار . ثم يقول لي بصوت متهدج : كان الله في عونك .

وكنت احياناً احسد ابي على هذا الايمان الشديد الذي استقبل به المصاب وكنت اتمنى لو كان لي بعضه كي اخفف على نفسي بعض آلامها .

ولكن هدوء ابي الظاهر كان يخفي آلاماً مريرة فلم تلبث صحة ابي ان ساءت سريعاً . ثم بدأت تتدهور بسرعة . ولم

يكن في القرية طبيب نستدعيه . وكانت المواصلات بين معظم القرى قدتعطلت فقمت ذات صباح واسرجت حصاناً وامتطيته انا وابي وركب اخي منير حصاناً آخر ومضينا الى قرية مجاورة كنا نعرف طبيباً فيها . وبلغنا الطبيب بعد طول عناء فعاين ابي ووصف له بعض الادوية للذهاب الى بلدة اخرى ابحث عنها حتى عثرت عليها .

وعدنا الى القرية الأولى وبدأ ابي يتناول الادوية ولكن يبدو ان العلة الكامنة في نفسه كانت اعمق من العظم واللحم فلم نلمس أي تحسن في صحته بل ظلت تسير من سيء الى اسوأ حتى كانت ليلة رهيبة استيقظنا فيها فجأة على انينه في الليل. وسهرنا على تمريضه حتى الصباح .

ونحو الظهر كان يبدو في احسن صحة ولكن ما ان اقبل العصر حتى انتابته الحمى وكنت اجلس الى جانبه وهو في سريره ولم يكن في الغرفة غيرنا .. كنت اتحدث معه احاول ان ارفه عنه .. ونظر الي فجأة وقال لي : « زياد اني احس ان المرض يعود الي .. انه لن يمهلني .. سأمضي سريعاً اعتن بنفسك وبأخوتك يا زياد .. »

وظننته يقول ذلك في حالة يأس في البدء فقلت له : ستبقى انت وتعتني بنا جميعاً » .

ونظر الي من جديد وقال لي بوقار: « سأمضي الى سمير...

لقد رأيته الليلة يدعوني وقد وعدته باللحاق به سريعاً » وحدق بي ورأيته يرتجف ثم يميل برأسه الى الوراء وقد جحظت عيناه. ولم اتمالك اعصابي فرميت بنفسي عليه وانا اصيح : لا .. لا .. ثم رفعت رأسه نحوي وقبلت وجنتيه وصحت به : ابي ابي.. لا لن تتركني .. اغفر لي .. سامحني ستعيش من أجلي .. لن تموت .. يكفي واحد .. ستعيش من أجلي .. ستعيش .. » ودفنت رأسي في صدره واستسلمت لنوبة من البكاء .. وحينما رفعت رأسي الى اعلى رأيت دمعتين حبيستين تنحدران بصمت على وجنتيه ، وبقي برهة يحدق بي ثم حنى رأسه واسبل جفنيه .. واضجعته في فراشه ثم بدأت اصرخ فوق رأسه . وسمعني اهلي فأقبلوا نحوي . وحينما رأت امي المشهد ظنت ان المنية قد اختطفت ابي فصرخت صرخة مدوية ولطمت خديها ..

وانتابت ابي حمى عنيفة تلك الليلة .. وسهرنا قرب فراشه ونحن نخشى في كل لحظة ان يسرع الموت اليه فيخطفه من بين ايدينا خلسة ..

وفي الصباح كانت وطأة الحمى قد اشتدت عليه فمضيت ابحث عن طبيب ولم أعد به الا في العصر .كان ابي ما يزال غائباً عن الوعي . وكان اليأس قد اخذ من اهلي كل مأخذ . ودخل الطبيب وعاد ابي وعندما خرج هز رأسه بصمت وعندما سألته امي بتلهف عما يعتقد عن خطورة حالة ابي لم يجب سوى اجابة

مقتضبة قائلا : قد ينهض في الصباح معافى .. ثم استأذن بالعودة بعد ان وصف بعض العلاج .

وفي المساء بدأ ابي يهذي باسم اخي سمير كثيراً..وفي منتصف الليل هدأ قليلا .. وكان التعب قد نال مني كثيراً فاستسلمت قليلا للكرى ولكني ما لبثت ان اجفلت واستيقظت على صرخة اطلقتها امي . وقمت مسرعاً الى فراش ابي فرأيت امي منكبة عليه وهي تولول وعندما رأتني صاحت بي : ابوك يحتضر يا زياد واسرعت اليه . ورأيته يحدق بي بنظرة شاردة كأنها تاتي من الأبدية ثم شهق شهقة واحدة واطبق جفنيه وامال رأسه على يدي امي ..

واسرعت اضع يدي على جبينه فارتجفت يدي لبرودته .. وعلا صراخ امي ..

وسهرنا بقية الليل على جثمان ابي المسجى وبدأ اهالي القرية يتوافدون .. وفي عصر اليوم التالي ووري الجثمان في مقـــره الأخير ..

١٧

كان الربيع يترنح مودعاً والشمس ساطعة دافئة وكنت اجلس امام بيتنا ساهماً مفكراً بالمجهول وفجأة اجفلت لأجد امامي جميل سعيد بلباسه الحربي وقد بان الاعياء عليه وشحب وجهه وصحت به: ما وراءك؟ وتنفس الصعداء في حين احضرت له اختي الكبرى كرسياً ليجلس فرمى بنفسه متخاذلاً ثم قال انتهى كل شيء. لقد سقطت عكا في ايدي اليهود. لقد ظللنا نقاوم ثلاثة ايام مستمرة وبقيت في اليوم الاخير مع نفر قليل من المجاهدين وقد بقينا نقاوم حتى الطلقة الاخيرة. قاومناهم اولاً قبل ان يتمكنوا من خرق السور. وكلما تمكنا من فرقة اتت فرقة جديدة من حيفا كأمواج البحر لا تنتهي، وتمكنوا اخيراً من دخول المدينة القديمة فقاومناهم من شارع الى شارع وحين

نفذت الذخيرة رحلنا . »

وتوقف قليلاً قبل ان يقول ساخراً : « هذه هي أولى ثمرات دخول الجيوش العربية الى فلسطين » ثم انفجر غاضباً وهو ينتفض حانقاً : « اين هي الجيوش العربية ؟ لقد قاتلنا وحدنا ولم يهب جيش عربي لنجدتنا . منذ يومين انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين وانطلق صوت المذيع من تل أبيب : هنا صوت اسرائيل وبادرت اميركا الى الاعتراف بالدولة الجديدة في الساعة الأولى لمولدها . وماذا فعلنا نحن . اين الدولة الفلسطينية التي اعلنا قيامها ؟ لقد عبرت الجيوش العربية الحدود الفلسطينية منذ يومين ولكن ها هي واحدة من اعظم المدن العربية تقع في ايدي العدو دون ان يتحرك احد . اين هي الجيوش العربية السبعةالتي وعدونا بها . اين هي ؟ .

وحين هدأ جميل قليلاً قال له اخي منير : « ولكن الجيوش العربية لم تكد تبدأ عملها بعد ولا بد من اعطائها فرصة للعمل . وانفجر جميل قائلاً : » ولكن تخليهم عن عكا خيانة كبرى ، وبداية سيئة اذا استمرت فستجد اسرائيل اراضيها تتسع يوماً فيوماً .

والواقع ان اسرة جميل كانت قد سبقته الى ترك عكا واللحاق بنا الى الجليل حيث كانت تقيم الى جوارنا .

وبدأت اخبار المعارك بين بعض الجيوش العربية واليهود

تصلنا تباعاً وقبل ان ينتهي أيار نفسه وبعد سقوط عكا في ايدي اليهود بأقل من اسبوعين جاءت الأخبار من القدس والجنوب مشجعة جداً فأشعلت الحماس في جميع الفلسطينيين . كنا في صباح أحد الأيام متحلقين في بيتنا حول المذياع لسماع نشرة الاخبار من عمان وصمتنا جميعاً نستمع بشغف وما ان انتهى المذيع من تلاوة النشرة حتى هب ابو جميل وقد اخذه الفرح وهو يقول : « اليوم القدس وغداً تل أبيب ، اليوم القدس القديمة وغداً تل أبيب . وكان المذيع قد أعلن بأن الطيران المصري قد قصف تل أبيب وان الجيش المصري يزحف باتجاه تل أبيب وقد أصبح على بعد بضعة كيلومترات منها . وان الحي اليهودي القديم في القدس قد سقط برمته في أيدي الجيش العربي الأردني . وان جميع اليهود القادرين على حمل السلاح قد اخذوا اسرى في حين سمح للاطفال والنساء والشيوخ بالنزوح عن طريق الصليب الأحمر الى القدس الجديدة .

وأقبل حزيران والأمل يراود القلوب بنصر حاسم سريع والقدس الجديدة حيث تجمع أكثر من مائة الف يهودي محاصرة حصاراً محكماً . وحين كنا ما نزال في أوج حماسنا وايماننا بالنصر القريب اذا بخيبة الأمل تصعقنا جميعاً اذ وافقت جميع الدول العربية على اقامة هدنة بينها وبين اليهود لمدة اربعة اسابيع وحين سمع اخي النبأ من المذياع الذي كان وسيلتنا الوحيدة لمعرفة اخبار ما يجري حولنا انفجر صارخاً : « كيف ؟ كيف ؟ كيف

يرضى حكام العرب بهدنة طلبها اليهود ؟ هذه ليست هدنة بل خيانة ! » ورد جميل وهو يخفي عنقه وراء تهكمه : « لقد قال نابليون ابحث عن المرأة وانا اقول ابحث عن الانجليز كلما كان هناك شرّ » وقلت انا لقد تدخل الغربيون في الوقت المناسب عن طريق هيئة الامم ليفرضوا علينا هدنة بعد ان أيقنوا ان القدس الجديدة واقعة لا محالة في ايدينا كما وقعت القدس القديمة ومن ينهِ معركة القدس ينه المعركة كلها .

وبدأت الهدنة نهار جمعه وجاء الكونت برنادوت السويدي وسيطاً دولياً ليحاول نشر السلام من جـديد في ارض رسول السلام التي لم تعرف السلام ، واتخذ من جزيرة رودس مقراً دائماً له واخذ هناك يقابل الوفود ويبحث عن الحلول وأتى بتوصيات لم ترض العرب ولا اليهود فطلب تمديد الهدنة بعـد ان انتهت الأسابيع الأربعة فقبل اليهود تمديدها ورفض الحكام العرب .

والواقع ان الجيوش العربية قبعت مستريحة تنتظر انتهـاء الهدنة في حين ان اليهود لم يضيعوا ساعة واحدة في شراء الأسلحة والعتاد والتدريب استعداداً للجولة الثانية .

وفي صباح اليوم الأول الذي أعقب انتهاء الهدنة وكان يوم جمعة ايضاً أقبلت طائرة يهودية وحيتنا ببعض قنابلها . ولكن تحيتها لم تكن موفقة فلم يصب احد بأذى .

وما حدث بعد ذلك كان غريباً لا يصدق فلم تكد تمضي أيام

ثلاثة على بدء القتال من جديدحتى اخلى الجنرال كلوب الانجليزي قائد الجيش العربي الاردني منطقة اللد والرملة فاستلمها اليهود هدية متواضعة وبدأت جموع اللاجئين الجدد تتدفق على عمان وبدأت المخيمات تشاد .

وعم الحنق جميع الفلسطينيين بل جميع العرب . والقيت القنابل على بيت كلوب في عمان وقامت المظاهرات مطالبة بطرد عميل الاستعمار من قيادة الجيش العربي ولكن الرؤوس التي كانت تحميه كانت اقوى من الشعب الأعزل .

وقد صاح اخي منير بعد مأساة تسليم اللد والرملة قائلا : كيف كيف يترك انجليزي صهيوني على رأس واحد من أكبر الجيوش العربية ؟ ورددت انا : ألم أقل لك مرة ان الانجليز في كل مكان ؟ نحن مساكين نظن ان اليهود هم اعداؤنا وننسى ان عدونا الحقيقي هو الشر المتفشي في هذا العالم ، في الهواء الذي نتنشق كما في دمائنا الساخنة في اوصالنا . اننا كدون كيشوت نحارب الطواحين ونظن اننا بذلك سنقضى على الشر الى غير رجعة . « في حين قال جميل متهكماً : » لقد اراد جلوب ان يؤدب العرب لأنهم رفضوا تمديد الهدنة فسلم اللد والرملة الى اليهود .

غير ان سيل العار لم يتوقف فلم تكد تمضي اربعة ايام على عملية تسليم اللد والرملة وعزل الجيش المصري في الجنوب عن

الجيش الأردني حتى سقطت الناصرة في ايدي اليهود . والواقع ان جامعة الدول العربية كانت قد الفت جيشاً غير رسمي من المتطوعين من سائر البلاد العربيـــة وأطلقت عليـه اسم : جيش الانقاذ وعهدت بقيادته الى فوزي القاوقجي اللبناني .

وكانت محمية من جيش الانقاذ هذا ترابط في الناصرة وأقبل اليهود يحاولون غزو بلدة المسيح بعد ظهر أحد ايام تموز وما ان رأى ضابط جيش الانقاذ اليهود آتين بسياراتهم ومصفحاتهم حتى امروا جيشهم بالانسحاب بل بالفرار وأوهموا الأهلين انهم سيمضون ليجلبوا المزيد من الامدادات ودخل اليهود من جهة اخرى . ويقال ان بعضهم كان يرتـدي الزي العربي فظنهـم الاهلون الامدادات العربية المنتظرة وأطلت امرأة من شرفـة منزلها وانطلقت تزغرد مرحبة بالجيش العربي المزعوم متمنية له النصر فما كان من احد الجنود اليهود الذين يعرفون العربية الا ان رماها بنيران رشاشه فسقطت من على شرفتها الى الشارع مضرجة بدمائها .

ومع سقوط الناصرة بدأ الهلع يستولي على النفوس وبدأ سكان القرى المجاورة يخلون قراهم هاربين من وجه التقدم اليهودي او يشتبكون مع العدو في معركة بطولية لا تكافؤ فيها ومع صباح كل يوم كنا نستيقظ لنجد سيلاً جديداً من النــازحين يتدفقون على قريتنا وهم يحملون بعض حوائجهم على الحمير والبغال والخيول

ويسوقون امامهم بعض الماشية . وكان منظرهم يثير في نفسي التحسر والأسى . وفي صباح يوم اقبلت عندنا احدى النازحات تطلب خبزاً لها ولاسرتها لأن الزاد الذي كانت تحمله قد نفذ ومضت امي تحضر لها بعض الطعام ولحقت بها فرأيتها تقف في زاوية تجفف دموعها وحين رأتني قالت لي : « ونحن متى سيأتي دورنا ؟ هل سأطلب يوماً رغيفاً من الخبز لاطعامكم ؟ »

وحين مضت النازحة الى حال سبيلها قال اخي منير : «هل يرى حكام العرب ما صنعوه بنا ؟ » وعدونا بجيوشهم السبعة فماذا كانت النتيجة ؟ جيش انقاذ يهرب حين يرى مصفحات العدو . وجيش اردني يقدم قائده الانجليزي جزءاً من البلاد بين الحين والآخر هدية متواضعة من جلالته لليهود . وجيش عراقي يقبع ساكناً لا اوامر له بالتحرك . وجيش مصري تعبث بـه اهواء الحكام . أما الجيوش الأخرى فالأفضل الا نتكلم عنها .

وكان جميل حاضراً فقال متهكماً : « جاءنا العرب بجيش انقاذ ولا أحسن . أتوا لنا بالجياع ليشبعوا في ارضنا ويهربوا اذا جاءت ساعة القتال : » وصاح اخي منير : « الحكام العرب ؟ ان ما يستحقه كل واحد منهم خمس رصاصات في رأسه تريحه وتريحنا منه !!! » ورد جميل قائلا : لو كان الأمر بيدي لأمرت باعدامهم جميعاً لا رمياً بالرصاص بل شنقاً كالمجرمين .

وصدر قرار جديد من مجلس الأمن يفرض هدنة ثانية قبلها حكام العرب راضين وعاد برنادوت الى القدس يكمل مشاريعه

ويحاول ارجاع السلام الى ارض لم تعرف السلام .

وفي احد ايام ايلول اجتاز برنادوت مع الكولونيل سيرو الفرنسي والكولونيل بيجلي رئيس المراقبين الاميركي القدس العربية الى القدس اليهودية وفي احد الشوارع اعترضت سيارته سيارة جيب فيها بعض اليهود المسلحين. وتوقفت سيارة الوسيط الدولي ونزل المسلحون من سيارتهم وانهالوا بالرصاص على صدر برنادوت وسيروا الجالس قربه في المقعد الخلفي ، وتركوا رئيس المراقبين الاميركي .

تمت الحماية بسهولة بالغة وقد قتل اليهود برنادوت لانه اوصى بقيام دولة اتحادية ووقف تدفق الهجرة اليهودية الى فلسطين . وان لم يخل أي مشروع من مشاريعه من ايجـاد دولة يهودية . وكافأة السويد اليهود على عملهم فاعترفت بدولتهم بعد فترة وجيزة من اغتيال الوسيط الدولي السويدي !

واقبلت قوات جيش الانقاذ فاحتلت القسم الباقي من الجليل بايدي العرب وجعلت من ترشيحا قاعدتها .

وبدا لفترة ان اليهود قد اكتفوا بما غنموا اذاصبحت مساحة اسرائيل تزيد عن المساحة التي اعطاها اياهـا مشروع التقسيم .

وبدا لفترة ان حياتنا بدأت تستعيد هدؤها وما زلت اذكر حياتنا في الريف كانت حياة غريبة متناقضة لا تخلو من سحر خاص . فلقد كانت معظم البيوت تشاد بالطريقة التي كانت تشاد فيها ايام المسيح وكأن الفلاحين هناك قد جلسوا على شاطىء الزمن

آمنين يتأملون انسيابه بهدوء . كانت البيوت مرتفعة وقدشيدت جوانبها بالحجارة الضخمة والطين أما السقف فكله من الأخشاب الكبيرة بينها اخشاب صغيرة تعلوها طبقة من الطين ولم يكـن في البيت غرفة جلوس اخرى للطعام وثالثة للنوم بل كان يقسم الى قسمين : قسم للبشر وآخر للدواجن .

وفي ليالي الشتاء تختلط انفاس الدواجن بانفاس البشر فكان الجميع يعيشون في مزود كالمسيح .

وكان منظر قطيع البقر والحمير او قطيع الماعز حين يعود مساء من الحقول يبعث في نفسي شعوراً غريباً من الطمأنينـة كنت احسني مثله انسى المكان والزمان فانسى آلامي واستسلم الى شعور من الصفاء لا تعكره ذكرى اليمة بل ان خوارالثيران كان يبدو لي نداء السلام الأبدي والسكينة الداخلية وان كنت اسمع في هذا الخوار رنة ألم عميق وصوت شوق غريب للطمأنينة اللامتناهية .

وكثيراً ما كنت انطلق مع اخي منير بين حقول الزيتون الواسعة أو حقول القمح او الذرة المترامية الاطراف فلا نعود نجتر آلامنا وفي الطريق نمر بمزار « ولي » يقع في مدخل القرية له قبر مرتفع شيد حوله بيت مظلم سدت جميع نوافـذه وعلى القبر وضع الفلاحون الكثير من الثياب المزركشة واضاؤا السراج بالزيت انهم لا يعلمون اسم وليهم بل يلقبونه بالصديق ويؤمنون به حامياً وشفيعاً للجميع . فمن قصده قضى له حـاجته وهم لا

يتكلمون عنه إلا بكل وقار وخشوع .

وعلى بعد قليل من القرية مغارة كبيرة أشبه ببئر ارضية واسعة تتجمع فيها المياه في الشتاء فيأتي الفلاحون اليها في الصيف حين تقل المياه المخزونة لأخذ بعض المياه منها ولكنهم ينزلون درجاتهم العديدة بخشوع ويستأذنون الأولياء العشرة الراقدين هناك قبل المباشرة بعملهم .

والواقع ان في داخلها عشرة قبور نسج الأهلون حولها الأساطير الكثيرة التي تعيش معهم جميعاً ففي احدى الليالي اخبرتنا احدى المسنات باجلال وصوت منخفض مهيب ان الصالحين العشرة يجوبون المنطقة ليلاً ويظهرون لبعض الناس وان الموسيقى تعزف لهم مرة في الاسبوع وانها كانت ذاهبة ظهر احد الأيام حين كانت في مرتع صباها فسمعت موسيقى وضوح تدق بانغام جميلة فانتابها الخوف وولت هاربة . وبعد ذلك بأيام قليلة عادت وسمعت صوت الموسيقى ثانية فلم تخف هذه المرة بل انتظرت الى ان انتهى العزف. وبعد ظهر أحد الأيام كنت ماراً مع اخي منير برفقة أحد شبان القرية قرب المقبرة وفجأة التفت الينا مرافقنا وأشار الى قبر فخم وقال : لقد قتل صاحبه بالرصاص وهو في أوج شبابه . وقد ظهر للكثيرين بعد موته . ولقد كانت جماعة مارة ليلاً بالقرب من قبره فرأوه يجلس فوقه وهو يحدق النظر اليهم فحياه أحدهم باسمه وقد وجد نفسه فجأة يلسى انه توفى في حين هرب الآخران ففطن الأول الى انه يحيي

ميتاً فوقع مغشياً عليه .

وفي احدى الليالي كنت أمر وحـــدي بالقرب من المقبرة فالتفت الى مقبرة الشاب الذي قتل بالرصاص لأسخر من ادعاءات القرويين ولكني ما ان نظرت حتى صفعت : رأيت اخي سميراً يقف منتصباً وقد امتلاء وجهه دماء فنظرت اليه نظرة ملؤها الحنان والهلع وحاولت ان اقول شيئاً ولكني بقيت لا اقوى على الحراك وعدت احدق النظر اليه فبان لي كل ما حولي دماء واسبح في محيط فان من الدماء فاستبد بي خوف مفجع وفجأة القيتني اركن الى الفرار .

وسرت شائعات بان القسم الباقي من الجليل سيضم قريباً الى لبنان ، ولكنه لم تمض أيام حتى اقبلت الطائرات الاسرائيليـة تمطر قريتنا بالقنابل مساء . ومع القنابل القت بمئات المناشير العربية وهي تدعو الأهلين الى الاخلاد الى السكينة وعدم محاولة مقاومة اليهود ، واستغربنا ما جاء فيها ولم نأخذها محمل الجد وظنناها مناورة من العدو .. وفي الليل شعرنا بتحركات غريبة لجيش الانقاذ وقيل ان امدادات جديدة ستصل وفي صباح اليوم التالي أقبل جميل عندنا يقرع البـاب باكراً فهببنـــا من النوم مذعورين واقترب منا خائفاً وقال :

لقد انتهينا ، لقد انسحب جيش الانقاذ بكامله في الليل بعد معركة مع اليهود في ترشيحا ، وما هي الا ساعات قليلة ويكون الجيش الاسرائيلي عندنا . واستولى الجزع علينا جميعاً

وأحسست بالضياع كمن وقع في الكمين . وفيما نحن ننتظر مصيرنا بهلع اقبلت احدى قريبات جميل من قرية اخرى منفوشة الشعر منهوكة القوى تولول وارتمت امامنا وهي تقول :

« انقذوني . اسعفوني .. استحلفكم بالله »

وقبل ان نسألها عما ألم بها صاحت بنا : اخوتي الثلاثة وزوجي وجميع ابناء عمومتي قتلوهم جميعاً ووضعوهم جميعاً في مغارة . وبعد ان هدأت قليلاً استطعنا ان نعرف منها ان الاهلين يعاونهم جيش الانقاذ كانوا قد اشتبكوا مساء مع اليهود وتفوقوا عليهم وقتلوا بعضاً منهم الا ان الأوامر صدرت الى جيش الانقاذ ليلاً بالانسحاب فانسحب وترك الأهلين وحدهم أمام الجيش الاسرائيلي الذي لم يجد صعوبة في دخول القرية ثم كانت المجزرة.

وفي الساعة العاشرة اقبلت طلائع قوات اليهود وبعد ساعة بدأ العدو ينسف بعض البيوت المهجورة لارهابنا ورأيت أحد الجنود الاسرائيليين يجتاز مدخل حديقتنا وبان لي جحيماً مجسداً وحبست انفاسي انتظر ما سيفعل ولكنه لم يلبث ان عاد ادراجه .

وفي صباح اليوم التالي دعا المحتل جميع رجال القرية الى اجتماع عام ولم نلب نحن الدعوة لأننا كنا غرباء وخفنا ان يقع لنا مكروه وقبل ارفضاض الاجتماع جمع احد الضباط جميع الرجال القادرين على حمل السلاح وأخذهم اسرى حرب ثم أخبر

الباقين ان على سائر الأهلين ان يتركوا بيوتهم مفتوحة ويغادروها سيراً على الأقدام حتى الحدود اللبنانية سالكين الطريق الرئيسية المعبدة وبلغنا الخبر فشعرت بكابوس ينزاح فجأة عن كاهلي في حين أخذت امي تنظر في جنبات البيت وهي تبكي :

« هل سنترك كل شيء هنا أخيراً » ولكني لم أخف فرحتي فقلت لها : لقد جاءنا الخلاص فاسرعي والواقع انني لو عشت يوماً واحداً تحت احتلال العدو الظافر كنت أرى الدنيا فيه سجناً كبيراً محكم الاغلاق .

غادرنا بيتنا مع اسرة جميل لا نحمل شيئاً معنا وسرنا بقية النهار وفي الليل نمنا تحت اشجار الزيتون في العراء متوسدين بعض ثيابنا غير ملتحفين بشيء . وفي صباح اليوم التالي استأنفنا سيرنا وكانت دوريات الجيش الاسرائيلي تمر بنا في السيارات من وقت لآخر وكذلك كان يعترضنا احيـــاناً بعض افراد الجيش المرابطين في الشوارع . وبينما نحن نسير اعترضت سبيلنـــا دورية اسرائيلية قامت بتفتيشنا وبفحص اوراقنا ثم اخلت سبيلنـا وكان هناك عربي في مقتبل العمر يرجو الاسرائليين تصديقه ويقسم على ذلك بل تكاد الدموع تفر من عينيه . وصاح به احد الاسرائيليين :

– انت من جيش الانقاذ .. لماذا تنكر ؟

وعاد العربي يلح ويتوسل وينفي التهمة قائلا انه لا يرتدي ثياب جيش الانقاذ وكان يرتدي بنطلوناً كاكي اللون وقميصاً

ابيض ، وصاح به الاسرائيلي من جديد :

- لقد خلعت البزة العسكرية بعد ان لم تستطع اللحـــاق بفرقتك .

وعاد العربي يتوسل ولكن الاسرائيلي امره بالابتعاد قليلا عن الشارع العام والذهاب بين الحقول ولم يكد العربي يخطوبضع خطوات حتى عاجله الاسرائيلي بنيران رشاشه .

وقرأت الفزع على وجوه اهلي جميعاً ووجوه اسرة جميل . وأقبل الظهر وشعرنا بالارهاق والعطش والجوع وكانت الشمس ترسل حرارتها بسخاء وحين كنا نفكر بمكان نستريح فيـه اذا بدورية اسرائيلية جديدة تعترض سبيلنا وبعد تفتيشنا اوقفوا اخي منيراً قليلاً يلقون عليه بعض الاسئلة وتوجسنا خيفة ولكن الجندي لم يلبث ان اطلق سراحه ، غير انه اوقف جميلاً وراح يلقي عليه السؤال تلو السؤال :

- من اين انت ؟

- من عكاء .

- وماذا كانت وظيفتك ؟

- كنت موظفاً في البريد في حيفا .

- وماذا تفعل بالجليل .

- اقيم عند بعض اقاربي ؟

- ولماذا لم تسلم نفسك للسلطات العسكرية .

– ولكني غريب .

– الم تحمل السلاح في عكاء :

وتردد جميل قليلاً ولكن حب الحياة غلبه ،

– لقد غادرت عكاء قبل ان ينشب فيها اي قتال .

– الست من جيش الانقاذ ؟

– كلا فانا فلسطيني وهؤلاء هم اهلي .

– ولكن جيش الانقاذ يضم الكثيرين من الفلسطينيين .

– على كل حال لم انضم اليه .

وهز الاسرائيلي رأسه باستخفاف غير مقتنع وقال :

– انت تكذب .

ثم امره ان يبتعد قليلاً عن الطريق العام . وأدرك جميل المصير الذي ينتظره فصاح : ايها الجبان لقد تنبأت لكم بهذا اليوم ولكن هذا لم يمنعني من قتل مائة حشرة منكم في حيفا ومائة اخرى في عكاء . اتظنني اهابكم ايها الجبناء..

ولم يستطع جميل ان يكمل كلامه اذ انهال عليه الرصاص ليمزق جسده تمزيقاً في حين علا صراخ امه وابيه واخوته واندفعت امه نحو الجندي تحاول ان تضربه بقبضتها وهي تصيح :

– ايها القتلة .. ايها المجرمون .

ولكن الجندي دفعها برشاشه فألقاها أرضاً ثم هددها

بالقتل ان لم تتابع سيرها فكشفت عن صدرها وهي مـــا تزال طريحة الأرض وصاحت به :

– اطلق النار .. ماذا تنتظر ايها الوغد . انكم جبنـــاء لا تظهرون بطولاتكم الا بين النساء والعزل .

وفي المساء كنا نجتاز الحدود اللبنانية ، وفي الليل وصلنا الى بلدة بنت جبيل في جنوبي لبنان وهناك اقمنا عنـــد اسرة كنا نعرفها من حيفا وسبقتنا للهجرة الى هناك .

وفي اليوم التالي كانت سيارات النقل الكبيرة تنقل الفوج الجديد من اللاجئين من بنت جبيل الى صور مجاناً وصعدت مع اهلي واسرة ابي جميل ومضينا الى صور وهناك في سهل فسيـح في ضواحي البلدة اقيمت الخيم لنا ونزلنا فيها وأقبل بعض رجال الدرك اللبنانيين يحمل لنا الأكل المجاني ، بعض الخبز والزيتون والجبن وقليل من المعلبات .

وأكلنا للمرة الأولى خبز الذل ، وبعد ان انتهينا من طعامنا تنهد منير وقال : لقد كان كل شيء معداً وجاهزاً ، السيارات المجانية والخيم المجانية والذل المجاني ايضاً. وقلت انا : فتش عن الانجليز .

وكان ابو جميل ساهماً واجماً وأحياناً يخاطب نفسه او يمضي بين الحقول شارداً وكلما رأى القطار يمر يصيح به ، خذني الى فلسطين ، أريد ان اعود ، ثم يأخذ يجري وراءه الى ان يتعب .

وبعد ايام حاول الانتحار غرقاً في البحر ولكن الناس رأوه فأنقذوه الا ان الحمى اصابته ولم تتركه الا جثة هامدة بعد يومين .

وبعد ايام قليلة قررنا ان نترك المخيم قرب صور وان نأتي الى بيروت لنرى ما نستطيع عمله ، ولم يكن معنا سوى القليل من النقود ، ولكنها كانت تكفينا اجرة سيارة الى بيروت .

وفي بيروت لم تخل حياتنا من صعوبات وانه ليصعب علي الآن حتى نذكر ايام الحرمان تلك .

ما زلت اذكر حادثة لن انساها ما حييت . كانت امي جالسة وقد استبد بها الحزن ولم نكن جميعاً قد تناولنا اي طعام منذ يوم كامل وكانت اختي الصغيرة تسأل امي عن رغيف من الخبز وامي تعدها بعد قليل ، بعد قليل ، واختي الصغيرة تقول : ولكني جائعة جداً .

ولم تلبث اختي ان استسلمت للبكاء حين عيل صبرها ويئست من الحصول على ما يسد رمقها .. وابتعدت قليلاً وقد كادت الدموع تخنقني ولم اشعر الا وانا اسير من شارع الى شارع، ورأيت فرناً فوقفت أمامه متردداً وأخيراً تشجعت قليلاً ودخلت وطلبت من البائع ان يهبني رغيفاً ولكنه نهرني فخرجت وانتظرت الى ان جاء زبون يشتري خبزاً وبينما كان البائع يزن له اختطفت رغيفين وأطلقت لساقي العنان .. وعدت الى البيت ورميت بالرغيفين امام اختي الصغيرة وبانت ابتسامة شاحبة على

وجنتيها . اما انا فقد غطيت وجهي بين يدي وأجهشت باكياً .

وما زلت حتى اليوم اعتبر حادث السرقة هذا أنبل عمل قمت به في حياتي .

ولكن حياتنا لم تلبث ان بدأت تتحسن وبدأ الصليب الأحمر يوزع على كل فرد منا عشرة كيلو من الدقيق كل شهر . ثم استلمت العملية وكالة خاصة لهيئة الأمم وبدأنا في مطلع كل شهر نقف في الصف الطويل ننتظر رغيف الاحسان بصمت .

كنت كلما رأيت تلميذاً يحمل حقيبة ويمضي الى المدرسة احس بالدموع تنفجر من عيني !

وصمت زياد ليبتسم قليلا ويقول : ولكن ها قد اصبحت اليوم تلميذاً جامعياً وأصبح اخي منير موظفاً محترماً في احدى مصارف بيروت .

كل شيء يتغير .

* * *

نظرت الى زياد مبتسمة وانا اردد : ان من يراك لأول وهلة لا يمكنه ان يصدق ان كل هذا حدث لك .

- انها قصة طويلة وأخشى ان تكون مملة .

- لقد مضى الوقت سريعاً .

- هيا بنا يا ليليان .. فقد كنا زبونين ثقيلين اليوم .

وغادرنا المقهى . كانت الامطار قد انقطعت والشمس قد بدأت تلقي باشعتها الدافئة وعرضت على زياد ان نستفيد من

هذا الجو الصافي فنعود سيراً على الأقدام .

وفي الطريق التفت اليه وقلت :

– لا ادري لماذا اشعر انك قد تغيرت فجـــأة في نظري . كأنك لم تعد زياداً الذي عرفته سابقاً .

– يبدو انك تأثرت كثيراً بما رويته لك .

– كثيراً أكثر مما تتصور .

– لم اكن ادري ان هذا الجزء المنسي من حياتي يمكن ان يهم انساناً الى هذا الحد .

وابتسمت له وعندما جئت لأودعه قال لي : لا تنسي ان تقبلي سميراً عني . وابتسمت من جديد وقد شعرت بتعـــاطف غريب مفاجيء نحوه .

القسم الثالث

١

«ما اروع الطقس اليوم » ورفعت رأسي عن الكتاب لأرى زياداً امامي فبادرته قائلة : ها قد اقبلت اخيراً . ورد علي وهو يجلس الى جانبي على مقعد في حديقة المدرسة : ما الذي حملك على المجيء مبكرة جداً . وردت : «الذي حملك حملني» . انه يوم جميل حقاً ومن العبث ان نقضيه داخل جدران البيت ؟

– وهل يسؤوك ان تبقى في البيت ؟

– كلا ، ولكن البيت وجد للشتاء .

وصمت قليلا ليسألني : كيف حال اخيك الصغير ؟

– لقد استقبلني بالأمس بتلهف وقام من فراشه وركض الي حين سمع صوتي فاحتضنته وامطرته بوابل من القبلات .. ثم

انهلت عليه بالاسئلة الكثيرة عن صحته فنظر الصغير الي متعجباً من هذا الحنان المفرط المفاجىء وقال وقد شعر ببعض الضيق : « اني بخير وسأعود صباحاً الى المدرسة » .

ثم التفت اليه وقلت اتدري لقد احببت أخـاك الصغير حتى اني قضيت تلك الليلة كلها وانا افكر فيه مـا اقسى ان يموت وهو طفل فلا يجد امه فوق رأسه !

– انه لم يمت . انه هنا سجين في قلبي .

– ما اكثر ما تألمت في مطلع حياتك .

– اننا لا نشعر بوجودنا ولا نرتفع الى درجة قصوى مـن كياننا الانساني الا ساعة نتألم .. ان الألم يشعرنا بوجودنا كبشر لانه يضعنا وجهاً لوجه أمام حقيقتنا ..

– ما أعظم ما تقول .. انك توافق الفلاسفة الشخصانيين في اقوالك هذه .

– انك تحبينهم وتفضلينهم على سارتر لأن عالم سارتر عـالم يائس جداً قاتم جداً .. اما الشخصانيون فانهم متفائلون جداً .

– مع ان الماما تقول عني اني لا أرى من الحياة الا وجهها القاتم .

– لأنك لا ترين من الحياة الا وجهها القاتم كنت بحاجة الى من يحدثك عن الأمل المشرق والحب الرائـع .. ان الحزين لا يحتاج الى مزيد من الحزن .. انها مسألة تعويض ليس الا ..

– لقد استوعبت درس علم النفس . اطمئنك ستفوز بتفوق في نهاية العام .

– ان التفوق لك وحدك لن انازعك عليه . ساعة اكون مع غيرك اشعر بتفوقي اما معك انت فاني لا استطيع الا ان انحني امام زعيمتي .

– آه انك ما زلت تذكر السنة الماضية .. انك تعيش على الماضي كثيراً .

وأقبل بعض الزملاء وتشعب الحديث وتنوع ثم مضينا نستمع الى بعض المحاضرات وبعد ان انتهينا من ذلك خرجت مع زياد وحدنا نتجول في الشارع عائدين من المدرسة . وفي أول الطريق ابتدرته قائلة : انك لم تكمل لي محاضرتك عن الألم قلت ذلك بلهجة مزجت فيها الضحك بالجد . فاجاب : ابعده الله عنك .

– لماذا الا تريد ان ارتفع الى ذروة عليا من وجودي وان اقف عارية امام حقيقتي ككائن بشري ؟

– انك تجيدين التهكم .

– لم اقصد شيئاً من ذلك . اني احب حديثك فلولا ذلك لما استمعت اليك في المرة الماضية كل تلك الفترة الطويلة ... اني افضل عزلتي على الاختلاط بالناس كثيراً .

فأجابني بلهجة خلط الجد فيها بالمزاح . اشكر لك تنازلك

للاصفاء الى حديثي التافه ، فنظرت اليه ضاحكة وقلت :
ان لم تقل لي سريعاً رأي برجسون في الألم فاني سأتركك
وأمضي وحدى فضحك وقال : – أمرك استاذتي . سأتلو
عليك الدرس لتتأكدي اني استوعبه جيداً ..

– اسرع بالاجابة والا حسمت لك علامتين .

– ان الألم يلامس « الانا العميقة » الانا الأخص « لا الانا السطحية » كما يقول برجسون. انه يبعدنا عن الحياة العادية التافهة ليسلمنا لأعماق نفسنا لنتأمل الحياة العميقة ..

– وانت الآن تعترف من « اناك » العميقة ام من أناك السطحية ؟

– لك انت ان تحكمي .

– انك تمزح فلا بد انك تتكلم من اناك السطحية ؟

– اني معك اشعر دوماً اني في أعمق اعماق اناي العميقة ..

فنظرت اليه نظرة كلها جد ، فتابع متمماً حديثه مازحاً :
حتى اني من شدة تعمقي أصل الى الجحيم واحس بالنيران
تحرقني .

وأدركت ما يعني فضحكت وقلت : انك خبيث ولكن
خبثك يعجبني .

وصمت فترة قصيرة لأقول له برزانة :

– لقد صدمني حديثك عن الله في المرة السابقة .

ونظر الي ثم توقف عن السير وأجابني : لقد كنت مؤمناً ساذجاً مثلك ؛ واعترضت على حديثه قائلة :

– لست ساذجة وليس كل مؤمن بساذج .

– آه اني اعتذر لك .. لقد كنت مؤمناً شديد الايمان هل يعجبك هذا ؟

– وماذا بعد ذلك ؟

– وكنت احافظ على ممارسة الطقوس الدينية . ولكن ممارسة الطقوس الدينية ليست الأمر الأهم .

– المهم اني كنت متعلقاً بالله تعلقاً شديداً وكذلك كان ابي الى ان كانت الكارثة ومات اخي وتبعه ابي وفقدت بلادي .. وبدأت بعد ذلك افكر في الله الذي صليت له كثيراً ورجوته كثيراً ماذا فعل لي .. لقد تخلى عني ساعة محنتي انا الذي لم أكن انساه في أية لحظة من حياتي .. حينما كان ما يزال في اخي رمق رجوته ان يبقيه على قيد الحياة وقلت له وانا ابكي اني على استعداد ان ادفع اي ثمن يشاؤه في سبيل ذلك . ولكنه ماذا فعل لي ؟ لم يعبأ بتوسلاتي ومات اخي وهو يتمنى ان تكتحل عيناه برؤية امه قبل وداع هذا العالم .. مات وتركته في البيت لا يجد من ينزله الى مثواه الأخير ... اننا نصلي لله لا لأننا نحبه فلو كنا نحبه لما كنا بحاجة للصلاة له .. ان الصلاة له ثمن عبوديتنا . انها الضريبة التي نحاول ان ندفعها لنستدر بها عطف

الله علينا .. اننا نصلي له لأننا لم نستطع بعد ان نتحرر من خوفنا منه .. من خوفنا من المصائب التي يستطيع ان ينزلها بنا ذلك اننا نؤمن بانه يستطيع ان يفعل بنا كل ما يريد .. ان قدرة الله على كل شيء اسطورة انها الوهم الأكبر الذي يقض مضاجعنا ليل نهار .. ولكني بعد وفاة أخي تحررت من هذا الوهم اذ ادركت ساعة ودع اخي الحياة الى غير رجعة ان اخي مات مرة والى الأبد وان الله نفسه لأعجز من ان يعيده.. شعرت في تلك اللحظة الرهيبة ان الله بكل جبروته لم يعد يستطيع ان يساعدني وان مصيبتي كانت أكبر من ان يخفف من وقعها شيء .. وبدا لي ايماني السابق بالله عجزاً وذلاً ...

وشدهت بعنف لكلماته فنظرت اليه باستغراب، وحينما الفاني ما زلت احدق به بصمت عاد يقول وقد تهدج صوته وبان حزناً عميقاً : ان صلاتي الحارة لم تشفع لي عند الله كي لا يميت اخي.. بل أمات ابي من بعده وتركني اعيش فريسة لهواجسي .

وصمت قليلاً ليستأنف ؟

– كان ابي يقول بعد وفاة اخي الصغير ان الله يجرب خائفيه . ألم يجرب ايوب ويمتحنه بضربات سبع لسنوات سبع ولكنه عاد فكافأه في النهاية فكان ذلك خير ثواب له . ولكن ما نسيه ابي هو انه ما كان على ايوب ان يفرح في النهاية لأن الله رزقه بأولاد بدل أولاده . كان عليه الا ينسى ان اولاده الذين

ماتوا قد ماتوا مرة واحدة والى الأبد وانهم ما يزالون يرقدون تحت التراب وقد حرموا نعمة الحياة ؛ والأولاد الجددالذين رزق بهم ايوب لا يمكن ان يعوضوا الأولاد الذين فقدهم فالكـــائن البشري لا يمكن ان يعوض بكائن آخر ...

وكذلك كان أبي يردد بعد وفـــاة أخي : الله اعطى والله أخذ .. لم يكن ابني سوى امانة عندي وقد استردها الله ! كان يقول لي هذا دوماً ليعزيني به لأنه كان يراني تأثرت كثيراً وقد اتهمت نفسي بالتسبب بمصرع أخي والواقع انه كان يحاول أن يعزي نفسه بهذه الأقوال لأنـــه كان أحوج مني الى التعزية . ولكن هذا الايمان الشديد ماذا استطاع أن يفعل له ؟ هـــل استطاع ان يخفف كثيراً من وقع المصاب عليه ؟ لقد لفتـــه المصيبة لفاً ولم يستطع ان يهضمها .. كلا ان الله لم يعطـــه إياه منه .. لقد أفنى ايامه في تربيته وسهر عليه الليالي وعاش معه بأعصابه ساعة ساعة فبأي حق يأخذه الله ؟ اننـــا نخشى أن نواجه الحقائق لذا ننسب مصائبنا لله ليخفف علينا وقعهـا .. هكذا شاء الله .. هكذا شاء القدر العاتي وليس أمامنـــا إلا الرضوخ والاستسلام .. ونحن نحمد الله بعد مصائبنا كـي يوفر علينا مصيبة اخرى وهذا منتهى الذل .

ولفظ جملته الأخيرة بانفعال ظاهر . فنظرت اليه وقلت :
ـ ان لك ذكريات اليمة جداً وقد أثارها سؤالي .. لم أشـأ

ان يتجه حديثنا هذه الوجهة .. انك تخيفني احيانـــاً ولكني بدأت ادرك ..

– تدركين ماذا ؟

فابتسمت في وجهه ثم قلت .

– انك متعب يا زياد .. انت بحاجة الى كثير من الراحة ..

– اني أجد راحـة كبرى حين تصغين الى أقوالي .. ظلت هذه الأراء تختمر في رأسي سنين طويلة وأنا أعيش معها وحدي .

– لأنك تعيش معها وحدك تتهم الله دوماً .. ان الله ليس المسؤول .. انهم البشر .. البشر هم الذين يعلنون الحرب وهم الذين يقتلون ويهدرون دماء بعضهم البعض .. وهم المسؤولون عـــن مقتل اخيك وعما حل بأبيك .. ان مصائبنا الصق بشيء بنا لأنها نسج أيدينا .. ان الأحداث تجرفنا ونحن نمثل على مسرح التاريخ . ومن العبث لك ان تتهم نفسك بمسؤولية انت منهـا براء .. اننا لا نستطيع ان نتكهن عما في المستقبل ولا نستطيع ان نفهم الحاضر الا بعد ان يصبح ماضياً .. اننا نحكم دوماً على الأشياء الحاضرة من خلال النتائج التي تحصل عنها في المستقبل . لذا كان من الصعب تحديد المسؤولية لأننا ساعة نقوم بالعمـــل نكون في معظم الأحيان ضحية للاحداث التي تحيط بنا في تلك اللحظة فنحن في غمرة الأحداث لا ندري بالضبط حقيقة مـا نحن مقدمون عليه .. ان الحروب والمعارك من صنع ايدينا نحن

البشر .. فنحن نصارع في هذا العالم بحثاً عن حقيقة انفسنا .. ان ما يقع في هذا العالم من خير وشر من صنعنا نحن .. ولكن الناس اعتادوا ان ينسبوا الأشياء الى الله وهم يظنون انهم بذلك يبرهنون عن شدة ايمانهم به ولكن الحقيقة انهم يسيئون اليه حين ينسبون اليه ما يصنعه البشر .

وهنا انتفض زياد وقال: كلا كلا يا ليليان الله وحده المسؤول لانه خلقنا عنيفين . قلب الانسان ينسج من العنف . انا نفسي كنت عنيفاً وكنت أحس هذا القلب يتغذى بشبق بأعمال العنف التي كنت أقوم بها . كنت أقتل وأسفك الدماء فيخفق هذا القلب جذلاً طالباً المزيد .

وحاولت أن أرد بهدوء قائلة : زياد اني ادرك اننا جميعاً مجرمون وان من يقتل ليس أكثر اجراماً من ذلك الذي يشاهده مكتوف اليدين .

ولم يجب زياد بشيء في حين عدت أقول له : ان الانسان في سبيل معرفة نفسه يسلك أحياناً طريقاً مليئاً بالعنف حتى ليبدو العنف وكأنه صفة ملازمة للمعرفة ولكن ليس من العدل أن ننسب هذا العنف الى الله اننا بذلك نسيء الى أنفسنا والى الله . ان الانسان يقترف العنف لانه لا يحب الله .

– انك تخطئين فالعنف أعمق جذوراً في قلب الانسان من محبة الله . ومن أغرب الامور ان الذين يحبون الله أكثر من

غيرهم هم الذين يرتكبون أبشع أعمال العنف . لقـد كانت تربط منظمة الاراغون أواصر وثيقـة بالتصوف الديني اليهودي لذا لم يكن في صفوفها نساء ومع ذلك فان صوفيتها لم تمنعها من ارتكاب القتل والتدمير . انظري الى ماضي الانسانية انه مليء بالدماء .. الدماء الغزيرة التي سفكها الانسان .

– ان تاريخ الانسان مليء بالدماء لانه مليء بالخطيئة فالعنف هو الخطيئة الكبرى !

Pour les hommes forts il n'y a pas de péché —

ليست هناك خطيئة عند الاقوياء . الخطيئـــة هي خوف الضعفاء .

وصمت قليلا قبل أن يغير لهجته وهو يقول :

– صدقيني يا ليليان اني أشعر أني أكثر ارتياحاً منـذ أن تحررت من فكرة الخطيئة .

والتفت اليه وقلت : انت تشعر انك أكثر ارتياحاً لا لأنك تحررت من فكرة الخطيئة بل لانـك تكره جميع الاديـــان وتحاول ان تتخلص من تعاليمها .

ورد علي : لقد سئمت الاله الجبار البطاش . أليس مـن السخف أن يموت انسان شرده جبـابرة هذا العـالم ليستفيق في العـالم الآخر ليرى نفسه أمـام جبار جديـد ؟ . ورددت وأنا أحاول ان ابتسم : ولكن الله أب يحب جميـــع أبنائه .

وابتسم زياد وهو يرد علي : أحقاً ان الله أب ويحبنا ما أعظم هذا لو كان صحيحاً ! وصمت قليلاً ليستأنف : صدقيني يا ليليان ان أكثر ما أخشاه هوان يكون الله حقاً بطاشاً يغضب ولا يتسامح ، أن يكون أقل تسامحاً من حاكم ديمقراطي ، ان يكون حقاً قد أحب يعقوب وأبغض عيسو من البطن قبل ان يولدا .

ورددت : الله محبة .. وقاطعني : ولكن المحبة تتعارض مع الدينونة . ما أحوجنا جميعاً الى المحبة فكلنا محكومون بالاعدام ولكننا لا ندري متى ينفذ الحكم فينا . ثم توجه الي بالسؤال :

– ليليان الا تعتقدين بان المسيح عرف الحقيقة وان الله محبة لذا فليست هناك دينونة ولكنه لم يكن يستطيع ان يقول الحقيقة كلها لئلا يزداد الخاطىء غياً في خطيئته ؟ وصمت قليلا قبل ان يتابع وكأنه يخاطب نفسه : لو وجد الجحيم لكان الله اقسى من نيرون !

ورددت : ليس لنا ان نعرف نوايا الله النهائية ولكن علينا دوماً أن نحبه :

Aimer Dieu sans souffrir sur cette terre, voilà une bonne chose, mais aimer Dieu tout en souffrant ici-bas

Voilà toute chose .

ان نحب الله دون ان نتعذب في هذا العـــالم شيء حسن ، ولكن ان نحب الله بالرغم من تألمنا في هذه الحياة الدنيا فهذا كل شيء .

ورد زياد : ما احوجنا جميعاً الى ان نولد من جديد بالمحبة ما احوجني لأن اولد من جديد ولكني لا استطيـع ! ان ماضيّ يقيدني بسلاسل من الكراهية .

ثم التفت الي فجأة وسألني : اذا لمسنا ان الحقيقة خارج الله فأيهما يجب ان نتبع الله أم الحقيقـــة ؟ وسارعت الى الرد وأنا أبتسم : خارج الله ليست هناك حقيقة .

فابتسم وهو يقول لي : ما احب يا ليليـــان ان يكون الانسان بصحبتك . وقلت والابتسامة لم تفارقني : حقاً ؟ لم أكن ادري . وعاد يضحك قليلاً وهو يقول لي : حذار فاني سأقع في أحد الايام في حبك . ورددت عليه وانا ابادله مرحه : ألم تقع بعد ؟ وتركه مرحه فجـــأة ليقول بجد : لست ادري .

وبعد فترة عدت اسأله : زياد ، لمـــاذا تكره الاديان ؟ ونظر الي يتأملني ثم قال : ايسؤوك ذلك : ؟ وحين اجبتـه بالايجاب ؛بان بعض الاسى على محياه وقـــال : من اجلـك أنا على استعداد ان احب أي شيء ولكني لا أستطيـع .

– لماذا .. ؟

– لان الدين اليهودي أساس الاديان التي نسميها سماوية .
– وماذا في ذلك ؟
– أن الدين اليهودي كان الدافع الاقوى وراء نزوح اليهود الى فلسطين وبالتالي اغتصابها منا وتشريدنا .

وصمت قليلاً قبل ان يتابع :
– الا تعترف بهم جميع الاديان بانهـم الشعب الذي اعطى جميع الانبياء الى المسيح ؟
– ولكن اليهود كانوا شعب الله ثم لم يعودوا .

– وكان اعترافي بالدين معناه اعترافي بان اليهود الحاليين هم احفاد الانبياء موسى وارميا واشعيا ودانيال ..

– ولكن حفدة الانبياء الحقيقيين هم الذين يعملون بتعـاليم الانبياء فبعد مجيء المسيح انتهت قصة الشعب المختار ، أنسيت انه قيل ان الله قادر على خلق أولاد لابراهيم من الحجارة ؟

– كان عليك ان تقولي هذا للآلاف الذين جاؤوا من انحـاء المعمورة ليقتلوا في فلسطين ، اني لا احب ان أخدع نفسي . اني أكره جميع الاديان لانها تعترف باليهودية الـتي كانت الاساس الاقوى للدعوة الصهيونية العنصرية . وتوقف زياد قليلاً قبل ان يستأنف : ان الآلاف من اليهود أتو متحدين الموت بـل أتوا ليلاقوه بنفس راضية لأنهم يؤمنون بانهم حفدة حزقيال ودانيال ويعقوب . لقد كانوا يقاتلون بضراوة حتى النساء حملن السـلاح

لأنهم نساء ورجالاً يؤمنون انهم شعب الله المختـار وان ابراهيم وداوود وسليمان وجميع الانبياء يمدونهم بالايمان والشجاعـــة ويرقبون عملهم من وراء آلاف السنين ويباركون ما يفعلون !!»

وبعد أن توقف زياد قليلاً يسترد انفاسه عاد يقول : حق ما فعلوه في دير ياسين يتمشى مع تعاليم التوراة . وقبـــل أن أحاول ان احتج قاطعني : رويدك فانا قد طـالعت التوراة أكثر من مرة وأستطيع أن آتيك بالبراهين ففي عهـد موسى ، كما هو مدون في سفر عدد تجند اليهود على مدينة مـديان وقتلوا كل ذكر ثم سبى بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهـــم ونهبوا جميع مواشيهم وكل املاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار ، لأن الرب أمرهم بذلك .

وكذلك ففي عهد يشوع حين دخـل اليهود مدينـة أريحـا اهلكوا جميع ما فيها من رجل وامرأة وطفـل وشيخ حتى البقر والحمير بحد السيف ثم أشعلوا النيران بالمدينة وأحرقو كل ما فيها إلا الذهب والفضة وأنيـة النحاس ، فقـد جعلوهـا في خزانة بيت الرب . وابتسمت وأنا أعلق : ان الروح التجارية لم تفارقهم حتى في الحروب غير ان زياداً لم يبتسم بل ظل واجماً لحظة وشردت نظراته الى البعيد وقد أخذه تفكير عميق وقال دون ان يلتفت الي : يخيل ا لي أحياناً اننا أضعنـاها لأننـا لم نحبها كفاية .. الحب الحقيقي لا يسكب الدموع بـل يسفـك

الدماء .. وصمت قليلاً ثم التفت الي وقال : أليس من الغريب حقاً ان نقتل بعضنا لأننا نحب شيئاً واحداً؛اذا آمن اثنان بشيء واحد عملا على هدمه . ما أقسى هذه الحياة ! .

كان زياد مستغرقاً جداً في أفكاره وبعد فترة قصيرة التفت الي وقال : الآن بت ادرك لماذا آمن الانسان دوماً بحياة اخرى ؟ قلت : لماذ ؟ قال : لأن آماله خابت في هذه الحياة . قلت : لست اوافقك ، هناك شيء أعمق من ذلك ، وسارع يستفسر : وما هو هذا الشيء ؟ قلت : شوق الانسان للسلام الدائم مع نفسه . ثم التفت اليه وقلت له : انت يا زياد بحاجة الى هذا السلام .

٢

حان موعد الدرس فأقفلنا باب الحديث .وعصر ذلك النهار مضيت اتمشى مع زياد فعرض علي ان نمضي الى مكان هـــادىء نمضي فيه بعض الوقت،فتمنعت في البدء ولكنه عاد يلح فوافقت ونادى سيارة اجرة وطلب من السائق ان يمضي بنا الى الروشة ووقف التاكسي بنا أمام مقهى « لاجروت اوبيجون » ونزلنا بضع درجات كان المقهى يكاد يكون خاليـــاً من الرواد .. يسيطر الهدوء على جنباته وقال لي ونحن نجلس : المكان هادىء جداً أليس كذلك ؟ قلت : بلى رائع حقاً . وجلست والقيت نظرة الى الخارج من النافذة الزجاجية .. كانت صخرة الروشة وراءنا وكان البحر هادئاً يتثاءب متاوجاً والشمس تلقي عليه آخر

أشعتها الناعسة فيستسلم لسحرها . وأشار زياد باصبعه الى الجنوب وقال لي :

– هناك على بعد ترقد الآن حيفا هادئة تحت اقدام الكرمل الشامخ ؟

– بت بشوق شديد لرؤيتها بعدما حدثتني عنها .

– وسمير انه هناك . لقد امتزج ترابه بترابها فأصبح قطعة منها .

– هذا مؤلم جداً

– مؤلم ولكنه الواقع .. لا ادري لماذا نميل نحن البشر الى اضفاء صبغة المثالية على كل ما نفقده .. ان الميت هو دوماً ذلك الجميل المحبوب .. أخي لم يعد سوى فكرة .. سوى ذكرى لم يستطع الموت ان ينتزعها مني ساعة خطفه .

– أتحن الى حيفا كثيراً ؟

– احب بيروت كثيراً ولكني رغم السنوات العشر التي قضيتها فيها ما زلت أشعر اني غريب عنها .. أشعر ان هذه السنوات لم اعشها أنا .. عاشها رجل سواي بعيد عن زياد الذي عرفته صغيراً .. هناك هوة في حياتي اسمها سنة ثمان وأربعين .. وأنا لا أشعر بصلة تربط زياد ما قبل هذه الهوة وزياد ما بعد هذه الهوة .. هناك زيادان مختلفان متميزان وأنا لا أشعر بصلة تربط زياد ما قبل هذه الهوة وزياد ما بعد هذه الهوة ..

هناك زيادان مختلفان متميزان وأنا لا أشعر باستمرار بين حداثتي وشبابي بل أشعر ان السنوات العشر الأخيرة من حياتي لم تندمج في « أناي » ولا تكون جزءاً متمماً من حياتي .. اشعر أحياناً رغم بلوغي مرحلة التعليم الجامعي اني سأعود فتى في السادسة عشرة لاستأنف دراستي الثانوية في حيفا وأنا أرتدي البنطلون « القصير » كأني لم اعش هذه السنين أو كأن الذي يعيشها غيري انا: زياد حيفا ..

اشعر اني لست مقيماً هنا وان اقامتي لفترة مرور فقط .. وهذا الشعور يلاحقني دوماً فأعيش وفي رأسي فكرة ان الأرض التي يجب ان أتعلق بها هي غير الأرض التي تطأها قدماي كل يوم .

اشعر اني لست مشابهاً لنفسي مماثلاً لشخصيتي التي كنت امثلها قبل اكثر من عشر سنوات فأنا أشعر ان سنة ثمان وأربعين قد اقتلعتني فجأة من الأرض التي كنت متعلقاً بها ولم تستطع الأيام ان تغرسني في أرض اخرى فبقيت معلقاً بخيوط أمل .. بحنين وشوق للانغراس من جديد .. لقد خلعتني سنة ثمان وأربعين فجأة من وظيفتي من مجتمعي فأصبحت أشعر ان وجودي زائد تافه بدون قيمة .. ومضيت أبحث عن الحقيقة . الحقيقة التي تستطيع ان تقنعني بان وجودي مبرر وان لكياني قيمة .. كنت اؤمن باني لا بد من ان أتوصل الى حقيقة تفتدي حياتي كلها .. فقدت وطني وأخي وامي وأبي وايماني وشعرت فجأة اني

معلق في الهواء وان في رأسي هنا هوة ساحقة من الجهل المطبق.. لماذا حملت السلاح في فلسطين ؟ ولماذا قتل أخي وهو صغير لا يعرف شيئاً من هذه الحياة ؟ ولماذا انتهت حياة أبي الى هـــذه النهاية المحزنة ؟

ولماذا أعيش كمشرد في هذه الحياة ؟ لمَ أنا غريب ؟ والله أين هو في كل ما يجري على هذه الأرض ؟ والى أين أسير ؟ ولماذا وجدت في هذه الظروف التي لم اخترها انا ؟ ان حياتي تافهـة بأكملها ولا أعرف لها هدفاً .. انها سخيفة جداً .. لا لن ارضى أن أعيش حياة عادية تافهة .. لا بد من أن هناك وراء هـــذه الأحداث المتتابعة حقيقة عميقة والا فما الغـاية من وجودي ؟ وهل يكون الوجود كله بـــلا معنى ؟ أتكون الحياة كلها ضياعاً ؟

كانت هـذه الاسئلة تلح دوماً علي وكنت أعيش في انقسام مستمر مع نفسي .. وفي كل هذه الظروف دخلت كلية الآداب. دخلت لأدرس الفلسفة فيها لعلها تعطيني الجواب على حيرتي .. ولكني ما ان كنت أعرف شيئاً حتى تنفتـــح اسئلة جديدة في رأسي .. كنت أشعر بالفراغ يزداد في دماغي .. ولكني عرفت شيئاً واحداً هو ان الحقيقة الانسانية لا يمكن ان تكون قاعدة نتوصل اليها .. انها دعوى تنبع من أعماق نفوسنـــا .. وكل حقيقة لا نشارك فيها بكل كياننـا لا تستحق عناء جهـد اكتشافنا .. وأدركت ان الحقيقة التي أبحث عنها عليّ أن أجدها

في نفسي واني ان لم أجدها في نفسي فعبثاً أبحث عنها بعيداً ..

كانت تتنازعني المشاعر المتضاربة فكنت أعيش الانقسام الداخلي فأبحث عن السلام مع نفسي فلا أجـده ... صحيـح يا ليليان ما قلته اليوم . انا بحاجة الى السلام الداخلي ، بي ظمأ لا يرتوي للطمأنينة ولكن أين ؟ اين أجد هذا السلام ؟ ومن من يستطيع أن يدخل الطمأنينة الى نفسي .

وظل فترة يحدق بي صامتاً .

* * *

لقد دون زياد هذه الفترة من حياتنا المشتركة بدفتر خاص كان يحتفظ به لنفسه . وها انذا أترك الكلام لزياد ، عنيت لدفتره .

٣

نظرت الى بيروت الهاجعة على أقدام البحر وتنفست الصعداء وأنا اردد في نفسي :

لقد انتهت أيام الامتحان وانتهت الليالي المقلقة التي قضيناها ونحن نسهر على انغام القنابل والرصاص .. ما أجمل المنطقة هنا حقاً وما أهدأها .. لقد قضينا بالأمس في « بيت شباب » يوماً هادئاً ونمت مع أهلي نوماً عميقاً في الليل بعد ان حرمنا من النوم الهادىء أكثر من شهر ونصف الشهر .

ان هذا الجو المتوتر المخيم على بيروت يذكرني بأيام حيفا الأخيرة .. كان للناس حولي في « العامرية » يتحدثون ويضحكون وكأن لا شيء يجري على بعد بضعة كيلومترات

منهم أو كأنهم ملوا جو بيروت المضطرب فجاؤوا الى هنـا كي ينسوا ما تعانيه البلاد من أزمـة دموية .. كان كل شيء حولي ينطق بالحب : المرأة والرجل الجالسان الى الطـاولة التي تـلي الطاولة التي أجلس اليها .. والنسيم الهادىء الفاتر .. وشجرات الصنوبر الساكنة .. والسهل المنبسط عن بعد.. والبحر الحالم .. والأزهار المتناجية .. والشمس المودعة .. والاطفـال الذين انصرفوا الى اللعب في حديقة الفندق الأمـامية ... أمـا أنا فكنت وحدي ولكن العدوى ما لبثت ان أصابتني فهتفت مناجياً نفسي : وأنا أيضاً يعمر الحب قلبي .. لن أكره بعد اليوم لكثرة ما كرهت في حياتي .. اننا نبغض ساعة لا نستطيع ان نرتفع الى مستوى الحب ..

وأخذت ارقب الشمس وهي تختفي رويداً رويداً وأنا مستسلم لأحلامي لا أفكر بشيء ، واستيقظت فجأة على صراخ صبي صغير لم يتجاوز العاشرة وهويقول بصوت مرتفع :ليليان.. ليليان .. انظري الشمس ما أجملها ! وركض وأمسك الجدار الأمامي بالقرب مني ... وقبل أن أعرف الحقيقة سمعت الصوت الأليف يقول : أأنت مسرور يا عزيزي ؟ اني دوماً مسرور معك أجاب الصغير مباشرة دون أن يلتفت خلفه ليشاهد اخته التي أسرعت نحوه .. ونهضت فجأة وأنا أقول : ليليان أأنت هنا ؟ أية ريح رائعة حملتك الى هذا المكان ؟ ومددت يدي للمصافحة ، ورددت وهي تصافحني : أهذا أنت كيف

حالك مع هذه الأيام ؟

ــ حسنة .. لقد هربنا من بيروت ونيرانها منــــذ يومين واستأجرنا منزلاً في بيت شباب .

المنطقة رائعة هنا حقاً .. انتم تصطافون في ضهور الشوير كما اخبرتني اليس كذلك ؟

ــ أجل وأنا آتي مع سمير كثيراً الى هذه الاماكن للنزهة . انه يحب السير على الاقدام كثيراً ..

ــ آه انه سمير اذن .. وقبل أن أسترسل في الحديث الفيت الصبي يقف الى جانبي ينظر الي متأملاً . ومددت يدي اليه وأنا أقول . سمير أهلاً بك .. أنا مشتاق جداً للتعرف اليك ونظر الصغير الى اخته فألقاها تبتسم له مشجعة فمد يده وصافحني .. وعرفته على نفسي فانحنى تأدباً .. كانت عينـــاه المسليتان الواسعتان وسط وجهــه الابيض المتناسق تنطقان بالحيـــاة والبراءة ..

ودعوت ليليان للجلوس فجلسنا نحن الثلاثة الى طـــاولة واحدة وطلبت الى الخادم ان يحضر لنـا بعض المرطبات .. وجلسنا نتناولها . وكنت انظر دوماً الى ليليان الجالسة أمامي المبتسمة دوماً ثم أنقل بصري الى أخيها الذي كان يسأل اخته عن كل ما يخطر بباله فتجيبه بهدوء وهي تبتسم لاسئلته كثيراً ..

واختفت الشمس وراء الافق وانقطع سمير عن اسئلته . وهب نسيم منعش صاف على وجوهنا وأخذ يداعب شعر ليليان .. وخيم صمت رائع مستحب علينا قطعته ليليان قائلة وهي ترنو بعينيها الى بيروت التي كانت تبدو لنا عن بعد : اليس من المؤلم حقاً أن يعيش الناس بالتفرقة والانقسام وفي الحياة كل هذا الجمال ؟ ورددت قائلاً : كثيراً ما تكون الثورة سبيل الانسان الوحيد للتعبير عن حبه الكبير .

– آه نسيت اني اتكلم مع محارب قديم .

– لم أكن محارباً بل كنت ثائراً .. اني أكره الحب .. ولكني احب الثورة .

– الثورة والحرب كلاهما قتال ودماء وأنا اكرههما .

– اننا بحاجة دوماً الى بعض الثورات .. ان أروع ما في الانسان قدرته على التمرد والعصيان والخروج على المألوف والحياة العادية التافهة .. ان قدرته هذه تعبير عن حريته .. تعبير عن وجوده عن حبه للخلق والابداع .. ان البشر يميلون للسكينة والهدوء فيستسلمون للحياة الراكدة فترة ثم يعصف بهم حب كبير فيثورون على الحياة التافهة وهكذا تذبح الحرية على معبد الحب .

– ان أكملت محاضرتك فسوف تجعلني احب الثورة ..

– ان المرأة تبحث دوماً عن الاستقرار والطمأنينة وهي لا تكاد تفهم في كثير من الاحيان هذا العالم الصاخب الذي يخلقه الرجل .. وان كنت أميل الى الثورة فلأني أكره الجمود الذي يسميه الناس الحياة الاجتماعية . ان الناس في حياتهم الاجتماعية يعيشون على الافيون .. انهم بحاجة دوماً الى أفيون يستسلمون له ولكنهم في لحظة من لحظات تيقظهم يعودون الى الثورة على انفسهم لانهم يشعرون بحاجتهم لمعرفة الحياة صافية نقية .. ولكنهم لا يلبثون ان يغطوا في نوم عميق ... ان أقدس ما في الانسان هو الحب وقد حوله البشر بتحويله الى الزواج الى شيء جامد راكد .. ان معظم الناس يتزوجون بالطريقة نفسها التي يستأجرون بها بيتاً للسكن .

وضحكت ليليان ضحكة خفيفة وقلت لها مغيراً اتجاه الحديث وكان أخوها سمير قد مل حديثنا فمضى يلعب مع بعض اترابه .

– ليليان دعينا من الثورة وأحاديثها .. انا بشوق شديد لك .. لن أطيق بعد الآن ان يمر يوم دون أن أراك .

– ولماذا لا تأتي لزيارتنا ؟

– سآتي قريباً ..

– سأنتظرك في الغد والآن حـــان وقت انصرافي فـــإلى اللقاء ..

– الى اللقاء .

ونادت أخاها الصغير ومضيا وأنا اشيعهما بنظراتي الوالهة .



٤

«تاكسي الى ضهور الشوير» كان الوقت عصراً والحياة هادئة جميلة وكانت أغصان الصنوبر تحيينا كلما توغلنا صعوداً في الجبل .. هنا يستطيع الانسان أن ينسى مشا كله حقاً .

وسألني السائق في منتصف الطريق : أين تريد ان تنزل في ضهور الشوير ؟ وأجبته في نهايتها .. أتعرف منزل الدكتور نسيم ؟

ـ أنا ابن المنطقة والدكتور معروف جيداً أتقصد بيته ؟

ـ أجل.

ـ هل تأتي عنده دائماً ؟

ـ اليوم للمرة الأولى.

ـ هناك كثيرون يعرفون الدكتور ولا يأتون الى بيته .

ـ لم أتشرف بمعرفته بعد.

ـ أتقصده اذن بناء على نصيحة أحد الناس ؟ واستمر السائق باسئلته وتعليقاته وكنت مشغولاً عنه ، للجو الساحر الذي أحسست به .

آه لقد وصلنا على ما أعتقد ، صرخت أخيراً .. فرد علي السائق قائلاً : أجل ثم ترجل من سيارته وقال لي بعد أن وقفت قربه : اترى تلك البناية المنعزلة ؟ هناك ... ووقفت اتأمل الطبيعة حولي وسمعت صوت السيارة وهي تنطلق مبتعدة .. ثم كان سكون مطبق .. وسرت نحو البيت وانا اسمع وقع خطواتي جلية .. كانت اشجار الصنوبر على جانبي الطريق خاشعة وانطلق تغريد احد الطيور يصلي .. وشعرت برهبة جميلة تسيطر على كل مشاعري فتوقفت قليلاً ثم اقتربت من البيت ومن بعيد رأيت ليليان تجلس امام المدخل وقد امسكت بيديها مجلة تقرأ فيها .. كانت صورة رائعة في لوحة رائعة .. ولم تنتبه لوقع خطواتي فاقتربت منها كثيراً .. كانت الشمس تلقي باشعتها الناعسة عند الاصيل على شعرها الفاحم فيتوهج بلون حالم . كانت ترتدي ثوباً صيفياً خفيفاً رائماً ببساطته وقد بانت ذراعاها جمالاً حياً .

وتنبهت الي اخيراً فرفعت رأسها عن المجلة ومدت يدها لمصافحتي وهي تنهض وتقول : اهلاً ... لقد عدت فجئت .. كنت اتوقع قدومك في الصباح وحينما مددت يدي لمصافحتها شعرت أني اصافح السعادة وقد تجسدت حية امامي .. وقلت لها وقد اخذت بروعة المكان : هنا كل شيء صاف خالص ..

لو كنت اصطاف كل عام في مثل هذا المكان لكنت اصبحت شاعراً كبيراً وابتسمت ضاحكة وسارت امامي .

ودخلنا الصالة . كل شيء فيها ينطق بالهدوء . الأرائــــك المريحة .. اللوحات الفنية .. رفوف الكتب في الزاوية .. السجادة الطويلة .. والعتمة المبتسمة تضفي على الهدوء مسحة كاملة . واقبلت امها وقدمتني اليها : السيد زياد ماجد تشرفنا قلتها وانا انحني انحناءة خفيفة .. كانت امها طويلة بيضــــاء ممشوقة القوام فيها الكثيرُ من ملامح ابنتها وكانت رزانة ملامحها توحي بالكثير من الاحترام .. وانطلقت تحدثني بلا تكلف وكأنها تعرفني من زمـان : كيف اهلـك في هـــذه الايام العصيبــة ؟ .

– آه بخير .. لقد رحلنا عن بيروت مؤقتاً وأخي الأكبر لا يذهب الى بيروت حينما يعلم بوقوع حوادث .. وانتم كيف تقضون ايامـكم ؟

– اننا هنا بعزلة عن الناس ونحـن نحب الهدوء كثيراً وزوجي لا يذهب الىبيروت الانادراًفيهذه الايام . اوقفت حديثها لتلتفت الى ابنتها وتقول : البابا مضى الى بكفيا وقــال انه سيعود في الثامنة ليلاً ولكنه سيأتي قبل هذا الوقت حتما .. انه يقول لنا بانه سيتأخر كي لا يشغل بالنا عليه وتناولت علبة سجائر من امامها وقدمتها لي وهي تقول تفضل سيجارة مسيو

ماجد .

ـ شكراً مدام انني لا ادخن.

ـ على الاطلاق ؟

ـ على الاطلاق وتناولت سيجارة واشعلتها لنفسها . وتدخلت ليليان في الحديث وقالت : دخن لماذا لا تدخن .. كل الناس يدخنون .

ـ اني على استعداد ان ادخن ساعة تدخنين .. وابتسمت : لم تكن تدخن وقطع حديثنا دخول سمير بسرعة . وفوجىء بوجودي ودعته امه ليسلم علي فقلت لها : اننا اصدقاء قدماء ولم يلبث سمير طويلاً اذ انصرف الى اللهو .. واقبل بعد فترة شاب فارع الطول يبدو في التاسعة عشرة من عمره وقدمته ليليان الي على انه اخوها الثاني نبيل .. كان يفيض حيوية وما ان جلس حتى بادرته امه بالقول : انك تقضي معظم نهارك في الاسفل ترسم .. ورد قائلاً وهو يمد يديه الى الامام : ما زالت يداي ملطختين بالالوان وقلت له : اتحب الرسم الى هذا الحد ؟ وردت ليليان عنه قائلة : انه يمضي معظم وقته في الرسم .. ان البابا ينبهه دوماً لمراجعة دروسه لانه يريد ان يدخل كلية الطب في السنة الدراسية القادمة ولكنه لا يكترث لذلك . واجبت : لعله سيصبح فناناً عظيماً ثم اردفت قائلاً : هل هذه اللوحات من رسمه ؟ اجل اجابتني ليليان .. ووقفت اتأملها

ثم قلت : انها رائعة حقاً، وسأل نبيل : اتعجبك ؟
– كثيراً .

– ولكن معظم الناس لا تعجبهم .. انهم لا يرون ما أراه يريدونني ان ارسم الاشياء مصقولة واضحة كما تفعل الكاميرا .

– لا يستطيع كل الناس ان يفهموا الفنان .. ان بعض النخبة تستطيع ان تفهمه فقط ..

– ولكن الناس الذين يرتادون بيتنا من خيرة الناس .

– آه اني لم اقصد ذلك .

– اني حينما ارسم فلأعبر عن نفسي .. وقد لاحظت ان الادباء حينما يكتبون يفكرون بان يلذوا القارىء ويتملقوه قبل ان يفكروا في التعبير عن انفسهم .

– اعتقد ان كل فنان حقيقي أكان رساماً ام موسيقياً ام اديباً يصنع فنه لنفسه اولاً . ثم التفت الى احدى اللوحات التي تمثل شيخاً وقلت : ان هذه اللوحة توحي بجو سيزان .. ورد علي مباشرة : آه سيزان حقاً: اني احبه كثيراً وقد تأثرت به .

وقطعت ليليان حديثنا لتقول انها تفضل الشعر على الموسيقى والرسم ورددت انا قائلاً : اني احب الشعر كثيراً ولكني اعتقد ان الموسيقى اكثر حياداً وأقل تحيزاً فكلمات الشاعر قد تضر بعض الناس وقد تغضبهم اما الموسيقى فهي ان لم ترض

لم تغضب .. والموسيقى اقرب الى عواطفنا واصفى من الكلمات التي كثيراً ما يفسدها الاستعمال .

ورد نبيل قائلاً : لقد كانت الموسيقى تهزني منذ عـــامين ولكن تأثيرها خف علي الآن .. انني بحاجة الى موسيقى عنيفة تؤثر في نفسي ،ورددت انا فوراً:استمع الى بيتهوفن اذن.وقالت ليليان في الوقت نفسه تقريباً وهي تشير الى اسطوانات الموسيقى الكلاسيكية الموضوعة في الزاوية قرب الراديو : اليك بيتهوفن أتريد موسيقى اعنف من موسيقاه ؟

وبعد فترة عادت ليليان تسألني عن شاعري المفضل فقلت : «بودلير» :ورد نبيل فوراً:آه بودلير ومن لا يحبه معظم الشعراء في العالم الذين جاؤوا بعده أخذوا عنه .وقالت ليليان ورامبو انه عظيم ، بينما رد نبيل آه رامبو اني لا افهمه .

وقامت الأم وانصرفت الى بعض شؤونها واقترحت ليليان سماع بعض الموسيقى فقام نبيل وأسمعنا بعض موسيقى جريج قائلا انه يحب هـــذه الموسيقى وبعدها قامت ليليان ووضعت السمفونيا الرابعة لشومان وعندها قام نبيل وانصرف فبقيت انا وليليان وحدنا وموسيقى شومان تنساب هادئـــة مهلوسة كئيبة آسرة .

وحانت مني التفاتة من النافذة الخلفية فرأيت الشمس تحاول التخلص من بعض الغيوم الخفيفة فترسل اشعتها متقطعة مترنحة . وقمت من مكاني وخرجت الى الشرفة الخارجية وألقيت نظرة

على ما حولي ..كان من تحتي واد سحيق وقد انتشرت فيه المنازل بين الاشجار هادئة آمنة وبدت أشعة الشمس الغاربة المتكسرة في الوادي اجنحة السلام تظلل العزلة الساحرة . وهتفت وأنا اسرح نظري في الوادي والموسيقى تنساب خفيفة الى سمعي من الداخل ..ما أروع ان يعيش الانسان هنا وتلفتّ خلفي فرأيت ليليان قد جاءت الى جانبي وابتدرتني متسائلة: امرتك المناظر؟ فأجبتها على الفور وانا مأخوذ بروعة ما إشاهد :الوادي معبد حق للحب والسلام .

– اننا كثيراً ما نتنزه فيه سيراً على الاقدام .

– ما اروع ذلك .

– تعال عندنا مرة اخرى وسنمضي سوية بتنزه .ودخلت الصالة من جديد واعترضتني في أولها رفوف صفت عليهاعشرات الكتب وتناولت واحداً منها وقلت : آه برجسون ووضعته لاتناول آخر : ماكس شيلر ثم نيدونسل ما أروع كتبها .. وهذه بعض الروايات : اتحبين قراءة الروايات ؟

– آه كثيراً .

– معك حق فليس أروع من قراءة الروايات العالمية في هذا المكان .

كانت ما تزال بعض الكتب في يدي والتفت بحركة مسرحية نحو ليليان وقد لمعت في ذهني فكرة جديدة وقلت : أتدرين .. من وراء المائة والستين كيلو متراً التي تفصل حيفا عن بيروت

يجمعنا حب افلاطون وكانط وبرجسون وماكس شيلر ونيدونسل .. ولمعت عيناها ببريق ساحر وهي تنظر الي كانت كل خلجة فيها تنطق بالحب وكانت كل قطرة في دمائي تهتف : « اني احبك » وأمسكت يدها بيدي دون ان تحاول أن تتمنع .. وببطء رفعتها الى فمي ولثمتها باجلال .. ثم حاولت بيدي الاخرى ان اضمها الى صدري فأنفلتت مني سريعاً وخرجت الى الشرفة ولحقت بها ووقفت الى جانبها ونظرت اليها .. كان وجهها قد احتقن بالدماء التي تكاد تنفجر منه .. وانعكست عليه اشعة الشمس الناعسة فبدت طيفاً .. حلماً رائعاً فنظرت اليها وقلت لها هامساً : ما أجملك .. لا شيء ينقص الحياة معك هنا !!

٥

وبعد بضعة أيام التقيت من جديد بليليان وكان لقاؤنا هادئاً كجمالها بسيطاً عذباً كانوثتها وغادرنا البيت وانطلقنا الى الحقول وحينما ابتعدنا عن الناس توقفت فجأة وقلت لليليان : اني احس بشعور غريب ينبع من أعماقي ويضفي على حياتي سحراً لا عهد لي به .. الحياة كلها من حولي بدأت تتحول إلى سحر رائع .. أحسُ بها تتفتح لي من جديد على رحابتها .. وأشعرني أحيا بملء كياني واشارك الحياة معانيها الجميلة الجديدة..وفاضت الطمأنينة من داخلي واجتاحت كل كياني فملأته وعرفت السلام الداخلي السلام الذي فقدته منذ عشر سنوات وبدأت أحس اني أعيش في وفاق مع نفسي وفي تناسق مع ميولي .. ولم تعد الأرض التي أعيش عليها غريبة عني .. وجدت حقيقة حية أمامي ..

حقيقة تستحق أن أعيش من أجلها ..

كانت ليليان تصغي الي بكل جوارحها وقد بانت الدهشة على محياها، وتفرست بوجهها قليلاً .. كان يبدو رائعاً جداً... كان الأمل المتجسد .. الحياة المتجددة .

وعدت لأستأنف حديثي وأنا أنظر الى عينيها وقد فاضتا ببريق لامع ساحر : ليليان بقيت بعد وفاة أخي فترة طويلة وأنا أراه كل ليلة يأتيني وينظر الي بصمت وهو عابس ويتفرس بوجهي وقد اكتسى وجهه تعبيراً صارماً عنيفـــاً ثم يمضي .. وأستيقظ والفزع قد استولى علي .. وتنهمر دموعي وأنا أردد: أخي حبيبي اغفر لي .. سامحني ولكنه لم يكن يرحمني كان يزورني دوماً ووجهه عابس .. وأحيانـــاً كثيرة كنت أرى وجهه ملطخاً بالدماء الغزيرة فأحاول أن أسرع نحوه ولكنه كان يشيح عني بوجهه ويدير لي ظهره ويمضي .. وفي الصبـاح حينما كنت أنهض كان يخيل لي أن كل شيء يشير الي ويقول : قاتل قاتل .. ولكني رأيته في الآونة الأخيرة : كان يبتسم لي لأول مرة وعاد الي عدة مرات وهو يبتسم ويضحك وفي المرة الأخيرة رأيته يرفع يده الي ويحييني كأن يدعوني لأستمر في الحيـــاة .. وفي الفجر قبل ان أستيقظ من النوم سمعته يهتف بي من وراء الابدية أن أعيش الحياة التي لم يعشها هو .. وان عـلي أن أنجب ولداً بدلاً منه ولداً تكونين أنت امه !!

ألقيت بكلماتي الأخيرة بهدوء وتأن وحدقت بوجه ليليان

أمامي ورأيت البغتة ترتسم فجأة على محياها..واحمرت وجنتاها وفتحت فاها لتقول شيئاً، ولكنها لبثت لحظات صامتة لا تعرف ماذا تقول .

وحين رأيت ترددها هتفت بها وقد أخذني حماس مفاجىء : ليليان اني احبك ، احبك يا ليليان أريد أن أظل الى جانبك أبد الدهر .وحاولت ان آخذها بين ذراعي ولكنها أفلتت مني وحين تمالكت روعها نظرت الي بدقة وقالت:ولكن زياد .. ألا تعتقد أنك تذهب بعيداً ؟ وسارعت الى الرد : لست أعتقد شيئاً ولكني احبك بكل جارحة في نفسي بكل قطرة دم تجري في عروقي .. لقد كتمت حبي لك كثيراً في أعماقي ..قاومته كثيراً حاولت ان أخنقه وهو رضيع ولكنه كان اقوى مني ..كان الحياة المتفتحة من جديد في حياتي .. الحياة التي فتحتها أنت أمامي .. جنة السلام الداخلي اريتنيها فدخلتها خاشعاً طائعاً .

وقالت لي : ولكن زياد.. وتعلثمت ولم تكمل حديثها فقلت لها : ليليان لست أطلب اليك أي مقابل . كنت دوماً أعرف انك لن تحبي مشرداً مثلي ولكن حبي كان عاصفة جارفة تختمر في أعماقي كان بركاناً وكنت ادرك دوماً انه سينفجر رغم أنفي وانه قد يدمرني بانفجاره ولكني كنت احب هذا الدمار كنت اجد سعادتي وأنا احترق بنيرانه .. كنت أحس اني لم أعد

غريباً عن الحياة ولا متطفلاً عليها .. كنت أحيا بالألم الذي كان يصهرني به حبي لك ..

حبك هو الحقيقة الوحيدة في حياتي .. كل ما عدا ذلك عبث وسخف .. الحرب التي شاركت فيها عبث .. والموت الذي حل بأعز مخلوقات عندي عبث .. والتشريد عبث .. حبك هو الحقيقة الوحيدة التي أعيش من أجلها .. لا لم يكن باستطاعتي ان اخنق حبي لك .. لم أكن أستطيع أن اقتل من احب للمرة الثانية .. لقد خطفت الحرب مني حبي الأول ولن الطخ يدي بدماء حبي الثاني .. انت حرة بان تشاركيني حبي أو ترفضيه انت تستطيعين ان تكرهيني وان تلعني الساعة التي عرفتيني بها ولكنك لن تستطيعي ان تنتزعي مني حبي لك .. انه كنزي الدفين .. سيبقى حبك دوماً في قلبي .. ستظل صورتك الرائعة مرسومة في أعماقي .. أنا لم احبك كي تبادليني الحب وساعة أحببتك لم انتظر منك ان تبدني بحبي .. احببتك لأني أحببت الحياة من جديد . شعرت بها تتفتح أمامي رائعة صافية بعد أن كانت قاتمة عابسة .. وكانت صورتك أنت وسط صورة الحياة الرائعة الجميلة كانت ابتسامتك التافهة اشراقة الحياة بالنسبة لي .. احبك ولا شيء يستطيع ان يغير من هذه الحقيقة ، حتى الموت بات اعجز من ان يغير شيئاً في حياتي . ساعة احببتك شعرت للمرة الأولى اني انتصر على الموت .. ان كان الموت هو الحقيقة المفجعة التي لا نستطيع ان

نفلت منها فالحب هو الحقيقة الوحيدة التي تستطيع أن تجعلنا نحقق نصراً على الموت ونحن أحياء فحين خطف الموت أخي كان حبي له وحده أقوى من الموت .. وحين انتزع وطننا منا لم يبق لنا سوى حبنا لهذ الوطن يتحدى الامم ويستخف بالزمان .. وحين اصبحت الدنيا قاتمة في نظري كان حبك وحده النور الجديد الذي استطاع أن يشع في جنبات حياتي قبل ان يأتي الموت ليلحقني باخي .. في الشتاء الماضي حين كان البرد يشتد والرياح تعصف كان حبك في قلبي يمدني بدفء رائع كنت أركض تحت الأمطار وأنا أردد : وماذا يهمني وان أقبل الشتاء ، ففي قلبي ربيع دائم .. في قلبي حب عظيم حار يذيب كل ثلوج حياتي ..

وانقطعت فجأة عن الاسترسال في الكلام ونظرت الى ليليان وقد رأيت في عينيها بريقاً ساحراً أدخل الفرح الى قلبي .
— لا ، لا تشرديني ثانية .. لقد سئمت العيش وحيداً .. لن أكون غريباً بعد اليوم .. انك لا تدركين معنى أن يعيش الانسان وحيداً .. ان يحيى في عزلة وقد فقد وطنه وأباه وأخاه وايمانه .. كرهت أن اكذب على نفسي اريد أن أعيش .. أريد حباً كبيراً يجعلني اشعر اني موجود .. حباً يستطيع ان يفتدي وجودي وان يبرر حياتي فلا أعود أرى نفسي مذنباً أو فضولياً بين الأحياء .. اريد حباً أعيش من أجله .. كان حبي لك هذا الحب العظيم الذي أعاد الى نفسي

الحياة وجعلني أنسى نفسي أنسى واقعي أنسى اني غريب مشرد واستسلم لاحلام حبك الدافئة فتبدو لي الحياة لوحة رائعة من السحر .

ليليان .. دجلي علي .. اخدعيني اكذبي .. ولكن قولي لي انك تحبينني .. دعيني اعتقد أن حياتي لها قيمة .. دعيني أظل أعيش في أحلامي الرائعة أياماً اخرى بعد ان رفعتني معك الى اجواء من الجمال والروعة .. لا .. لايمكن أن أكون قد استسلمت للأوهام .. ليس حبك وهماً .. انها الحقيقة الوحيدة في حياتي .. ولن تحطمي هذه الحقيقة التي اكتشفتها حديثاً، أنا بحاجة الى هذه الحقيقة بحاجة اليها أتمسك بها وادافع عنها .. لن أستطيع أن أحيا بدون حقيقة اكرس لها حياتي لن اكون زائداً في الحياة .. ستحبينني ستحبينني يا ليليان لأن حبك وحده يستطيع ان يفتدي وجودي ويعطي حياتي معنى ويزيل عني صفة التشريد التي لاحقتني سنين طويلة لن أبقى بعد اليوم غريباً .. أريد أن أندمج في مجتمع أخلص له وأن أتعلق بأرض احبها وان أؤمن بشيء أحيا من أجله .. وأنت انت وطني وأرضي وحياتي ولن أتركك ! وحينما بلغت هذا الحد من حديثي تمهلت لأسمع جواباً من ليليان ولكنها نظرت الي بصمت ولم تنطق بكلمة فعدت الى اندفاعي الأول ... أتعتقدين اني استجدي عطفك علي ؟ وهل تعتقدين ان عطفك سيغير شيئاً من الحقيقة ؟ لا تصدقي ما قلته لك الآن .. لست بحاجة الى حبك فهو لن

يستطيع أن يغير شيئاً من الحقيقة سواء أبادلتني مشاعري أم لا فان الحقيقة لن تتغير .. لن يستطيع شيء ان يبدل من واقعي سأظل مشرداً غريباً مستوحشاً .. لن اندمج باي مجتمع ولن اتعلق باي شيء .. هكذا أنا هكذا ،وضعي ولن يستطيع شيء أن يخلصني من هذا لقد كنت جباناً ساعة خدعت نفسي بحبك ونسيت حقيقة حالي.. كنت جباناً وقدتعبت من الوقوف عارياً باستمرار أمام الواقع .. لا شيء لا شيء على الاطلاق يستطيع أن يغير حقيقتي..لا شيء يستطيع ان يزيل عني صفةالتشريد.. سأظل مشرداً هائماً مقتطعاً من الحياة غريباً عن الأحياء .

لم تستطع ليليان أن تحتمل كلماتي ففرت مبتعدة عني وحين لحقت بها الفيت الدموع تنساب على وجنتيها،وحين رأتني أقترب منها أرتمت فجأة في أحضاني واستسلمت للبكاء وشددتها الي ورفعت رأسها ونظرت الي بعينين مغرورقتين ثم قالت لي : زياد احبك .. اغفر لي .. وأجبتها وأنا كالمأخوذ .. ليليان أحق ما تقولين ؟ وهزت لي برأسها بالايجاب والدموع ما تزال تنساب ببطء من مقلتيها : وعدت أقول: ليليان أنا لا أستحق كل هذا وقالت في غمرة فرح مفاجيء : بل أكثر منه أنت حبي العظيم.

– ولكني مذنب تافه .

– لست مذنباً ولا تافهاً .. أنت رائع جداً ..

– لا لا .. كل هذه السعادة دفعة واحدة هذا كثير ..

كثير جداً اكثر مما استحق ..

وأمسكت بين راحتي يد ليليان اليمنى وضغطت عليها برفق ونظرت في عينيها .. كانتا غارقتين ببحر من الصفاء وأحسست بالحياة الزاخرة تجري في عروقي فهمست وكأنني غير مصدق كل ما يجري اتحبينني يا ليليان ؟ فتمتمت وهي ما تزال تحدق بي احبك .. احبك كثيراً وسأعطيك سميراً من جديد .. !!

فأسرعت اليها اضمها إلى صدري لأغيب وإياهـــا في قبلة محمومة .

٦

«ليليان ليليان ..تعالي انظرى ما أبدع ألوان هذه الفراشة لقد امسكت بها» صرخت بذلك وانا اركض نحو ليليـــان وأمسك بيدي فراشة متعددة الألوان زاهية .. رفعت رأسها وقالت لي : آه يا عزيزي لقد كنت على وشك ان امسك بفراشة بعد طول مطاردة ولكن بمجيئك افزعها ففرت . ونظرت الى الفراشة التي بين يدي فصاحت : آه ما اجملها .. كم تمنيت ان امسك بواحدة مثلها . ومددت يدي بالفراشة وقلت خذيها هي لك هدية مني .

« آه ما الطفك » قالت ذلك وهي تتناول الفراشة مـــني وقربتها من فمها ولثمتها وهي تقول ما احيلاهـا . ونظرت الى ليليان وقلت لها: ستجعلينني اغار منها .. ارجعيها لي.

ـ لا سأحتفظ بها معي .

ـ سأنتزعها منك .

واقتربت منها اريد أخذ الفراشة فركضت امامي ولحقت بها وبدأت تقفز بين الصخور مسرعة وانا أثب خلفها . وبينما كانت تقفز فوق احـــدى الصخور تعثرت فسقطت على الارض وأسرعت نحوها ارفعها وانا أردد : هل اصابك سوء يا غاليتي؟ وأمسكت بيدها ورفعتها . وأخذت تنفض الغبار عن ثوبها بيدها الثانية ثم قالت « آه الفراشة ماذا أصاب المسكينة ؟» ونظرت الى الأرض تبحث عنها وفي الوقت نفسه كانت عيناي تنظران الى الارض ايضاً ورأينا الفراشة وقـد تحطمت اشلاء هامدة ورفعت ليليان عينيها بحزن ونظرت اليها وقلت : أأنت مستاءة ؟ وتبسمت فجأة وقالت : لا لن اكون مستاءة وانت الى جانبي .. انني في غاية السرور .. لقد استمتعنا كثيراً اليس كذلك؟

ـ اجل اجل انها نزهة رائعة ما رأيك في الجلوس ههنا بين الاعشاب ؟

- شيء جميل .. اني احب الاسترخاء بـين احضان الطبيعة ..

وتمددنا على الاعشاب على ظهورنا واشعة الشمس الغاربـــة تداعب وجهينا ولكننا لم نلبث سوى قليل ثم عدنا وانبطحنا على صدورنا .. وكان جبل صنين شامخاً في مواجهتنا واشجار الصنوبر

منتشرة من حولنا تراقبنا بصمت وتضحك لنـــا والازهار تملأ جنبات الوادي ...

وشردت الى بعيد افكر بالثورة العراقية التي قامت بالأمس واخذني حماس مفاجيء فصحت وانا في غاية النشوة : انني ارى الأمة العربية بادية في الأفق وقد ولدت من جديد لانها وجدت نفسها وانهت صراعها مع الانقسام والتجزئة والانفصال وأرى شمس الكرامة تشرق على الارض العربية من جديـــد فلا اسكندرون ينتزع قهراً ولا اسرائيل تقام غصباً وأرى الانسان العربي الفتي رافعاً رأسه وقد بعث مارداً يذود عن الحق بيمينه ويحمل مشعل الحضارة بيساره فلا تشريد ولا ضياع بعد اليوم .

واخذت ليليان تتأملني بصمت ثم احسست بيدهـا اليمنى تلامس يدي كانت تسيل منها بعض قطرات الدماء وقد جرحت جرحاً خفيفاً . وامسكت بها بيدي وقلت : ما أنعم اناملك وما أرق يدك اني اغار عليها من النسيم ودفعتها الى فمي وقبلت الجرح .. وسحبت يدها من يدي ولكني عدت فمددت يدي وسحبت يدها ورفعتها الى فمي وانهلت عليها لثماً .. ثم القيت بيدي الأخرى على ظهرها باسترخاء .. وقالت وهي ترنو اليّ بعينيها : ان الانسان لا يصدق ان في الحياة كل هذا الجمـــال واقتربت يدي من وجنتها ورفعت رأسها بيدي واقتربت منها وبدأت شفتاي تقتربان من وجنتيها .. ولكنها رفعت يدهـا فجأة ووضعتها على فمي فقبلت اناملها فقالت : آه يا زياد ..

كلني شوق لك !

ـ انك تضحكني .

ـ لن تتركيني بعد اليوم سنلتقي دوماً.

ـ انك متلهف دائماً .

واخذت ارنو الى الجبال من حولي وشعرت فجأة انها تخاطبني وتدعوني لأفتح لها قلبي .. لم تكن في الماضي الا جماداً اصم اما الآن فأنا أحس انها تحيا معي تشاركني سعادتي لقد اصبحت حضوراً كلياً وشعرت بجمال ناطق يفيض منها الى قلبي فاستخفني طرب مفاجىء فقمت اركض بين الصخور وأشجار الصنوبر وانا اصيح بليليان : انظري ما اروع هذه السنديانة انها أم حقيقية تنظر الينا بحنان .. تأملي شجرات الصنوبر انها اصدقاء تبتسم لابتسامتنا .. والصخرة الكبيرة البيضاء انها جد جليل تسره بساطة احفاده ودهشتهم .. والازهار انها اطفال بريئة .. ولحقت بي ،فقلت لها: ليليان اشعر الآن انيخفيف ـ خفيف جداً وقد تحللت من كل قيودي .. اني اسمو على نفسي.. ارتفع فوق حياتي اليومية .. اني سعيد .. سعيد جداً يا ليليان وامسكت بها وقد توقفت عن الركض بيدي من كتفيها .. وسمعتها تقول : وانا كذلك سعيدة جداً ، وشعرت في تلك اللحظة بحب حقيقي للبنان ينبع من أغوار قلبي فصحت بها وانا شبه مأخوذ .. سأبقى في لبنان. سأعيش هنا .. لا لم يعد

بقائي في لبنان رمز تشريدي ودليل حرماني من وطني .. ثم اردفت بعد برهة : « ليليان لقد كنت خير سفير الى قلبي » .

وتناهى الى سمعي تغريد طائر فانصت مصغياً . كانت موسيقى صافية تصل الى اذني فهتفت بليليان اسمعي سيمفونيا الحنين والسلام انها أروع سيمفونيا ـ وأعقب ذلك فترة هدوء قطعتها وهي تقول لي مشيرة الى امامي باصبعها : انظر .. انظر ما احيلاه . الصغير . بودي لو امسكه ونظرت الى حيث اشارت فرأيت دورياً صغيراً يحاول الطيران فيتعثر وركضت وراءه ابغي امساكه . كان يقف على شجيرة وقد كاد يختفي بين اغصانها . واقتربت منه ومددت يدي لالتقاطه ولكنه سارع فاختبأ داخل أوراق الشجيرة .. وجاءت ليليان ووقفت متيقظة تنتظر خروجه للانقضاض عليه . وادخلت يدي بين بين الاوراق ورأيته وقد شعرت انه اصبح تحت رحمتي وسارعت القي يدي عليه لكنه انفلت سريعاً وبقيت ريشة من ذنبه في يدي وصاحت ليليان وهو يطير من أمام وجهها : .. هرب .. هرب .. وركضنا وراءه سوية . وحط على شجيرة ثانية : ثم عاد وطاروابصرناه اخيراً يترنح في طيرانه وقد اتعبته المطاردة ولم نرحمه فظللنا نتعقبه .. وصادف في طريقه خصاً كبيراً مبنياً من الخشب والقش ويبدو ان اصحابه بنوه لايواء بعض الطيور فيه ولكنهم عادوا فهجروه ..وسارع الدوري الصغير بالدخول من بين القش ولم نضع وقتاً بل أسرعنا خلفه ودخلنا

الخص من بابه الأمامي .. ووقع نظرنا على الطائر وقد ارتمى على الارض يستعطفنا .. وهجمت عليه وامسكت بـــه دون ان يحاول ان يفلت مني ومددته بيدي نحو ليليان فتناولته مني وهي تقول : ما احيلاه الصغـير .

– لقد اتعبناه المسكين وتعبنا منه .

– ولكنه يستحق عناء التعب .. انـــه جميل .. قالت ذلك وهي ما تزال تتأمل الدوري .. ولكنك اجمل مخلوق . قالت ذلك ورفعت ناظريهـا الي .. ومددت يدي نحو الدوري وناولتني اياه ببطء .. وامسكت به وقلت وانا اقذف بـــه خارج الخص: لقد جاهد كثيراً فاستحق حريته. واجالت ناظريها في عيني بهدوء .. كانت بعض اشعـــة النور تدخل من الخارج خفيفة فلا تؤذي صمت الخص .. ومرت لحظـــات ترقب وهي تنتظر .. وفجأة شددتها الى صدري وبحثت شفتاي عن شفتيها .. وأبعدت رأسها بحركة سريعة فقبلتها في اسفل جيدها .. ثم التقت نظراتنا سريعاً لنعود فنلتقي في قبلة عارمة طويـلة وسرت في نفسي نشوة غريبة واحسست بسحر رائع يتفشى في كل ذرة من كياني وشعرت بابواب الأبدية تتفتح امامي فهمست في اذنها وانا مأخوذ : ليليان احبك .. احبك واريد ان ابقى معك في كل لحظة : وجاءني صوتها خافتاً .. . زياد احبك ولن اتركك بعد اليوم .

– اعيدي ذلك على مسامعي.

ـ احبك الى الأبد .
ـ احبك الى الأبد ولن يفرق بيننا شيء .
ـ لن يفرق بيننا شيء .
وعدت لأغرق معها في قبلة جديدة . وعدت اهمس :ليليان اني اهب كل حياتي راضياً مقابل يوم واحد نقضيه معاً.
ـ زياد سأكون لك دوماً .
ـ وهل سنكون سعداء ؟
ـ اننا سعداء منذ الآن . فنظرت اليها وقد احستني انساناً آخر فقلت لها وانا كالمأخوذ :ان الحياة العادية جداً معك مجد لا يضاهيه مجد ، واعظم مجد بدونك ليس سوى صدى فارغ انك تملأين كل الفضاء والزمان . ان صورتك تلاحقني كما يلاحق الطموح طموحة ، انها تستحوذ علي كما تستحوذ صورة الله على المتصوف . ان الالم من أجلك اعذب فرح . إن وطني بعد اليوم هو ان اكون معك .

٧

وتعددت نزهاتي مع ليليان.. كنت انتظر عصر كل يوم تقريباً وانا متلهف على مقابلتها..وننطلق حيثما طاب لنا الذهاب فنقضي الوقت احياناً بين احضان الطبيعة نجوب الجبال والاودية لا يعكر صفو هدوئنا معكر..

ونصادف احياناً بعض الرعاة فنرافقهم بعض الوقت ونراقب الماعز وهي تتسلق الجبال والخراف وهي ترعى وتنطلق نداعبها فنشعر وكأننا عدنا عشرين سنة الى الوراء فنجد سعادة كبرى.. واحياناً كنا نمضي الى بعض المقاهي فنصادف الناس بكثرة وتتناهى الينا اطراف من احاديثهم وكلها تدور حول الاحداث الدموية في البلاد فلا نلبث ان نضيق بهم وباحاديثهم فنعود الى احضان الطبيعة نتعبد هناك .

ونزلنا مرة من الجبل الى الساحل عند العصر ومضينا الى

فوار انطلياس وجلسنا في مقهى هناك والمياه تتدفق من حولنا ويتطاير رذاذها فيصيبنا فينعشنا وامامنا كانت بعض البطات تسبح في الجدول هانئة مسترخية ومن فوقنا كانت الاشجار في عناق مستمر .. والى القرب منا جلس زوجان وقد انسجما في الحديث ومعهما صبي في نحو السادسة تركهما ومضى يطارد البطات ويعكر عليها صفوها فتبتعد عنه وصوتها يعلو بالاحتجاج .. وجلست مع ليليان نتناول بعض المرطبات وما لبثت ان ابتدرتني قائلة : الى متى سنظل ننطلق هكذا ناسين الحياة ؟ واجبتها : اننا سعداء اليس كذلك ؟

ـ اجل اجل ولكني لا ادري لماذا تراودني بعض الأفكار احياناً تصور لي ان الحياة لن تتركنا بسلام .

ـ آه يا عزيزتي ان الحياة لن تفطن الينا .. سننهل كل السعادة في غفلة منها .

وتركنا المقهى ورافقنا الجدول في سيره فبدأ يمر بنا بين بساتين البرتقال واشعة الشمس تتسلل من بين الاغصان لتعانق مياه الجدول .

واستقلنا سيارة اجرة وعدنا الى الجبل . وصلنا بكفيا ثم عرجنا على مقهى خارج البلدة يقع على كتف الجبل . ودخلناه كان رواده مبعثرين في الساحة الامامية وجلسنا الى إحدى الموائد . كانت تبدو بيروت واضحة امامنا وقد اضطجعت

على رمـــال البحر كحسناء على الشـــاطىء وبدت الشمس في مواجهتها . كانت تسير بخطى متئدة في جنازتها – الصيف يمر سريعاً قالت ليليان ذلك وهي ترنو إلى البعيد .

« ونحن نحاول ان نسرق منه ما استطعنا من الانطلاق» كان ذلك ما اجبتها به . وعـــادت تقول لي وهي تنظر في وجهي وماذا تزمع ان تفعل في السنة القادمة .

– سأجوب الأرض بحثاً عن الحقيقة حتى أمـــلاء زاوية من الفراغ الكبير في رأسي .

– آه الحقيقة .. ألم تجدها بعد ؟

– لقد نسيت .. لست بحاجة الى شيء . أنا راض الآن .. وتمهلت قليلاً قبل ان اردف قائلاً : ليست بعد الحب حقيقة .. وحانت مني التفاتة الى اليمين كان النور قد بدأ ينطلق مـــن المنازل محاولاً كالمعرفة الانسانية ان يضيء بعض غياهب الظلمة الأبدية المخيفة .. وبدت لي بكفيا مارداً حاول ان يصـــل الى العلاء فأعيته المحاولة فاضطجع على كتف الوادي باسترخاء وعيناه تتطلعان الى النجوم باستمرار .

وغادرنا المقهى ودخلنا بكفيا كانت الحياة ما تزال تدب في البلدة : السيارات تمر متتابعة قادمة من بيروت والأنوار تنطلق قوية من الحوانيت والمقاهي عامرة بخليط من الناس . وأحسست بحاجتي للانطلاق من جديد فصحت بليليان ما أروع الليلة :من السخف ان نقضيها داخل المنزل .

ـ أجل أجل سنتجول بعض الوقت ولا بأس ان تـأخرت على أهلي قليلاً .

ـ سأرجعك بنفسي الى البيت .

وعرجنا قليلاً على بعض أماكن اللهو في بكفيا ثم تابعنا السير وأصبحت بكفيا وراءنـا ونحن نسير على الطريق في اتجـاه بسكنتا .. وانقطعت الاضواء البشرية عنا ولم يعد يعكر هدوءنا سوى ضجيج بعض السيارات القليلة .. ولم نلبث ان تركنـا الطريق الرئيسية ، نزلنا نحو الوادي .. كان القمر يضيء لنا السبيل وكنا نسمع وقع خطواتنا واضحة . ولم تلبث بعض الغيمات ان حجبت القمر عنا فخيم من حولنا ظلام ناعم وبـدأت الغيوم تتتالى خفيفة . ونظرنا الى العلاء نتابع المعركة بلذة وبان القمر من بين الغيوم وأشرت باصبعي الى العلاء وقلت لليليان. انظري الى القمر ما اجمله انه رائع .. انه يشبهك فاجابت وهي ما تزال ترفع رأسها الى العلاء .

ـ أيشبهني حقاً ؟

ـ بل انت أروع .

ـ بودي لو كنت أستطيع ان أصل اليه فأقبله .

ـ اما انا فلا اشعر بحاجتي اليه فلي قمري وهو لا يمنعني من الوصول اليه .

كانت ما تزال ترفع رأسها الى العلاء فضحكت ضحكة خفيفة وأغمضت جفنيها نصف اغفاءة وقد أدركت ما أريد .. وانعكست أشعة القمر على وجهها فأنارته .. كانت الروعة مجسمة .. ووضعت يميني تحت ذقنها ورفعتها الى العلاء وضممتها بيدي اليسرى الى صدري وغرقت معها في قبلة . وشعرت وأنا اضمها الى صدري اني اضم الوجود بكليته وأحسست اني املك العالم بأسره بين يدي ولم اعد بحاجة الى أي شيء آخر فهمست في اذنيها .. ليليان صدقيني لا حاجة بي الى القمر .. الوجود بأكمله .. انت حياتي .. احبك .. احبك جداً وسمعت صوتها صوتها يصلني خافتاً . احبك ورفعت عينيها الي وتمتمت : هل انت سعيد ؟ قلت جداً وعدت لأغرق معها في قبلة جديدة ولم نلبث ان تمددنا على الأعشاب ومن فوقنا كانت سنديانة وارفة الظلال تتكسر أشعة القمر على أوراقها فتنعكس على وجهينا خفيفة حالمة .. ومر نسيم يتهادى ناعساً وبدأت اغصان السنديانة تتلوى كحبيبة بين يدي عشيقها .. وداعب النسيم وجنتينا .. وسرت في جسمينا قشعريرة من البرد فبدأنا نشد ثيابنا الى انفسنا وبدأت ليليان تقترب مني حتى كادت تلتصق بي وهي تردد : الطقس بارد الليلة وأجبت قائلاً وانااضع وجنتي على وجنتها : ما اروعه من طقس انه برد دافىء.

وقلت لليليان ونحن نتطلع الى العلاء نحو القمر :

يبدو لي انه ليس حقاً ان الله طرد آدم من الفردوس ان الله لم يطرد آدم من الفردوس، لقد شعر آدم بعد ان وجد حواء الى جانبه بعدم حاجته فيما بعد الى الفردوس ولا الى الله . شعر ان حب حواء وحده يكفيه لذا ترك الفردوس راضياً قرير العين . وحينما رأى حواء قربه شعر انه بغنى عن الله وعن الفردوس وانه وحده مع حواء يستطيع ان يتحدى الوجود ويبني فردوسه الخاص به . وانت يا ليليان انت حواء الازلية انت فردوسي ومعبودي .

وعدت أحدق في وجهها المشرق تحت ضوء القمر وقد بان الأمل الكبير . . الحياة المتفتحة على رحابتها ثم قلت لها : أجل يا ليليان سنبني فردوسنا سنبنية بانفسنا ولن ينقصه شيء اليس كذلك ؟ يا عزيزتي السنا في الفردوس منذ الآن ؟ أيمكن ان يكون هناك فردوس اعظم من هذا الفردوس الذي نعيش فيه في هذه اللحظة ؟ آه ما اجملك .

وران علينا صمت حبيب نتأمل الفردوس الذي خلفناه من حولنا وشرد تفكيري الى بعيد فلم ألبث ان قلت لليليان :

– لقد نسينا الزمن فلم نعد نفكر بالماضي ولا بما سيأتي به المستقبل .

– زياد ارجوك ان تصمت . ان هذه اللحظات أثمن من ان

نضيعها بالتفكير في المستقبل .. دع المستقبل للمستقبل .. اما الآن فنحن فوق الزمان .

– ولكن اخبريني كيف قبلت ان تحبي متشرداً مثلي ؟

– أنسيت يا عزيزي ان شيلر قال : ان الحب عفوي غير مشروط يفيض تلقائياً من اغوار القلب .

– انك تستحقين قبلة .



٨

وكثرت نزهاتنا الى بكفيا ومنها كنـــا ننطلق الى الوادي بالقرب منها فنقضي وقتاً ممتعاً باللهو والانطلاق .. وكنـــا عصر أحد الأيام نتمشى وقد نسينا ان في الوجود عالماً غير المنطقة التي نحن فيها.. وزمناً غير اللحظة التي نعيشها.. وهبت ريح خفيفة فجأة وتراقصت اغصان الاشجار تحتها ولم تلبث بعض اوراقها ان تساقطت الى الأرض .. وظهرت في الجو بعض السحب الخفيفة فالتفت الى ليليان وقلت : لقد ادركنا الخريف سريعاً . ورنت الى البعيد وقـــالت : لا يا زياد لن نعرف الخريف بعد اليوم ستكون كل حياتنا ربيعاً مستمراً . وتعلقت بذراعي وشدتني ثم قالت : وهل سيستطيع الخريف ان يفرق بيننـــا ؟ ولم افطن الى جملتها جيداً فلم البث ان قلت لهـــا : اني قلق يا ليليان .. قلق لا ادري لماذا.. ان حالة البلاد التي مـــا تزال

مضطربه تثير في نفسي الوساوس .. وردت علي محاولة تبديد هواجسي : زياد مالك ولهذه الوساوس ، انها للنساء .

وقطع علينا حديثنا هطول بعض الأمطار الخفيفة ..والتفت الى السماء . كانت السحب الكثيفة قد بدأت تتجمع منـــذرة بهجوم شديد . وقوي عصف الريح .. وأمسكت بيد ليليان وقلت لها ان تركض معي قبل ان تلحق العاصفة بنا ولكننا لم نكد نعدو خطوات حتى تساقطت الأمطار بغزارة علينـــا . وتابعنا العدو حتى وصلنا الى بيت مهجور خرب ما تزال بعض جدرانه قائمة وكذلك بقية من سطحه . واختبأنا في داخـــله والوادي يبدو بأكمله امامنا ...

والتفت الى ليليـــان . لم تكن ترتدي سوى ثوب صيفي وجرسه خفيفة .. ورأيتها ترتعش قليلاً فقلت لهـــا : يبدو ان الأمطار بللتك كثيراً .

– بل الواقع انها بللت ثيابي الداخلية أيضاً .

وحانت مني التفاتة الى الخارج فاذا بظلمة مفاجئة قد غشيت المكان ، وفجأة لمع المكان باسره ثم دوى هزيم الرعد شديـــداً فتجاوب صداه مرهباً في أرجاء الوادي . والصقت ليليـــان رأسها بصدري بحركة عفوية وأحطتهـــا بذراعي الاثنين . وأحسست بها ترتجف فقلت لها : ليليان ما بك ؟ ورفعت رأسها

الي والفيت دمعتين حبيستين في مقلتيها لم تلبثا ان انحدرتا وهي تقول لي : زياد .. انا خائفة .. انا خائفة– وشددتها الىصدري وأنا اردد : ليليان لا تخافي . لا شيء يستطيع ان ينتزعك من بين يدي ولكنها عادت تردد : انا خائفة يا زياد خائفة جداً .. لن نبقى معاً سنفترق .. وأجهشت بالبكاء .. وعدت أقول لها : ليليان ما بك ؟ ماذا حدث لك ؟ هل حدث شيء مفـاجىء ؟ هل تعترضك مشكلة مع اهلك ؟ وحـــاولت ان تسيطر على أعصابها ثم قالت لي : لا لا يا زياد سأكون لك دوماً ما حييت ولكني خائفة ... أشعر اننا سنفترق فجأة الى غير لقاء .

وابتسمت قليلاً وأنا انظر في عينيها الدامعتين وقلت : اواه يا عزيزتي كدت تخيفينني معك .. لا تكوني حمقاء .. سأظـل دوماً الى جانبك .

وقابلت ابتسامتي بابتسامة باكية .. وتهللت اساريرها فرحاً وسالت دموع جديدة على وجنتيها فانحنيت عليهـا امسحهـــا بقبلاتي .. وسمعت صوتها يأتيني مردداً : زياد صدقني لقـــد أحببتك اليوم أكثر من أي يوم مضى .. شعرت اني بحاجةاليك ان تبقى دوماً الى جانبي .

واشتدت الظلمة من حولنا ودوى هزيم الرعـــد من جديد وتجاوب صداه عنيفاً مزلزلاً والقت ليليان بنفسها عـــلي وهي تقول بتلعثم : زياد زياد .. انظر هناك .. وأشارت باصبعها الى

الخارج ، وقبل ان التفت الى حيث كانت تشير قالت:هي هي.. انظر اليها ، وسألتها. ومن هي؟ وردت والقشعريرة لم تفارقها : جدتي لقد كنت أحبها كثيراً .

– وما بها ؟

– لقد رأيتها لتوي ..

وعدت أسألها مندهشاً : جدتك هنا في مثل هذا الوقت .. ماذا تفعل هنا بحق السماء . وصاحت بي :

– جدتي جدتي التي توفت في العام الماضي ؟

ونظرت الى الخارج فرأيت نوراً بهياً وسط الظلمة فأسرعت نحوه غير مكترث للامطار وأنا أصرخ : يا الهي اني اراك اني اراك .. وهاانذا على استعداد للرحيل . لقد بحثت عنك في كل مكان فلم أجدك في أي مكان ، فما كان اغباني حين مضيت أبحث عنك خارج ذاتي وانت تعيش في قلبي كعذاب اسمى من كل غبطة . هناك الكثير الكثير من الكراهية في هذا العالم . اننا نأكلها مع الخبز ونشربها مع الماء ، ولكني كنت أشعرك كصفاء أقوى من كل كراهية . لقد جعلتني اتألم ليولد زياد من جديد وهاانذا أقف عارياً امامك يا الهي لاصرخ هوذا زياد الجديد قد ولد .

وسمعت صوت ليليان يناديني من بعيد فأسرعت عائداً

اليها وصحت بها حالما وصلت اليها :

Liliane je ne peux pas me contenir; je suis plus que ce corps.

ليليان لا استطيع ان احتوي ذاتي . اني أكثر من هـــذا الجسد .

وأخذت ليليان تحدق بي بصمت فصحت بها : ليليان لقـد حان الرحيل ولست خائفاً ، هذا الجسد سيمضي قريباً ولكننا سنبقى أبد الدهر في لقاء .

ويبدو ان ليليان شدهت فظلت صامتة لا تدري ما تقول في حين عدت أسألها : ليليان هل ستذكرينني دوماً اذا حدث وافترقنا ؟ واربكها سؤالي قليلاً ولكنهـا لم تلبث ان رددت : كفى حماقة يا عزيزي فلن يفرقنا شيء ولكني عدت ألح بالسؤال فردت علي : بحق السماء أي شيطان دعاك الى ان تطرح علي مثل هذا السؤال ؟

– ليليان عزيزتي اجيبيني فأنا مشتاق لسماع رأيك .

– ولكنك تعلمه مسبقاً.

– ومع ذلك احب ان اسمعه .

والقت بصدرها على صدري فضممتها الي بشدة واختطفت

من ثغرها قبلة محمومة وهي تهمس : زياد انت خـــالد في قلبي : سأظل اذكرك مادام في عرق ينبض وحدقت في عينيها وانا اردد: ما اسعدني وانا قربك . لن أكون بعد اليوم وحدي. وبعد فترة صمت صغيرة صحت بليليان من جديد : ليليان سأمضى قريبـاً الى عالمي اللامتناهي ، هذا الجسد المتناهي قد تعب كثيراً وآن له ان يستريح فلا تحزني عليه وحاولت ليليان ان تستفسر عمـا أقول ولكنني لم امهلها بل قلت : منذ القدم عبر الانسان عـن شوقه الدائم للفردوس هـذا الحنين الأكبر هو مغزى قصـة آدم وحواء . والحنين الى الكمال . الى الفردوس المفقود والرجوع اليه هو عين ما دعاه افلاطون بالتذكر : بان النفس قد رأت الجمال المطلق في العالم الآخر وتشتاقه باستمرار . وأنا يا ليليان بي شوق لا يروى للعالم اللامتناهي وقريبـاً تمتزج نفسي بالجمـــال الكلي .

بالأمس حين كنت خارجاً من بيتكم انتـابني شعور غريب وأحسستني فجأة اسمو على نفسي وأتجاوب مع الكون الكلي بفرح لا متناهٍ وفجأة رأيتني في الفردوس . كانت غبطة فوق ما يتحمل جسدي وأحسست برغبتي بخلع هذا الجسد ... بيني وبين الله لم تعد هنـــاك أية مسافة ، شعرتني أعيش في الله والله يعيش في ... شعرتني احبه بالم مضن ويحبني بعاطفة طاغيـــة فأخذت أرقص بنشوة في الطريق ... وقبل قليل رأيتني فيه منخطفاً فصحت هاانذا ... وسأظل أهتف كل لحظة بعد اليوم

هاانذا ...

وصمت قليلاً قبل أن أقول لليليان من جديد :

Dieu c'est mon amour pour toi , c'est toi , c'est notre amour ... Je le sens en moi - même c'est moi - même aimer c'est partager Dieu sa divinité .

الله هو حبي لك ، هو انت ، هو حبنا ... انني اشعره في نفسي هو أنا نفسي . الحب هو مشاركة الله الوهيتة ...

وانقطع هطول الأمطار وأسرعت أعدو وليليان للخروج الى الطريق الرئيسية واعترضتنا مياه الأمطار وبدأت رجلا ليليان تغوصان في الأوحال فحملتها بيميني ومضيت أعدو بها وهي تحتج وأنا غير مكترث لاحتجاجها حتى وصلنا الى الطريق العام .

وأخذنا نحث الخطى في طريق العودة وأمسكت بيمين ليليان وقلت لها : اشكرك من أعماق قلبي ، لقد عرفت بفضلك السعادة والسلام ، ان كل لحظة من هذه الأشهر القليلة الماضية تساوي عمراً بكامله .

وجاءني ردها سريعاً : وانا كذلك اشكرك من أعماق يا زياد ، وعدت احدق في عينيها وأنا أقول : الويل لنا جميعاً يا ليليان لو لم يكن الله موجوداً لاننا سنظل مشردين الى الأبد غرباء الى منتهى الأيام .. ليليان انت وطني ، انت الصخرة التي

ارتاح عندها .. لقد عشت غريباً جداً . لقد طالت غربتي في هذه الأرض .. ابن الانسان ليس له اين يسندرأسه ولكن دعيني أسند رأسي مرة واحدة على صدرك الدافىء واستسلم للبكاء فما أحوجني الى الدموع الغزيرة تظهر سنواتي الضائعة .

– كلنا غرباء يا زياد ولكننا لا ندري ذلك ..

– لقد عشت رحالة في هذه الحياة ، رحالة في صحراء البحث عن واحة .

– كلنا مسافرون باستمرار .

– لقد وجدت في عينيك الواحة التي استريح عندها وأحط رحيلي ، وعلى شفتيك الباسمتين وجدت حياتي الضائعة وعلى وجهك المشرق قرأت نهاية بؤسي . وفي وجودك كانت نهاية غربتي ... اريدك ليليان وطناً دائماً .. اريدك الى جانبي في كل لحظة من حياتي ، لست أستطيع بعد اليوم ان اتصور حياتي بدونك ان كل ساعة اقضيها بعيداً عنك جحيم وكل دقيقة امضيها في صحبتك حياة كاملة . خارج عنك لم يعد لي من وجود وصمت قليلاً قبل ان اهتف بليليان من جديد : ليليان لقد غيرت حياتي . لقد جعلتني من جديد أؤمن بالانسان وبقدرته الفائقة على محبة الآخرين . الى جانب العنف في قلب الانسان بحار عميقة الاغوار من الحب ولقد جعلتني اكتشف هذا الحب الغائر العميق فمن اعماقي اشكرك لاني ولدت من جديد. كلما

التقت نظراتنا اشعراني أكمل وأغنى . في كل عمل منك دفء انساني يمد قلبي بالأمل الكبير . وكما اشعرني ولدت من جديد .

لا بد ان تولد الانسانية من جديد. وكما افتداني حبك الكبير لا بد من حب كبير يفتدي الانسانية وعندها لن تبقى اورشليم مقسمة . ان جميع الذين يقيمون الحواجز بين الانسان وذاته يقيمون الحواجز داخل قلب الانسانية ومع فجر الحب الكبير سيعود السلام الى قلوبنا .علينا ان نأمل دوماً بان النفس لن تظل مقسمة . انه حلم يبدو بعيد المنال ولكن ما قيمة الحياة دون احلام كبيرة ؟

الى هنا ينتهي ما دونه زياد في دفتره عن هذه الفترة من حياتنا المشتركة . ان القشعريرة لتأخذني كلما حاولت ان ادون الفصل الأخير : ما زلت اذكر ذلك النهار ، كان ذلك بعد تعرضنا للامطار بايام ثلاثة . أمام مدخل بيت زياد جلس رجال كثيرون وقد علا الصمت وجوههم .. وجاءني العويل من الداخل وأنا لا اعي ما يدور حولي . وهناك الفيت بضع نساء يجلسن حول سرير مسجى عليه زياد وقد لف وجهه بالشاش الأبيض ... وضبطت اعصابي كي لا اصيح بملء فمي وانهار على سريره .. ولكن شهقة عنيفة ندت عني بسرعة وضاعت بين تأوهات النساء .. ولم أطق ان أبقى أكثر من لحظات بل مضيت الى الخارج ثم انطلقت وانا اسمع الناس يرددون : كيف اصيب ؟ مسكين .. كان في طريقه الى بيروت .. بل كان عائداً منها .. أصيب برصاصة طائشة ..

وخرجت أسير على غير هدى .. لا لم يمت زياد بلى بلى ..
ولماذا يموت لماذا يموت ؟ لأنه مات .. انتهى أصبح ماضياً ...
وبدأت اصرخ في الوادي : زياد .. زياد .. ثم اصمت قليلاً لأسمع
صدى صراخي يتجاوب في الارجاء .. وانظر الى ما حولي .
كل شيء على ما عهدته ايام حبي الخالدة ؟ احبك.. احبك كثيراً
وسأعطيك سميراً من جديد .. اني اهب حياتي مقابل يوم واحد
نقضيه معاً .. سأكون دوماً لك .. « ليليان هل ستذكرينني
دوماً اذا حدث وافترقنا ، كفى حماقة يا عزيزي فلن يفرقنا
شيء .. ما اسعدني وانا قربك .. سأكون لك ما حييت ..
ولكني خائفة خائفة اشعر اننا سنفترق فجأة الى غير لقاء ..
لا تخافي لا شيء يستطيع ان ينتزعك من بين يدي .. ليليان
سأمضي قريباً الى عالمي اللامتناهي ، هذا الجسد المتناهي قد
تعب كثيراً وآن له ان يستريح فلا تحزني عليه ... وانتفضت
بكليتي : ولكني اريد هذا الجسد ... اريد ان اشعر بدفئه
يدب في اوصالي ... زياد لماذا تركتني فجأة . الحياة بدونك
ليل بارد طويل .. كان لقاؤك دفء الحياة فأصبح غيابك برودة
العدم تسري في عظامي ...

وتلفت حولي .. ها هي السنديانة التي شهدت حبنا .. وها
هو القمر الذي كان يضحك لنا يطل من وراء الجبل ، ولكنه
الليلة يقهقه ضاحكاً من احلامي الصغيرة ..

وفوق الأزهار والاشجار والأودية والجبال رأيت الموت

شبحاً مخيفاً باسطاً جناحيه وفاتحاً فمه يعربد مقهقهاً .. انه يعلم دوماً انه المنتصر الأخير ... وبدت الحياة لي ضياعاًمستمراً ...
ولكن كل ما حولي ، الأشجار والازهار والصخور والمنـــازل والقمر والناس القليلون الذين مروا بي كنت اسمعهم يصرخون بي : انت ستستمرين في الحياة ... انت محكوم عليـــك ان تعيشي .. والعيش هو تحمل روعة الوجود ، والظمـــأ الأبدي يمزق اعماقك .

تمت

بيروت الاثنين ٢ / ١١ / ١٩٦٤ .

هذه الرّواية ..

« ... لم يعد هنا .. ولكني اشعر كثافة فراقه في عظامي.. كلا انه ما زال هنا .. وسألقاه لتوي فتعود للأصوات انسانيتها وللحجارة عاطفتها .. » .

استبد بي قلق مفاجىء وصرخت أين انت ؟ لا تتركني ثانية . لماذا تركتني فجأة ومضيت .. انني احتاجك .. احتاجك كثيراً.. لقد قضيت عمري ابحث عنك وحين وجدتك مضيت سريعاً .. اهكذا تضيع حياة بكاملها ؟ !! .

وانهمرت دموعي غزيرة وأنا اتضرع صارخة : لا لن تظل مصلوباً إلى الأبد .. هذا مستحيل.. مستحيل.. مستحيل. »

تلفت حولي في الغرفة فلم أجد إلاّ الظلام يلف كل ما يحيط بي . وقبل أن يهدأ روعي سمعت صوته آتياً من بعيد يخاطبني :

« ليليان .. انا الفراق الأبدي.. أنا التمزق .. أنا الضياع .. سأظل أبحث عن وحدتي والحنين يأكلني .. سأظل افتش عن ذاتي والشوق يحز عظامي .. لقد تركتني الآلهة .. ونبذني العالم .. بي ظمأ شديد ولكن بدل المـاء سقاني الناس خلاً .. سأظل أجوب الارض والظمأ الأبدي يأكل كبدي !! » .

الثمن ٣٥٠ ق. ل. أو ما يعادلها